المُفرد العَلَم في رسم القلم

تأليف

السيد أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي

تحقيق

د. محمد أحمد قاسم



المكتبة العصرية

صيدا - بيروت

المفرد العلم
في
رسم القلم

تأليف
السيد أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي

تحقيق
د. محمد أحمد قاسم

المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

١٤٢٣هـ - 2002 م

شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة العصرية للطباعة والنشر

الدار النموذجية المطبعة العصرية

بيروت - ص.ب ١١٨٣٥٥ - تلفاكس ٠٠٩٦١١٦٥٥٠١٥
صيدا - ص.ب ٢٢١ - تلفاكس ٠٠٩٦١٧٧٢٠٣١٧
e-mail: alassrya@terra.net.lb

ISBN 9953 - 435-91-X

بسم الله الرحمن الرحيم

السيّد أحمد الهاشمي
(١٢٩٥ ـ ١٣٦٢هـ)
(١٨٧٨ ـ ١٩٤٣م)

حياته:

لم نجد في كتب التراجم من أخبار حياته الفاعلة في ثقافة عصره ما يكفي الدارس، ويفيد الباحث. كلّ ما عثرنا عليه شذرات من مراحل حياته المتأخرة الوافرة بالعطاء والتأليف التربوي بشكل خاص[١].

اسمه:

أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي.

موطنه:

هو من أهل القاهرة، ووفاته بها.

مولده ووفاته:

ولد سنة ١٢٩٥هـ/ ١٨٧٨م وتوفي في القاهرة سنة ١٣٦٢هـ ١٩٤٣م.

أساتذته:

تربّى على أيادي أساتذة الجيل. نذكر منهم:

١ ـ الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ ـ ١٣٢٧هـ/ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م).

٢ ـ الشيخ سليم البشري (١٢٤٨ ـ ١٣٣٥هـ/ ١٨٦٧ ـ ١٩١٧م).

٣ ـ الشيخ حسّونه النواوي (١٢٥٥ ـ ١٣٤٣هـ/ ١٨٤٠ ـ ١٩٢٥م).

٤ ـ الشيخ حمزة فتح الله (١٢٦٦ ـ ١٣٣٦هـ/ ١٨٤٩ ـ ١٩١٨م).

مسيرته التّعليمية:

امتهن حرفة التعليم، وتقلّب في مناصب مرموقة بين التعليم والإدارة. وذكر أنه

(١) راجع: القواعد الأساسيّة للغة العربية. طبعة المكتبة العصرية ١٩٩٨ ص٥ وما بعدها، ففيه ترجمة شبه وافية لحياته وشيوخه ومؤلفاته.

كان مديراً لثلاث مدارس أهلية: واحدة للذكور واثنتان للإناث. كما ذكر أنّه كان مديراً لمدارس الجمعية الإسلامية.

ويبدو أنه توصّل في أخريات حياته الزاخرة بالعطاء إلى منصب مدير مدارس الملك فؤاد الأوّل.

مؤلفاته:

ذكرت له مؤلفات عدّة طبع أكثرها. وربّما ورد اسم المؤلَّف مختلفاً من مرجع إلى آخر. وأشهر مؤلفاته:

١ ـ **جواهر الأدب في أدبيّات لغة العرب**: صدر عن مكتبة المعارف ببيروت ثم طبع بعدها مراراً. والكتاب ضخم يقارب عدد صفحاته ألفاً من الصفحات. وهو كتاب يحوي نصوصاً تراثية شعرية ونثرية بالغ الهاشمي في تهذيبها، وبذل مجهوداً في حسن ترتيبها.

٢ ـ **جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع**:

صدر مراراً وعدد طبعاته لا يحصى. تناول فيه علوم البلاغة الثلاثة: المعاني والبيان والبديع. عرض الهاشمي هذه العلوم عرضاً شائقاً بسّط فيه المصطلحات، وقرّبها من أفهام الطلبة والمتعلّمين، وشرح معتاصها، ورسّخ حدودها في أذهانهم معتمداً نهجاً في التأليف فريداً جمع فيه التنظير إلى التطبيق.

٣ ـ **ميزان الذهب في صناعة شعر العرب**.

صدر مؤخراً عن مؤسسة الكتب الثقافية ببيروت. وكان قد طبع مراراً قبل هذه الطبعة الصادرة سنة ١٩٨٩م. تضمّن مباحث علمي العروض والقافية. وهو كتاب تعليمي نحا فيه منحى الشواهد المحلولة والتطبيقات المتعدّدة. قدّم مادته تقديماً سهلاً ذلّل فيه صعوبات العلمين وإن كان قد أسهب في ذكر التسميات المتعلّقة بالزحافات والعلل. ألحق به فنون الشعر المختلفة الملحقة بالبحور الستة عشر كلزوم ما لا يلزم، والتسميط، والإجازة، والتشطير، والتخميس، وأوزان الموشّح والدوبيت، معرّجاً على أوزان الشعر العامي من زجل، ومواليا، وكان وكان، والقوما، وما إليها.

٤ ـ **القواعد الأساسية للغة العربية**:

صدر مؤخراً عن المكتبة العصرية سنة ١٩٩٨ بحلّة قشيبة، وطباعة أنيقة وقد حقّقه الدكتور محمد قاسم.

جمع فيه الهاشمي أبواب علمي الصرف والنحو مهتدياً إلى أمثلة وشواهد وتطبيقات لم يسبق إليها؛ فمادته مكثفة، وتمريناته وافرة، والإعراب النموذجي يذيّل كل باب من أبوابه.

٥ ـ ذُكِر له عدد من الكتب الأخرى، مثل:

ـ أسلوب الحكيم (مجموع مقالات)

ـ السعادة الأبدية في الشريعة الإسلامية

ـ مختار الأحاديث النبوية والحكم المحمّدية من البخاري وكتب الحديث المعتبرة.

ـ السّحر الحلال في الحكم والأمثال.

٦ ـ المفرد العلم في رسم القلم:

ذكر الهاشمي في مقدمة كتابه جواهر البلاغة ص٣ اسم هذا الكتاب على الوجه الآتي: المفرد العلم في باب النسب. والتسمية هذه لا تتّفق مع مضمون الكتاب؛ وعليه فإننا نميل إلى وجود كتاب آخر يعالج موضوع الأنساب هو هذا الكتاب المذكور في مقدمة جواهر البلاغة لأنّ المفرد العلم في رسم القلم يعالج موضوعاً آخر مختلفاً هو علم الخطّ أو ما يسمّى حديثاً بعلم الرسم أو الإملاء.

طبع كتاب المفرد العلم في رسم القلم مراراً؛ وأحدث طبعاته تلك التي أصدرتها المكتبة التجارية بمكة المكرّمة سنة ١٩٩٧م. وقد اعتمدنا في طبعتنا هذه النسخة الصادرة عن دار القلم بيروت بدون تحديد لسنة النّشر.

يقع الكتاب في ثمانية أبواب تحدّث فيها عن قواعد الكتابة بشكل جامع ودقيق ومعلّل. ويتضمّن كل فصل منها عدداً من المباحث التفصيلية المعزّزة بأمثلة تراثية في غالبيتها. يشكّل هذا القسم من الكتاب ما يُسمّى بقواعد الخط العربي (الإملاء). ولكون الكتاب تعليمياً فلقد أثبت فيه قرابة مائتي نصّ تطبيقي تصلح لأن تكون نصوص إملاء اختباري لتلامذة المدارس. هذه النصوص مفيدة جداً تخدم الأهداف التربوية والسلوكية في آنٍ، امتزج فيها النثر بالشعر، والآية القرآنية الكريمة بالحديث النبوي الشريف، والحكمة بالمثل السائر حتّى صار الكتاب معرضاً للفكر التعليمي الهادف إلى تخليص التلميذ من أخطاء الكتابة ومدّه بكثير من القيم الخلقية والاجتماعية والدينية وغيرها.

جديد هذه الطبعة: كون الكتاب تعليمياً حملنا على مراعاة ما يأتي:

١ ـ العناية الفائقة بعلامات الوقف التي لم تراع في الطبعات السابقة، بل وزّعت عشوائياً هنا وهناك من غير نظر إلى قواعدها المحكمة.

٢ ـ ضبط ما يجب ضبطه. أهملت الطبعات السابقة ضبط النصوص التطبيقية والقواعد الوظيفية فأساءت إلى التلاميذ والكتاب ومؤلّفه لأنّ الكتاب التعليمي بعامة واللغوي بخاصة لا قيمة له إن هو أهمل الشّكل الإعرابي الذي هو بحقّ سمة لغتنا العربية المميزّة.

٣ ـ تخريج الآيات القرآنية الكريمة. وجدنا الطبعات السابقات لا تميّز الآيات عن كلام المخلوق ولم تحصرها بين القوسين المكلّلتين فاختلط بذلك النص المقدّس بغيره من كلام الناس. وهذا مخالف لقواعد الكتابة الموضوعية. لهذا عمدنا إلى تخريج الآيات في المتن وحصرناها كما هو مفروض أن يحصر النص القرآني.

٤ ـ تصحيح ما وقع في النسخ المتقدّمة من أخطاء سواء أعادت هذه الأخطاء إلى أخطاء الطباعة أم إلى التصحيف أو التحريف ليأتي الكتاب جامعاً ونافعاً. ولقد اعتمدنا في تصويب ذلك مقابلة النسخ المطبوعة وخاصة طبعة دار القلم وطبعة المكتبة التجارية، ولم نغفل السّياق والحس اللغوي في كلّ ما ذهبنا إليه من تصويبات.

٥ ـ الفصل بين حواشينا وحواشي المؤلف. المعروف أن السيّد الهاشمي كثيراً ما يعتمد الحواشي لتفصيل ما يوجزه في المتن. وللأمانة والفائدة تركنا حواشيه لا بل قدّمناها على حواشينا وجعلنا هذه الحواشي مسبوقة بالرقم الهندي المحصور بقوسين (١)، (٢)، (٣) وهكذا. أما استدراكاتنا عليه فتأتي متأخرة وهي محصورة بحاصرتين [١]، [٢]، [٣].

٦ ـ عدم تخريج الأبيات الشعرية والاكتفاء بذكر أوزانها والتثبّت من صحّة العروض فيها. وإغفال التخريج إرادي لاعتقادنا أن تخريجه غير ضروري في نص إملائي من جهة، ولأن بعض هذه الأبيات من الأمثال السائرة والحكم المأثورة وما إلى ذلك من جهة أخرى.

٧ ـ الاكتفاء بفهرسين عقدنا أولهما للموضوعات، وثانيهما لمصادر التحقيق ومراجعه. وقد ذهبنا إلى ذلك نظراً لطبيعة الكتاب التّعليمية أوّلاً، ولضآلة الفائدة من ذكر الأعلام والأماكن وغير ذلك في كتاب كهذا ثانياً.

وفي النهاية نأمل أن تأتي هذه الطبعة ميسّرة ومفيدة ومحافظة على النّص منيرة جوانب الظلمة فيه بحواشيها وتعليقاتها، كما نأمل أن تؤدّي خدمة للقارئ العربي الباحث عن جواهر لغته المكنونة، وعن أصول كتابتها ليخلّص لسانه وقلمه من شوائب الرسم الخاطئ والنطق السقيم. والشكر أولاً وآخراً للمولى القدير الذي نسأله سداد الرأي وصالح الأعمال، إنه نعم المولى ونعم النصير.

محمد أحمد قاسم

إليكُمْ معشرَ الكتّاب

اعلموا حفظكم الله أنّ مرتبة الكتابة هي من الأمور التي بسببها ظهرت من القوة إلى الفعل خاصّة نوع الإنسان، وامتاز بها كمالَ الامتياز عن سائر الحيوان. ولذلك قيل: إنّ الخطّ أفضلُ من اللفظ لأنّ اللفظ يُفهِمُ الحاضر، والخطّ يُفهِمُ الحاضر والغائب، ولأنّ الكتاب يفعل ما لا تفعله الكتائب(١) فلذلك كانت فضائل الخطّ جمّة، ومزيّته لارتفاع درجة النوع الإنساني مهمة، وهو وسيلة لغيره من سائر العلوم العقلية والنقلية، والسبب في توسيع دائرة المعيشة الدنيوية من الزراعة والتجارة والصناعة والإمارة، وربّما كان مَنْ تَقَدَّم في هذا العلم النفيس ومهَرَ، وعُرِف بالجودة فيه واشتهر، يفوز بأعلى المراتب، ويتزاحم على رقّه المنشور وكتابه المسطور بالمناكب ويتقلد بمنصب الوزارة، ويكون ممّن عَقَدَ على أعلى المجد والشرف إزاره. فريد عقد نظام الدولة، المرجع إليه عند إظهار الصَّوْلة ونفوذ القولة. وهذا الوزير أبو علي محمد بن علي بن مقلة[١] قد مازه بعين نقدِه، وابتدع فيه طريقة لم يظهر مثلها من قبله ولا من بعدِه، وتبعه في ذلك المشروع المستطاب، علي بن هلال المعروف بابن البَوَّاب، سالكاً مسلكه ومنهجه، فهذّب طريقته وكساها حلاوة وبهجة.

(١) الكتائب: جمع كتيبة، وهي الجيش المجتمع. والمراد أن الكتائب لا تفعل مع استلزامها للمشافهة اللفظية ما يفعله الكاتب الرادع الزاجر.

[١] ـ جاء في وفيات الأعيان ١١٧/٥ «فهو أوّل من نقل هذه الطريقة من خطّ الكوفيين إلى هذه الصورة هو أو أخوه، وأنّ ابن البّواب تبع طريقته ونقّح أسلوبه». وتوفي ابن مقلة سنة ٣٢٨هـ.

بسم الله الرحمن الرحيم

حمداً لمن علّم بالقلم، وشكراً على ما أنعم به ورَسَم، وصلاة وسلاماً على «المفرد العلم» سيّدنا محمّد سيّد العرب والعجم، وعلى آله وأصحابه وسائر إخوانه وأحبابه.

وبعد: فإن من أرفع العلوم وأعلاها، وأنفس الفنون وأغلاها، فنّ الرسم الذي طالما دَرَسَتْ رُسومُه، وصار كالهباء منثوراً رميمُه؛ حتى ولعْتُ به حيناً، وأقمت على خدمته رهيناً. فنظمت درّه في قلائد هذه الرسالة اللطيفة، والتّحفة المنيفة، متحفاً بها نجباء أبناء المعاهد العلمية التي هي بإهداء نفائس المؤلّفات النافعة حَرِيَّة «اقتطَفْتُ ثمرتها من رياض كتب المتقدِّمين والمتأخِّرين» فجاءت بحمد الله متخلّية عمّا يشين، متحلّية بما يزين. وسمّيتها:

المفرد العلم في رسم القلم

واللّهَ أسأل أن ينفعَ بها الطّلاب، ويفيد بها الكتّاب. آمين

المؤلف: السيد أحمد الهاشمي

مقدمة
في مبادئ علم الرسم[٢]

١ ـ علم رسم الحروف: هو قواعد اصطلاحية، بمعرفتها يُحفظُ قلمُ الكاتب من الزيادة والنقصان[٣].

٢ ـ وموضوعه: الهمزة، والألف اللينة، والكلمات التي يجب انفصالها من بعضها، والتي يجب اتصالها ببعضها، والحروف التي تُبْدل، والحروف التي تزاد، والحروف التي تنقص.

٣ ـ وثمرته: حفظ قلم الكاتب من الخطإ واللحن في الرسم.

٤ ـ وحكمه: الوجوب الكفائي، لما أن صنعة الكتابة واجبة على الكفاية كسائر الصناعات.

٥ ـ وفضله: احتياج كل علم إليه، ولا غنى له عنه؛ لأنَّ تدوين العلوم بأسرها وحفظها متوقّف على الكتابة.

٦ ـ ونسبته إلى البنَان كنسبة النحو للسان، والمنطق للجَنان.

٧ ـ واستمداده من الأصول الصرفية والقواعد النحوية.

٨ ـ وواضعه علماء(١) البصرة والكوفة.

---

(١) والصحيح أنّ أوّل من خطّ[٤]، مُرامِر بن مُرّة كان يسكن الأنبار إلى أن ظهر علماء الكوفة =

---

[٢] ـ علوم اللغة العربية اثنا عشر علماً، أحدها علم الخطّ وقد أطلقت تسميات عديدة عليه، منها: علم قوانين الكتابة، علم الهجاء، علم رسم الحروف، علم الإملاء...

[٣] ـ من تعريفاته المتداولة: ـ تصوير اللفظ برسم أحرف هجائه.
ـ تحويل الأصوات المسموعة إلى رموز مكتوبة، على أن توضع الحروف في مواضعها الصحيحة من الكلمة.
ـ بيان كيفيّة رسم الألفاظ اللغويّة.

[٤] ـ في المزهر للسيوطي (٢/ ٣٤١ وما بعدها) أخبار عن أوّل من كتب العربية منها ما نسب الرّيادة إلى آدم عليه السلام، أو إلى إسماعيل عليه السّلام، وقيل إنّه للخَفْلَجان بن الوهم كاتب الوحي لهود عليه السلام. وفي مسند الإمام أحمد عن أبي ذرّ (ر) أنّ النبيّ ﷺ قال: «أوّل من خطّ بالقلم إدريس». وهناك رواية تنسب الخطّ العربي إلى جماعة من الملوك وهم: أبجد، هوّز، حُطّي =

والكتابة لغة: مصدر كتب إذا خطّ القلم، وجمع وضمّ، وخاط وخرز. وفي الاصطلاح: نقوش مخصوصة ذات أصول بها تعرف تأدية الكتابة بالصحة، ويقال لها فن رسم الحروف. وقد سموا هذا الفن بعلم الخطّ القياسي أو الاصطلاحي المخترع في مقابلة خطّين لا يقاس عليهما. فالخطوط ثلاثة:

ـ **الأول**: خطّ المصحف، ويكتب على ما رسم في مصحف الإمام وإن خالف القياس[٥]. مثل اتصال التاء بحين في قوله: ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص: ٣]. [وقد كتبت

= واشتغلوا باستنباط القواعد له فسمي بالخطّ الكوفي ثم تبعهم في تدوين قواعده علماء البصرة، ومن الأنبار انتشرت الكتابة في العرب حتى جاء الإسلام فانتشرت في مكة، والمدينة، وجميع البلاد التي افتتحها المسلمون[٦]، ثم جاء ابن مقلة فنقل الكتابة من الخط الكوفي إلى هذه الصورة. وبعده ابن البواب.

واعلم أن الكتابة العربية قريبة الحدوث قبل الإسلام، لأن العرب كانوا أهل حفظ ورواية أغناهم حفظهم عن الكتابة، وكانت أشعارهم هي دواوين تواريخهم وضابطة لأيامهم وحروبهم، وأمّا الشّكل والنقط فحدثا بعد الإسلام، والواضع لبعض الشكل أبو الأسود الدؤلي لمّا فشا اللحن باختلاط العرب بالعجم[٧]. واصطلح على أن يكون الشكل نقطاً فيُدَلّ على الفتحة بنقطة فوق الحرف، وعلى الكسرة بنقطة تحته، وعلى الضمة بنقطة عن شماله، والسكون لا علامة له، والتنوين بزيادة نقطة على الشكل غير أنها توضع بجانب أختها إن لم يكن بعد التنوين حرف حلق، وفوق أختها إن كان بعد التنوين حرف حلق.

وأول من وضع النقط نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر تلميذا أبي الأسود[٨] غير أنهما كانا يرسمان نقط الشكل بمداد يخالف مداد النقط، وقسما الحروف إلى مهملة، أي: خالية من النقط، ومعجمة، أي: مشتملة عليه. وعلى ذلك كانت الحروف المهملة ثلاثة عشر، وهي: ا ح د ر س ص ط ع ك ل م هـ و. والمعجمة أربعة عشر وهي:

ب ت ث ج خ ذ ز ش ض ظ غ ف ق ن =

= كلمن، سَعْفَصْ، قَرُشَتْ فسمّي الهجاء بأسمائهم.

ونُقِل عن الشّعبي أنّه قال: «أوّل العرب الذي كتب بالعربية حَرْب بن أميّة بن عبد شمس، تعلّم من أهل الحيرة، وتعلّم أهل الحيرة من أهل الأنبار».

[٥] ـ قال ابن دُرُستويه (كتاب الكتّاب ص١٦): «وجدنا كتاب الله عزّ وجلّ لا يُقاس هجاؤه، ولا يخالف خطّه؛ ولكنه يُتَلَقّى بالقبول على ما أودع المصحف» فرسمه سنّة متّبعة، لا تغيير فيها، ولا يقاس عليها.

[٦] ـ ذكرت المصادر عالماً آخر إلى جانب مُرَّة هو أسلم بن جَدْرة الأنباري.

[٧] ـ راجع: مراتب النحويين لأبي الطيّب اللغوي ص٢٩.

[٨] ـ أكثرية الباحثين على أن أبا الأسود هو واضع النقط بقسميه: نقط الشكل ونقط الإعجام. راجع: المحكم في نقط المصاحف للداني.

(ولا تحين مناص)] فإن القياس يقتضي فصل التاء من حين، لأن لات كلمة واحدة وحين كلمة أخرى.

ومثل قوله تعالى: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾ [النساء: ٧٨] ﴿وَمَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ﴾ [الفرقان: ٧] ﴿وكلّ ما أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ﴾ [الملك: ٨] فإنّ القياس عدم فصل الهاء من اللام، وما من كل، وهكذا مما خالف القياس، ولكنه سنّة متبعة مقصورة على القرآن الشريف.

ـ **الثاني**: خط العروضيين: وهو على حسب الملفوظ به[٩].

= أما الياء فمهملة في الطَّرف معجمة في الأول والوسط، وأول من وضع الشكل الذي نرسمه الآن هو الخليل فجعل للفتحة ألفاً صغيرة مضطجعة فوق الحرف الصغير، وللكسرة رأس ياء صغيرة تحته، وللضمة واواً صغيرة فوقه، وكرّر الحرف الصغير للتنوين فكتبه مرتين فوق الحرف رفعاً ونصباً، وتحته جرّاً، ووضع للسكون الشّديد ـ وهو المصاحب للإدغام ـ رأس سين مهملة، وللسكون الخفيف رأس حاء مهملة، وللهمزة رأس عين، ولألف الوصل رأس صاد فوقها، وللمدّ ميماً صغيرة متصلة بجزء من الدال، فمجموع ما وضعه الخليل ثماني علامات:

(الفتحة والضمة والكسرة) مفردة ومكرّرة والسكون والشّدَّة والمدَّة والصلة والهمزة وهكذا شكلها:

بَ، بُ، بِ، باً، بٌ، بٍ، بْ، بّ، آ، ٱ، أ

وكلها حروف صغيرة أو أبعاض حروف بينها وبين مدلولاتها مناسبة ظاهرة بخلاف طريقة أبي الأسود وأتباعها فإنها مجرد اصطلاح لم يبن على مناسبة بين الدَّوال والمدلولات.

وقد تفنّن أتباع الخليل بحذف جزء من رأس الياء المجعولة علامة للكسرة فصارت هكذا. وحذف رأس الميم من علامة المدّ فصارت هكذا ـٓ، وأجازوا الضّمتين أن تكتبا على الأصل هكذا ـُـُ، أو تُرَدّ الثانية على الأولى هكذا ـٌ، أو تتصل بطرف الأولى مقلوبة هكذا ـٌ، وفي الكسرة مع الشّدة أن توضع الكسرة تحت الشدة أو تحت الحرف هكذا بِّ، بّ، وفي الهمزة المكسورة أن توضع مع الكسرة تحت الألف هكذا إ أو توضع الهمزة فوق والكسرة تحت هكذا أِ وفي السكون أن يكون مُدَوَّراً هكذا «°» أو حاء محذوفة العجز هكذا حـ.

وقد جرى الكتاب على ترك الشكل في الخطابات والصحف اليومية وما أشبه ذلك، وعلى شكل ما يشكل في كتب التأليف وشكل الكتب المقدّسة، وكتب تعليم الأطفال زيادة في الاحتياط وخوفاً من الخطأ.

---

[٩] ـ قال ابن دُرُستويه (كتاب الكتّاب ص١٦): «ورأيت العروض إنّما هو إحصاء ما لفظ به من ساكن ومتحرّك، وليس يلحقه غلط، ولا فيه اختلاف بين أحد».

=

ـ **الثالث**: الخطّ الاصطلاحي: في غير المصحف والعروض فإنه ليس جارياً على اللفظ كما يجري العروض، فقد يحذف منه ما يثبت في اللفظ، وقد يزاد فيه ما لم يُتَلفظ به، وقد يكتب حرف بدل آخر ككتابة بشرى بالياء واللفظ بالألف، وككتابة لنسفعاً وليكوناً وإذاً بالألف واللفظ بالنون، وككتابة مثل أؤتمن المبني للمجهول بالواو ولفظه في الدرج بالهمزة وغير ذلك ممّا سَنُبَيّنه.

وهذا القسم الأخير هو الذي سنكتب على أصوله وينحصر في ثمانية أبواب:

= ولهذا نختم بما قاله ابن درستويه (الكتّاب ص١٧): «خطّان لا يقاس عليهما خطّ المصحف، وخطّ تقطيع العروض».

وأوصت ندوة مناهج اللغة العربية التي انعقدت في الرّياض سنة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م بما يأتي:

١ ـ عدم احتذاء الرسم القرآني؛ لأنّه قد روعي فيه طرائق الأداء في القراءات القرآنية لا القواعد الأساسية.

٢ ـ مجانبة الرسم العروضي لأخذه بالصوت وحده وإسقاطه كل حرف لا صوت له.

٣ ـ محاكاة الرسم للصوت في الإثبات لا في الإسقاط.

الباب الأول

في الهمزة، وفيه ستة مباحث

المبحث الأوَل

في الهمزة التي ترسم ألفاً في أول الكلمة[١٠]

الهمزة التي في أول الكلمة حقيقة(١) ترسم ألفاً مطلقاً سواء أكانت همزة

(١) بخلاف الهمزة التي في أول الكلمة حكماً، وهي الهمزة التي دخلت عليها همزة الاستفهام، أو ها التنبيه، أو اسم زمان، أو لام مفتوحة، فتكتب حرفاً من جنس حركتها نفسها، نحو: هؤلاءِ ـ يَوْمَئِذٍ ـ حينَئِذٍ ـ وقتَئِذٍ ـ صبيحتَئِذٍ ـ ليلتَئِذٍ ـ ساعَتئذٍ ـ قبلئِذٍ ـ بعدَئِذٍ ـ لأنت أعلم الناس ـ لئن لم تنتهوا ـ أئِذا متنا ـ أئِن ذكرتم ـ أئنك لأنت يوسف ـ أئفكاً ادعيت هذا المدّعى ـ أئنك إذاً لست ممن وعى ـ أؤنبئكم ـ أأسجد ـ أؤنزل.
هذا إذا لم تكن الهمزة التي في أول الكلمة همزة وصل، فإن كانت همزة وصل فتحذف إذا دخلت عليها همزة الاستفهام، نحو: أصطفى البنات على البنين، ونحو: أشتريت هذا؟ واعلم أنه لا تخرج الهمزة عن كونها أول الكلمة سين المضارعة نحو: سأكرم الضيف، ولا أل والفاء وباء الجر وتاؤه وكافه ولامه ولام التعليل ولام القسم ولام الابتداء والواو[١١].

[١٠] ـ قال ابن درستويه (كتاب الكتّاب ص٢٤، ٢٥): «فالهمزة الواقعة أوّلاً لا تكون إلّا متحرّكة محققّة، لا يلحقها في اللفظ حذف ولا بدل ولا تليين إلّا عرضاً، فالواجب إثباتها في الكتاب على صورة الألف بأيّ حركة تحرّكت، وفي أيّ كلمة وقعت».
والهمزة في أوّل الكلمة على ستّة أنواع، هي:
١ ـ الهمزة الأصليّة، وهي التي تكون من أحرف الكلمة الأصلية، نحو: أب، أخذ، إذا، أمّ.
٢ ـ همزة المضارع مع المتكلّم، نحو: أَكتبُ، أَلعبُ، أتقدّم، أَتفاءَلُ...
٣ ـ همزة الاستفهام، وهي حرف للسؤال عن شيء، نحو: أَتَرْغبُ في السَّفر؟
٤ ـ همزة النداء، وهي حرف لنداء القريب، نحو: أبنيّتي لا تجزعي...
٥ ـ همزة الوصل، وهي همزة ثابتة ابتداء، نحو: ابن، استعمل، انتصار.
٦ ـ همزة القطع، وهي همزة يُنطق بها ابتداء ووصلا، نحو: أب، أحاط، إقامة.
[١١] ـ لا تأثير للأحرف الداخلة عليها في رسمها، وتدخل عليها:
أ ـ همزة الاستفهام، نحو: أأنت قلت هذا؟ أَأُكرمُ اللئيم؟ أَأُقاتل الصديق؟

قطع(١) أو همزة وصل مضمومة(٢)، أو مفتوحة أو مكسورة، مثل: اسم ــ أب ــ أخ ــ أخت ــ أمّ ــ إمام ــ أكرم ــ إكرام ــ اسكت.

المبحث الثاني

في الهمزة التي ترسم ألفاً في وسط الكلمة

الهمزة التي في وسط الكلمة تكتب ألفاً في ثلاثة مواضع:

١ ــ إذا كانت ساكنة بعد فتح، كرَأْس، كَأْس، بَأْس، رَأْي، طُمَأْنينة، يَأْمر، مَأْرب، وَأْمُر، فَأْتِ[١٢].

= وإن دخلت عليها اللام المكسورة تبقى على حالها، نحو: لأنّك تقول الحق ـ لإيلاف قريش إيلافهم ـ هذا إذا لم تكن اللام المكسورة داخلة على أن المصدرية الواقع بعدها لا النافية، فإن كانت داخلة على ان المصدرية الواقع بعدها لا النافية كتبت همزة الكلمة ياء، نحو: لئلا يعلم أهل الكتاب، ونحو: لئلا يكون عليك حرج[١٣]، وإن دخلت عليها همزة الوصل فإن كانت مضمومة كتبت همزة الكلمة واواً نحو: أوتمن الرجل، وإن كانت همزة الوصل مكسورة كتبت همزة الكلمة ياء، نحو: إيتزر ـ إيت ـ إيتمن ـ إيتمر ـ إيتماماً ـ إيتزاراً ـ إيتماناً ـ إيتماراً. ما لم يتقدم الهمزة الأولى في الماضي والأمر فاء أو واو. فإن سبقها ذلك وأمن اللبس حذفت الأولى ورسمت الثانية ألفاً لحلولها محلها نحو فأتمن وأتوا جميعاً[١٤].

(١) هي التي ينطق بها في الابتداء والوصل، مثل: أكرم وأجاب.

(٢) هي التي تثبت في التلفّظ، إذا وقعت في ابتداء الكلام وتسقط فيه إذا جاءت أثناءه، مثل: استخراج ـ وكذا إن مُدَّت مفتوحة كتبت ألفاً عليها مدة، مثل: آخذ ـ آمر ـ آثر ـ آمن[١٥].

= ب ـ اللام مكسورة أو مفتوحة، نحو: لأمرٍ ما غيّرت رأيي. لَأُعيد الكلام ثانية.

جـ ـ السّين، نحو: سأُقابِل، سأسعى، سأَستقيل...

د ـ الواو، نحو: وإذا، وأُنزل، وأَحفظ، واقتدِ...

هـ ـ الفاء، نحو: فإذا، فإنّ، فاحفَظْ، فإيواء، فأحسِنُ.

و ـ الكاف، نحو: كأنّك، كإقبالك، كإقامتك...

[١٢] ـ تُعَدُّ الهمزة متوسّطة سواء أكان التوسُّط أصيلاً، نحو: رَأس، بَأس، أم عارضاً بما يلحق الكلمة من ضمائر وغيرها، نحو: وَأْمُر، فَأْتِ... قَرَأْنا، بَدَأْتَ...

[١٣] ـ تتغيّر همزة القطع في الكلمات الآتية: لَئِنْ، لِئَلاّ، هؤلاءِ.

[١٤] ـ إذا أتى بعد الهمزة حرف مَدّ كتب الحرف من جنس حركة الهمزة التي قبله، نحو: أُومن إيماناً، إلّا إذا كانت الهمزة مفتوحة فيحذف حرف المدّ ويعوّض عنه بمدّة، نحو: آمن، آخُذُ، آكُلُ، فالأصل: ءَامن، ءَاخذ، ءاكُلُ.

[١٥] ـ تكتب الهمزة فوق الألف إذا كانت مفتوحة، نحو: أَسْمعُ، أو مضمومة، نحو: أُكرِمُ. وتكتب تحت الألف إذا كانت مكسورة، نحو: إيّاك، إقبال...

٢ ـ أو كانت مفتوحة بعد فتح، كسَأَل، مُتَأَمل، نَأَى، الحِدَأَة، يتَأَخر، إتَّأَد، اشمَأَزّ، قَرَأَ، يقرَآن، سآمة.

٣ ـ أو كانت مفتوحة بعد حرف صحيح(١) ساكن، نحو: مَرْأَة، مَسْأَلة، يَنْأَى، مَلأَى، جزْأَين، بُطْأَين، دِفْأَين، يَسْأَل، يَرْأَس، يَدْأَب، نَشْأَة، فَجْأَة.

المبحث الثالث

في الهمزة التي ترسم واواً في وسط الكلمة

الهمزة التي في وسط الكلمة تكتب واواً في خمسة مواضع:

١ ـ إذا كانت ساكنة بعد ضمّ، كلُؤْلُؤْ، يُؤْمن، سُؤْل، لُؤْم، رُؤْية، سُؤْر، أُؤْتمن، مُؤْلم، بُؤْس.

٢ ـ أو كانت مفتوحة بعد ضمّ، كَمُؤَلّف، سُؤَال، رُؤَال، يُؤَجّل، مُؤَجّل، مُؤَامرة، مُؤَوّل، الزُّؤَام، أُؤَوّلُ.

٣ ـ أو كانت مضمومة بعد سكون، كَأَرْؤُس، التفاؤُل، هاؤُم، يَلْؤُم، التَّضاؤُل، التَّثاؤُب، التَّشاؤُم.

٤ ـ أو كانت مضمومة بعد فتح، ولم يقع قبلها ولا بعدها حرف لين أو مدّ، نحو: نَؤُم، يَؤُمّ، لَؤُم، أَؤُلقي.

٥ ـ أو كانت مضمومة بعد ضمّ، نحو: نُؤُمْ وشُؤُنْ(٢).

---

(١) وإن كان الساكن معتلاً بالألف أو بالواو كتبت مفردة، نحو: تساءَل، ودناْءَة، ومروْءَة وضَوْءَان[١٦] ـ ومثلها المضمومة والمفتوحة بعد واو مشددة، نحو: تبوُّءك في حالتي الرفع والنصب ـ وإن كان الساكن معتلاً بالياء كتبت الهمزة على نبرة، نحو: شيئان ـ إلى آخر ما سيأتي ـ وإن وقع بعدها ألف للتثنية أو للفاعل أو للتنوين ترسم مفردة إن لم يكن اتصال ما قبلها بما بعدها، وترسم على نبرة إن أمكن. والواو المشدّدة قبل الهمزة كالواو الساكنة، نحو: التبوُّء.

(٢) جمعي نؤوم وشأن، إلا إذا وقع بعدها واو فإنها ترسم مفردة إن لم يمكن اتصال ما قبلها بما بعدها كرءوف، وعلى نبرة إن أمكن ككئوس ويستثنى من ذلك ما يلتبس بغيره، كشؤون وسؤول فإن الهمزة ترسم على واو بعدها واو كما يأتي.

---

[١٦] ـ يمكن تجريد القاعدة الآتية: تكتب الهمزة المتوسطة منفردة إذا كانت:
ـ مفتوحة وقبلها ألف ساكنة، نحو: تساءَل.
ـ مفتوحة وقبلها واو ساكنة، نحو: نُبُوْءَة، السَّمَوْءل.
ـ إذا لزم من كتابتها على الواو اجتماع ثلاث واوات: مَوْءودة فلا تكتب هكذا مؤْوودة.

ملخص

الهمزة المتوسطة ترسم واواً في موضعين:

الأول: إذا كانت مضمومة وما قبلها مفتوح أو مضموم أو ساكن، [نحو: يَؤُمُّ، رُؤوس، تَفَاؤُل].

الثاني: إذا ضمّ ما قبلها وهي مفتوحة أو ساكنة، [نحو: يُؤَمُّ، لُؤْلُؤ].

المبحث الرابع

في الهمزة التي ترسم ياء في وسط الكلمة

الهمزة التي في وسط الكلمة تكتب ياء في سبعة مواضع:

١ ـ إذا كانت مضمومة بعد كسر، كمئون، فئون.

٢ ـ أو كانت مفتوحة بعد كسر، كفئة، رئة، ناشئة(١).

٣ ـ أو كانت ساكنة بعد كسر، كِبئْر، بِئْس، ذِئْب.

٤ ـ أو كانت مكسورة بعد كسر، كمئين، فِئين، أبطِئي.

٥ ـ أو كانت مكسورة بعد ضمة، كسُئِل، دُئِل، رُئِي.

٦ ـ أو كانت مكسورة بعد فتح، كمُطْمَئِن، يَئِنّ، ضَئِيل.

٧ ـ أو كانت مكسورة بعد سكون مطلقاً صحيحاً أو معتلاً، كأسئلة، مسائل، أفئِدة، وُضوئي، ضوئي[١٧].

ملخص

الهمزة المتوسطة ترسم ياء في موضعين:

الأول: إذا كسرت وقبلها فتح أو كسر أو ضم أو سكون.

---

(١) ويزاد قبل الياء ألف في مائة ومائتين[١٨]، واعلم أن الهمزة المشدّدة كالهمزة المتحركة بعد متحرك، مثل: تَرَأّس ـ تَرَؤُّساً ـ رئّيس ـ مترئّس ـ سؤّال، وفي مثل هذا تكتب الهمزة والشدة خوف اللبس.

---

[١٧] ـ أضيف إليه موضع ثامن وهو: إذا كانت مسبوقة بياء ساكنة مهما كانت حركتها، نحو: هيئة، بيئة...

[١٨] ـ راجع في سبب زيادة الألف همع الهوامع للسيوطي ٦/ ٣٢٥ وما بعدها. ومن أقوالهم في زيادتها وهي عندهم تكتب ولا تلفظ للتفريق بين «مئة ومنه وفيه» قبل نقط الإعجام.

وذكر السيوطي في الهمع ٦/ ٣٢٧ أنّ الزيادة جاءت في المفرد والمثنى. وأمّا في حالة الجمع فقد اتّفق العلماء على أنّ الألف لا تزاد فيها فنقول: مئات ومئون.

راجع كتاب الكتّاب لابن درستويه ص٨٤ وشرح الشافية ٣/ ٣٢٨.

الثاني: إذا كسر ما قبلها وهي مفتوحة أو مضمومة أو ساكنة.

المبحث الخامس

في الهمزة التي ترسم مفردة في وسط الكلمة

الهمزة التي في وسط الكلمة تكتب مفردة بدون أن تصور بحروف في موضعين:
الأول: إذا كانت مفتوحة وقبلها حرف مد أو لين ساكن(١) كتفاءل، السَّمَوْءَل، جزاءان، جزءين، قراءات.

الثاني: إذا وقع بعدها حرف مد، نحو: سوءى، مرءوس، رءوس، رءوف، إسراءيل(٢)، جبراءيل، رءيس[١٩].

أَمثلة على أحوال الهمزة المتوسطة

من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيراً، أو ليصمت. تاج المروءة التواضع. لولا أن المروءة صعب محملها، لما ترك أصحاب اللؤم للكرام منها شيئاً[٢٠]. ليس من المروءة أن تكون أوانيك من الذهب والفضة، وجارك طاو وغريمك عار. المروءة أنّك لا تعمل عملاً في السِّرِّ تستحي منه في العلانية. كفر النعمة لؤم، وصحبة الأحمق شؤم. الحكمة

(١) إلا إذا كانت الهمزة واقعة بعد ياء ساكنة، مثل: جيْئَل وخطيْئة ومشيْئة وبطيْئين ورديْئة وشيْئان فيرفع لها نبرة تركز عليها الهمزة حتى لا تفصل حروف الكلمة من بعضها كما فعلوا ذلك في مسئول ومشئوم وفئوس ومئون وكئوس وفِئون.

(٢) وبعضهم يرسم همزة الألفاظ الأربعة الأخيرة وما شاكلها على ياء بعد ياء كالنسائي، النائي، عزرائيل، ميكائيل، رئيس.

[١٩] ـ إذا كانت الهمزة المتوسّطة مضمومة، وكان ما قبلها مضموماً تُفضّل كتابتها على الواو، نحو: فُؤُوس.
وكذلك إذا كان ما قبلها مفتوحاً، نحو: نَؤُوم الضّحى.
وكذلك أيضاً إذا كان ما قبلها ساكناً، نحو: مَسْؤولية.
وأجازوا كتابتها على نبرة إذا كان ما قبلها يَتَّصل بما بعدها، نحو: شئون، مسئول، وتجوز كتابتها منفردة إذا كان ما قبلها لا يتصل بما بعدها، مرءوس.
وفي قرارات مجمع اللغة أنّ أعضاء المجمع يفضّلون رسم الواوين في: رُؤُوس ورَؤُوف لأنّه القياس. وفي الهمع ٦/ ٣١٢ «قد يختار في غير القرآن أن يكتب بواوين» ومن الأفضل تطبيق القاعدة رقم ٧ المتقدّمة على إسرائيل وجبرائيل والجائي. والقاعدة رقم ٢ المتقدّمة على رئيس، بهذا نُسَهِّل على تلامذتنا وطلّابنا، ونخدم لغتنا، ونهذّب قواعدها.

[٢٠] ـ لا داعي لدخول اللام على جواب الشرط هنا لأنّه منفيّ (لما ترك) والصواب: ما ترك.

ضالّة المؤمن؛ فخذها ولو من أهل النفاق. المؤمن للمؤمن كالبنيان يَشُدّ بعْضُه بعضاً. الطّمأنينة إلى كل أحد قبل الاختبار عجز. نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع. ربَّ رأي أنفع من مال، وحزم أنفع من رجال. لن يهلك عبد حتى يُؤْثِرَ شهوتَه على دينه. لا تمار سفيهاً ولا حليماً، فإنّ السفيه يؤذيك، والحليم يَقْليك. لا تمنع العلمَ أهلَه فتأثم. بالعدل والإنصاف تطول مدة الائتلاف. المزاح يورث الضغائن. من لا يعرف الخير من الشر، فألْحِقْه بالبهائم. من استبدَّ برأيه، خفّت وطأته على أعدائه. لا تطلب سرعة العمل واطلب تجويده، فإن الناس لا يسألون كم فرغ منه، بل ينظرون إلى إتقانه وجودة صنفه. أدب المرأة مذهبها لا ذهبها. وضاءة النفوس أنضر من وضاءة الأجساد. لا تكن حاطباً في حبلك وموقداً ناراً ضوءُها لغيرك، الحلم والأناة توءمان ينتجهما علوُّ الهمَّة. من طلب من لئيم حاجة، فكمن طلب السَّمك في المفازة. الناس يرونك بقدر تصويرك لنفسك؛ فإن أَعْززتها رُئِيَتْ عزيزة، وإن أهنتها رُئِيَتْ مُهانة. من كثر كلامه، كثر خطؤه؛ ومن كثر خطؤه، قل حياؤه. من طاب منشؤه، حسن مبدؤه. من أخذ كتاباًيقرؤه وأتمَّ قراءته، فقد ذهب ظمؤه. إياك والسآمة في طلب الأمور، فتقذفك الرِّجْل خلف أعقابها. ليس كل طالب يصيب، ولا كل غائب يؤوب. كلّكم راع مسئول عن رعيته، فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل في أهله راع وهو مسئول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسئولة عن رعيّتها، والخادم في مال سيّده راع وهو مسئول عن رعيته. كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله. **[الطويل]**

إذا أنت حَمَّلْتَ الخؤونَ أمانةً فإنَّك قد أسندتها شَرَّ مسند

قال أبقراط: «نحن نأكل لنعيش لا نعيش لنأكل».

المبحث السادس

في الهمزة التي في آخر الكلمة ولها أربع حالات(*):

الحالة الأولى: تكتب ألفاً إذا كان ما قبلها مفتوحاً، نحو: قرأ، ملجأ، صدأ، يملأ، يتبوأ، مهيَّأ، عبّأ الجيش.

الحالة الثانية: تكتب واواً إذا كان ما قبلها مضموماً، نحو: لؤلؤ، التطأطؤ، التباطؤ، هَزُؤَ، وَضُؤ.

(*) **تنبيه**: إذا اتصل بالهمزة المتطرفة تاء التأنيث أو ضمير الرفع المتحرك كان حكمها كحكم الهمزة المتوسطة حقيقة، نحو: قرأت فاطمة وظمئت. واعلم أن كل همزة صوّرت ياء لا تنقط مطلقاً.

الحالة الثالثة: تكتب ياء إذا كان ما قبلها مكسوراً، نحو: منشئ، برِئ، مبتدئ، قارئ، لم يجئ.

ففي هذه الأحوال الثلاثة ترسم على حرف من جنس حركة ما قبلها[٢١].

الحالة الرابعة: لا تُصَوّر الهمزة بحرف من الحروف الثلاثة، بل توضع القطعة في محلها وذلك في موضعين:

١ ـ إذا كان ما قبلها ساكناً مطلقاً سواء كان صحيحاً أو حرف علة كجزء، جزاء، يسوء، بطء، ملء، صفاء، هناء، عزاء، يضيء، دنيء، جريء، يجيء، بريء[٢٢].

٢ ـ إذا كان ما قبلها واواً مشدّدة مضمومة كالتبوُّء.

أَمثلة على أَحوال الهمزة المتطرفة

ينبغي للمرء أن تكون ثقته في الشدائد بإخوانه وذوي قرابته وفي العهد والذمة بأهل الصدق، وفي المسكن بالمرأة الصالحة، وعند الموت بما قدم من الحسنات. ضربة الناصح خير من تحيّة الشانئ[٢٣]. أشدّ البلاء تأمُّرُ اللؤماء على الكرماء. إني لأعجب من الناس حيث مكّنهم الله من الاقتداء بالملائكة ثم هم يميلون إلى الاقتداء بالبهائم. اصطناع المعروف يقي مصارع السوء. خذ الحكمة ولا يضرّك من أيِّ وعاء خرجت. قال أبقراط: «دواء كل امرئ مريض بعقاقير أرضه، فإن الطبيعة تتطلّع إلى هوائها، وتميل إلى غذائها». لا تكن كالذبابة[٢٤] تضيء للناس وهي تحترق. ثوب العاريّة لا يدفئ، وإن أدفأ لا يدوم. الطمع مطيّة سوء من ركبها ذل، ومن صحبها ضلّ. سفير السوء يفسد ذات البين. وحدة المرء خير من جليس السوء. الخلق السيئ يفسد العمل كما يفسد الخلّ العسل. الحق ثقيل مريء، والباطل خفيف وبيء. هلك امرؤ لم يعرف قدر نفسه. المرء مخبوء تحت طيِّ لسانه، لا تحت طيلسانه. لأن يخطئ القاضي في العفو، خير من أن يخطئ في العقوبة. الدليل على الحمق إعجاب المرء بنفسه. كرم المرء دينه، ومروءته عقله، وحسبه خلقه. رب موت يجيء من طلب الحياة. المرء توّاق إلى ما لم ينل. أحب شيء إلى الإنسان ما مُنع. لا وفاء لمن ليس له حياء.

---

[٢١] ـ إذا كان ما قبل الهمزة المتطرّفة متحرّكاً كتبت بحرف يناسب حركة ما قبلها مهما كانت حركتها؛ لأنّها إذا خفّفت في اللفظ موقوفاً عليها نُحِيَ بها منحى ذلك الحرف. راجع: كتاب الكتّاب ص٣١.

[٢٢] ـ تكتب منفردة إذا سبقت بساكن بصورة القطع.

[٢٣] ـ الشانئ: المُبْغِضُ.

[٢٤] ـ الأرجح وجود خطأ مطبعي إذ الذبابة هنا لا تخدم السّياق والصواب الذُّبالة وهي الفتيلة التي تُسرج لتضيء.

قال عليه الصلاة والسلام: «من أمن رجلاً على دمه فقتله فأنا بريء من القاتل ولو كان المقتول كافراً».

مفردات

قَرْء. ضوء. مسيء. نداء. نوء. دفء. ملء. مجيء.

تنبيهات

الأول: كل همزة مضمومة غير مكسور ما قبلها وما بعدها واو ساكنة تحذف صورتها مثل: رءوس. مسئول(١). كئوس. فئوس. يبدءون. اقرءوا. مرءوس. رءوف.

الثاني: كل همزة مفتوحة بعدها حرف مدّ من جنسها تحذف صورتها مثل: مرآة وقرآن ورآسة إلّا مع ألف الاثنين فلا تحذف نحو: قرأا. بدأا. يبرأان. لم يقرأا. يقرأان، وإن كان ما قبلها ألفاً تكتب مفردة، نحو: هما جاءا، وإن كان بعدها ألف المثنى الحرفية فإن سكن ما قبلها كتبت مفردة إن كان ما قبلها لا يتصل بما بعدها، نحو: قَرْءان، مثنى (قرء)، وإن كان يتصل به تكتب على نبرة نحو: بطئان وإن تحرك ما قبلها، فإن كان مكسوراً أو مضموماً تكتب على حرف مناسب لحركته، نحو: ملجئان ولؤلؤان، وإن كان ما قبلها مفتوحاً تقلب مدة، نحو: مبدآن.

الثالث: كل همزة مكسورة بعدها حرف مدّ من جنسها غير ياء مخاطبة أو تكلم أو نسب قد تحذف صورتها مثل: إسراءيل. جبراءيل. الجاءي. رءيس ـ ويصح رسم الهمزة على نبرة هكذا: إسرائيل. جبرائيل. ميكائيل. رئيس ـ كما سبق.

الرابع: كل همزة في أول الكلمة جاء بعدها مدّ من جنسها تكتب كما ينطق به، نحو: ائتمر، أؤمر، إلّا الألف فإنها تكتب مدّاً مثل آخذ، وإن سبقت الهمزة غير المفتوحة بالواو أو الفاء حذفت همزة الوصل ورسمت همزة الكلمة على ألف، مثل: وأمر أهلك. وأتوني بأهلكم أجمعين. فأذن لمن شئت منهم.

الخامس: الهمزة المشدّدة تعطى حكم الهمزة المتحركة بعد متحرك، نحو: ترأس، ترؤساً، مترئس، رئيس، كما سلف.

السادس: إذا اجتمع همزة ومَدَّة وشَدَّة حذفت الهمزة ويكتفى في الكتابة بالمد، نحو (لآل) أي بائع اللآلئ، وإذا اجتمعت همزة وشدّة كتبتا معاً، نحو: الترؤُّس.

السابع: همزة الوصل لا توضع على الألف ولو ابتدئ بما هي في أوله، لأن الهمزة

---

(١) يستثنى: سؤول. شؤون. صؤون. قؤول. لؤوم. نؤوم. يؤوب. يؤوس. يؤول. فؤود. فتكتب الهمزة على واو منعاً لالتباس هذه الكلمات العشر بغيرها إن رسمت بواو واحدة.

من الشكل، والشكل يتبع الوصل لا الوقف والابتداء، وهمزة القطع توضع على الألف، فإن كانت مكسورة، وضعت الكسرة تحت الألف للتفرقة بين المكسورة وغيرها، ومثل ذلك إذا كان الحرف مشدداً بأن كان مكسوراً وضعت الكسرة تحت الحرف والشدّة فوقه.

وأما الهمزة المتوسطة فتوضع فوق الألف أو الواو أو الياء.

تطبيقات عملية على أحوال الهمزة

١ ـ بسم الله مبدئي ومن العدم منشئي

نستفتح الإملاء بحمد بارئ هذه الكائنات، ومنشئ هؤلاء المخلوقات، ومبدع الأرض والسموات، الرَّحمن الرحيم، العلي الأعلى جلّ شأنه، وتقدّست أسماؤه، وله الشكر على آلائه التي لا تُحصى ونعمائه التي لا تُستقصى، ونُصلِّي ونُسلِّم على خاتم أنبيائه الذي أدَّبه ربُّه فأحسنَ تأديبه. ونشأ على أكمل الفضائل الحسنى من مبدإ صباه حتى بلغ من ذرا الكمالات كلّ ما يتمنّاه. صلى الله عليه وعلى آله أولي الهدى، وأصحابه نجوم الاهتداء، المتلألئ نور هداهم في الأرض والسماء، أصحاب المآثر الغرّاء، والشِّيَم الشمَّاء. غرسوا الإيمان في أفئدة المؤمنين، النائين، عن سوء البؤس وشؤم دناءة الأدنياء، وبذاءة لؤم اللئام. فحلوا من بعدهم بضياء الهدى، وبلآلئ التَّقوى، وتمسّكوا بالسَّبب الأقوى، ففازوا بأعلى درجات الكمال.

٢ ـ الأَدب

الأدب: كلمة جامعة لمحاسنِ الأفعال، وأحاسنِ الأقوال، وهو أكرمُ الخصال، ورافعُ الأحساب، به يَحْصُل المرء على الرغائب الجليلة، ويتوصل إلى نجاح المقاصد الجميلة. يرفع العبد المملوك، ويجلسه في مجالس الملوك. كما رُوِي أنَّ رجلاً قال لبعض العقلاء (وقد كان لا يحبّ زينة ثيابه): ما لك لا تجمل الملبوس، وإنَّ زينةَ الثياب تدلّ على حسن العقل: [السريع]

لكلِّ شيءٍ زينةٌ في الورَى ... وزينةُ المرءِ تمامُ الأَدَبْ

قَدْ يَشْرُفُ المرءُ بآدابِهِ ... فينا وإن كانَ وَضيعَ الحَسَبْ

فقال له العاقل: ما صدقت، إنّما يرفعُ المرءَ أدبُه وعقلُه، لا حليتُه ولا حلّتُه. قاتل الله امرأً يرضى أن ترفَعَه هيئتُه وجمالُه.

٣ ـ ثمرة الأَدب

ينبغي للمرء أنْ يحترمَ الكبيرَ، وَيَعْطِفَ على الصَّغير، وأن يعامل من هو مُساوٍ له بما يُحِبُّ أن يُعامِلَ به نفسَه، وأنْ يَمْتَثِلَ[٢٥] أمر رئيسه بصفته مرؤوساً له، وأن يكون

[٢٥] ـ امتثل أمره: أطاعه واحتذاه، ويقال: امتثل طريقته: تبعها فلم يَعْدُها.

حسنَ الألفاظ والإشارة، متباعداً عن دنيء الكلام. وأن يحفظ لسانه عن الفضول في الحديث، فلا يتكلّم بما لا يعنيه، ولا يدخل فيما لا يرضيه، وأن يكون بشوشاً لا يستهزئ بأصدقائه، ولا يزدري بأقرانه، وألّا يكون فظّاً غليظاً، وأن يتباعد عن اللؤم والحقدِ والحسد، وألّا يمدحَ نفسَه، وأن يكون حميدَ الفعال، حسنَ المعاشرةِ كريمَ الخُلُقِ متواضعاً ذا تُؤَدَةٍ[٢٦] في شؤونه، صدوقاً صموتاً.

٤ ـ آداب المجالسة

إذا جلست، فأقبلْ على جلسائك بالبِشْرِ والطَّلاقة، وليكن مجلسُك هادئاً، وحديثُك مرتَّباً، واحفظْ لسانَك من خطئه، وهذِّب ألفاظَك، والتزم تَرْكَ الغِيبَةِ[٢٧]، ومجانَبَةَ الكذبِ، والعبث بإصبعك في أنفِك وكثرة البُصاق، والتَّمَطِي[٢٨] والتثاؤب والتشاؤم، ولا تُكثرِ الإشارةَ بيدك، واحذرِ الإيماءَ بطرفِك إلى غيرِك، ولا تلتفتْ إلى مَنْ وراءَك. فمن حَسُنَتْ آدابُ مجالستِه، ثَبَتَتْ في الأفئدة مودَّتُه، وحَسُنَتْ عشرَتُه، وكَمَلَتْ مروءتُه.

٥ ـ معاوية وعبد الملك بن مروان

المرء بأدبه لا بحسبه

ورد أن عبد الملك بن مروان استأذن على أمير المؤمنين معاويةَ في الدُّخول، فأذِنَ له، ثم سلّم عليه وجلس، وبعد أن فَرَغَ من حديثه، قام وانصرف. فقال معاويةُ: ما أكملَ أدبَ هذا الفتى! فقال بعض الحاضرين: نعم يا أميرَ المؤمنين لقد أخذ بأخلاقٍ أربعةٍ، وترك أخلاقاً أربعة: أخذَ بأحسنِ البِشْرِ إذا لَقِيَ، وبأحسن الحديث إذا حَدَّث، وبأحسنِ الاستماعِ إذا حُدِّث، وبأحسنِ الوفاءِ إذا وعد. وترك مَزْحَ من لا يثق بعقله، وتَرَكَ مجالسةَ من لا يرجعُ إلى الحقّ، وترك مخالطة من لا أدبَ عنده، وترك من القولِ والعملِ كلَّ ما يُعْتَذَرُ منه: [الكامل]

إنْ أنتَ جالَسْتَ الرِّجالَ ذوي النُّهى ... فاجلِسْ إليهِمْ بالكمالِ مُؤَدَّبا
واسمَعْ حديثَهُمُ إذا هم حدَّثوا ... واجعلْ حديثَكَ إنْ نَطَقْتَ مُهَذَّبا

٦ ـ فضائل العقل

العقلُ: قُوّةٌ لطيفة درّاكة، أودعها الرؤوفُ الرحمنُ في المرء، بها يَفْرُقُ بين الحقِّ والباطل، وبها يَميزُ الخطأَ من الصواب. والعقلُ يميلُ بصاحبه إلى الحسنات، ودرءِ السيئات، ويُعْرِضُ به عن رذائل الأعمَال، ويرغِّبه في ابتداء صنائع المعروف،

---

[٢٦] ـ التُّؤَدة: الرّزانة والتّأنّي.
[٢٧] ـ الغِيبَة: أن تذكر أخاك من ورائه بما فيه من عيوب يسترها ويسوؤه ذكرها.
[٢٨] ـ التّمطّي: مدّ الحديث وتطويله، والتّبختر.

ويبعده عمّا يُكسبُه عاراً، ويورثه شناراً[٢٩]. وقد قيل لبعض الحكماء: بِمَ يُعْرَفُ عقلُ المرء؟ فقال: بقلَّة سَقْطِه في كلامه، وكثرةِ إصابته، فقيل: فإن كان غائباً؟ فقال: بأحد شيئين: إمّا برسوله، وإما برسالته. فأمّا رسولُه، فهو قائم مقامَ نفسه، وأمّا رسالته، فنصف نطقِ لسانه وبها يُعْرَفُ قدرُ عقلِه: [الطويل]

إذا أكملَ الرحمنُ للمرءِ عقلَه ... فقد كَمَلَتْ أخلاقُه ومَآرِبُهْ

٧ ـ العلم

إن العلمَ للنَّفْسِ الإنسانيةِ كمالٌ تتحلّى بفضائله، وهو نور العقلِ وسراجُ القلبِ، به تنالُ الشَّرفَ، وتكتسب الفخر، وكم مِنْ وضيعِ الأصلِ عديم الحسبِ تعلَّمَ العلومَ فصار جليلَ الذِّكْرِ، عالي القدر، معروفاً عند الوجهاء والأمراء، محترماً في مجالس الملوك والوزراء، تُعَظِّمُه الناس، فإذا أقبلَ عليهم قاموا إليه، وإذا جلس يجلسون بين يديه، وإذا انصرف عنهم أثنى الجميع عليه.

٨ ـ المأمون وإبراهيم بن المهدي
اطلب العلم من المهد إلى اللحد

رُوِيَ أنّ إبراهيمَ بنَ المهدي دخلَ على المأمون وعنده جماعة يتذاكرونَ في مسائلَ من العلم، فقال: يا هذا، هل لك معرفةٌ بما يقول هؤلاء؟ فقال: يا أميرَ المؤمنين، شغلونا في الصِّغر واشتغلنا في الكِبَرِ. فقال المأمون: لمَ لَمْ تتعلم اليوم؟ فقال: أوَ يَحْسُنُ بمثلي طلبُ العلم؟ فقال: نعم، والله لأنْ تموت طالباً للعلم، خَيرٌ مِنْ أن تعيشَ قانعاً بالجهل، قال: وإلى متى يَحْسُنُ طلبُ العلم؟ قال: ما دامت بك الحياةُ: [الطويل]

تَعَلَّمْ فليس المرءُ يولَدُ عالماً ... وليسَ أخو عِلْم كَمَنْ هو جاهِلُ
وإنَّ كبيرَ القومِ لا عِلْمَ عندَه ... صغيرٌ إذا التفَّتْ عليه المحافِلُ

٩ ـ الاجتهاد

الاجتهاد: أساسُ نجاح الأعمال، والوسيلةُ إلى ارتقاء دَرَجِ الكمال، فينبغي للعاقل إذا أراد أن يَشْرَعَ في أيِّ عمل تَعودُ عليه منفعَتُه، أن يجتهدَ فيه وألّا يُقَدِّمَ غيرَه من الأعمال عليه، وأنْ يبذُلَ طاقَتَه ومجهودَه في حصوله، وألّا يُؤَخِّرَ عَمَلَ يومِه إلى غده، لا يلهيه عنه دواعي الملاهي، ولا يَثْنيهِ عنِ المواظبة والعكوف عليه ناهٍ، حتى تظهرَ الثَّمَرَةُ المرغوبة، وتبينَ الفائدة المغلوبة، والحذر من فتور الهِمَّة بعد نشاطها، ومن تثبيط[٣٠] العزيمة بعد انبعاثها، فإنَّ ذلك مما يجلُبُ التَّأخرَ بعد الأخذِ في أسبابِ الصَّلاح، والرجوعَ إلى ما وراء بعدَ التَّقدم والنَّجاح.

---

[٢٩] ـ الشّنار: الأمر المشهور بالشُّنْعَةِ، والقبح. يقال: عارٌ وشَنار.
[٣٠] ـ ثبّطه عن الشيء: عوّقه وبطَّأ به.

١٠ ـ الملِكُ والصَّانع المجتهد
أمسِ لا يُرَدّ وغداً ليس في اليد

يُرْوَى أنَّ ملكاً من الملوك ركب في موكب عظيم، فخرجت النَّاس أفواجاً ينظرون إلى هذا الملكِ في زينَتِه، حتّى مرّ بامرئٍ يصنَعُ شيئاً مُوَجِّهاً فِكْرَه إليه غَيْرَ ملتفتٍ إلى الملك لينظرَه، فوقف الملكُ عليه يتعجَّب من هيئته، وقال له مُسْتَطْلِعاً أفكارَهُ: كُلُّ هذه الفئةِ تنظرُ إلى الموكبِ إلّا أنت، فنهضَ ذلك المرءُ قائلاً: يا أيُّها الملكُ أدامَ الله ملكَكَ، إنّي رأيتُ الأيّامَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحاب، وما رأيتُ أنفعَ ولا أبقى لابنِ آدمَ مِنْ عَمَلٍ يَنْتَفِعُ به في حياته، وتنتفِعُ به النَّاسُ بعد مماتِه، فهأنا أبذلُ في جميع أعمالي كُلَّ جهدِي، ولا أؤخِّرُ عَمَلَ يومي إلى غدٍ، ولا أشتغلُ بما لا بقاء له ولا فائدَةَ فيه. فاستحسَنَ الملكُ عقلَه وأثنى عليه وانصرف.

١١ ـ سليمان بن عبد الملك والأَعرابي الفصيح
لا تَخْشَ في الحقِّ لوْمَةَ لائم

يُقال إنَّ سليمانَ بنَ عبدِ الملكِ كان مهيباً، لا يجرؤ امرؤ أنْ يُكَلِّمَه، وكانت وزراؤه قد استأثروا بشؤون أغضبتِ العامّة. فدخل عليه أعرابيٌّ فصيحُ اللسان، شديدُ العارِضَة[٣١]، جريء الفؤاد، فقال له: يا أميرَ المؤمنين، إنّي مكلِّمُك بكلام فاحتمِلْهُ إنْ كرِهْتَه، فإنّ وراءه ما تحبُّ إنْ قبلته. قال: هاتِ يا أعرابي. قال: سأطلِقُ لساني بما سَكَتَتْ عنه الألسُنُ أداءً لحقِّ اللَّهِ وحقِّ أمانَتِك. إنّك قد أحاطت بك وزراءُ اشتَرَوْا دنياكَ بدينِهِم، ورضاكَ بسُخْطِ[٣٢] ربِّهم، خافوك في الله، ولم يخافوا اللَّهَ فيك، فلا تُصْلِحْ دنياك بفسادِ آخرتِك. فقال له سليمان: أمّا أنت فقد نصحت، إلّا أنَّك جرَّدْتَ لسانَك فهو سيفُك. فقال: أجلْ يا أميرَ المؤمنين، هو لك لا عليك: [الطويل]

لسانُ الفتى نِصْفٌ وَنِصْفٌ فُؤادُه ... فلَمْ يَبْقَ إلّا صورةُ اللَّحمِ والدَّمِ

١٢ ـ حسن الخلق

حسن الخلق: أن يكونَ المرءُ لَيِّنَ الجانب، طَلْقَ الوجه، قليلَ النُّفور، طيِّب الكلمة، تدومُ بين الشَّعب محبَّتُهُ، وتتأكَّدُ مَوَدَّتُه، وتُقال[٣٣] عَثْرَتُهُ، وتهونُ زَلَّته، وتُغْتَفر ذنوبُه، وتُسْتَرُ عيوبُه. فإذا حَسُنَتْ أخلاقُ الإنسان كَثُرَ مصافوه[٣٤]، وقلَّ

---

[٣١] ـ يقال: هو شديد العارضة، أو قويّ العارضة إذا كان ذا جَلَدٍ وصرامةٍ وقدرة على الكلام، وذا بديهة ورأي جيّد.

[٣٢] ـ سُخط ربّهم: غضبه.

[٣٣] ـ أقال الله عثرته: صفح عنه وتجاوز.

[٣٤] ـ صافاه: صَدَقَه الإخاءَ والمودّة. والمصافون: الأصدقاء المخلصون.

معادوه، وتسهَّلت إليه الأمورُ الصعاب، ولانت له الأفئدةُ الغضاب. ومن ساءت أخلاقُه، ضاقت أرزاقُه؛ والناسُ منه في شُؤْمٍ وبلاء، وهو من نفسه في تعبٍ وعناء. وأمّا مَنْ ألانَ لِلْخَلْقِ جانِبَهُ، واحتمل صاحِبَهُ، ولطفَتْ معاشرَتُه، وحَسُنَتْ محادَثَتُه، مالَ إليه الخلقُ، واتّسعَ له الرِّزْق، وهو مِنْ نفسِه في راحة، والنَّاسُ منه في سلامةٍ، وأدرَكَ المطلوبَ، ونالَ كُلَّ أمْرٍ محبوب: [الوافر]

إذا لَـمْ تَـتَّـسِـعْ أخـلاقُ قَـوْمٍ   تـضـيـقُ بِـهِـمْ فـسـيـحـاتُ الـبـلادِ

١٣ ـ المروءة

المروءة: صفة جامِعَةٌ لصفاتِ الكمالِ، حاويةٌ لمحاسِنِ الخصال، وسجيَّة جُبلَتْ على التَّخلُّقِ بها ذوو النفوس الزكية، وشيمةٌ طُبِعَتْ على حبِّها أولو الهمم العليَّة. وأعظمُ فضائِلها منفعَةٌ تعودُ على بني الإنسان مثلُ مواساةِ الإخوان وإغاثةِ الملهوف، وإعانةِ الضَّعيف وحفظِ العهد، والوفاءِ بالوعد، والتعففِ عن الحرام، والتخلّقِ بأخلاقِ الكرامِ، ومودّة القربى، وصلةِ الأرحام، وقضاءِ حوائج الناس، والإنصافِ في الحكم، والكفِّ عن الظلم.

١٤ ـ الإخاء

ينبغي للإنسان ألّا يتخذَ من إخوانِه إلّا مَنِ اختبرَ شؤونَه قبلَ إخائِه، وكشَفَ عن أخلاقِه قبلَ اصطفائِه. فمن وجدَه محمودَ الطبائع، مرضيَّ الأفعال، مُحِبّاً للخير، آمراً به، كارهاً للسوء وللشرِّ، نائياً عنه، حافظاً لعهده، ذاكراً لودِّه، اتّخذه صديقاً وحبيباً ورفيقاً. وَلْيَحْذَرِ المرءُ مصاحبةَ الأشرارِ اللئام، فإنّ مودَّةَ الدنيءِ الشِّرِّيرِ تُكْثِرُ الأعداء، وتُفْسِدُ الأخلاق. ولا خَيْرَ في مودَّةٍ تَجْلُبُ عداوَةً وتورِثُ مَذَمَّةً، فالعاقل يجبُ عليه أن يصطفيَ مِنَ الإخوان ذا الدِّين والحسب، والرأيِ والأَدَب. فإنَّه يكون مساعداً له على نوائب الدَّهْرِ، وَعَوْناً له على حاجته.

١٥ ـ الوزيرُ المهلَّبي وعبدُ الله

مقابلة الإحسان بالإحسان. وكما يُدينُ المرءُ يُدان

قيل إن الوزير المهلَّبي سافر قبلَ أنْ يتولى الوِزارةَ، فلحِقَه في سفرِهِ عِبْءٌ شديدٌ بسبب فقره وضيقِ حالِه، وقد صحِبه امرؤٌ عاقلٌ يُقال له عَبْدُ الله كان أخاً صِدْقاً له، حافظاً لعهده، ذاكراً لِوُدِّهِ، معيناً له على حاجته، مساعداً له على شدّته قائماً بكل ما يحتاجه. ثم إن الأيام فرّقت بينهما وتقلّبت بهما، حتى أوصلتِ المهلّبي إلى منصبِ الوزارة، فصفا عَيْشُه، وحَسُنَتْ هَيْئَتُه، وأوصلت رفيقه إلى هيئةٍ سيِّئة يَرْثي لها العدوُّ اللئيم، والصَّديقُ الحميم، فَبَلَغه وِزارَةُ المهلبي فقصده، وكتب إليه يذكِّره بعهده، فَقَرَّبه من مجلسِهِ، وَوَصَلَهُ بِصِلاتِ الملوك والأمراء،

وقلّده ولايةً من الولايات. فهكذا يكونُ الإخاء، والمودَّةُ والمروءة: [الكامل]

دعوى الإخاءِ على الرَّخاءِ كثيرةٌ ... وَمَعَ الشَّدائِدِ تُعْرَفُ الإخوانُ

١٦ ـ الوفاء

الوفاء: مُراعاةُ العهد، وتجنُّبُ خَلَفِ الوَعْدِ، وحفظُ الوُدِّ، وهو أحسن شمائل الإنسان، وأوضحُ دلائلِ الفضائلِ والإحسان، وأقوى وسائلِ أسبابِ المجد، وأحقُّ الأفعالِ بالشكرِ والحمد، تَمَسُّ الحاجة إليه، وَتَجِبُ المحافظة عليه. فمن تحلّى بالوفاء، وتخلّى عن الجفاء، وراعى عهد إخوانه، وحَفِظَ حقوقَ أوطانِه، وَجَبَتْ مَوَدَّتُه، وحَسُنَتْ سيرَتُه، وكَمَلَتْ مروءَتُه: [الكامل]

ثَبَتَتْ على حِفْظِ العهودِ قُلوبُنا ... إنَّ الوَفاءَ سَجِيَّةُ الأحرارِ

١٧ ـ التواضع

التواضُعُ: سهولةُ الأخلاقِ، وتجنُّبُ العَظَمَةِ والكبرياء، والتَّباعُدُ عن الإعجابِ والخيلاء، وهو حِلْيَةٌ يتحلّى بها الإنسان إن كان عاطلاً، ويرفَعُ ذِكرَه إن كان خاملاً، وبه يسمو في الدّنيا قدره، ويعظُمُ فيها خَطَرُه. يتملّك صاحبُه مودَّةَ القلوب، وينالُ كلَّ مرغوبٍ ومحبوب، وبه يجتلِبُ المجد، وَيَكْتَسِبُ الحمدَ، وضِدُّه الكِبْرُ: وهو أقبحُ وصفٍ يَسْلُبُ من الإنسان الفضائل، ويُكْسِبُه النَّقائص والرذائل، يوغِرُ صدورَ الإخوان، ويُبْعِد مودَّة الخِلّان، يُظْهِرُ السَّيئة، ويخفي الحسنة، ويَهْدِمُ كلّ فضيلة مستحسنة، يثيرُ الحقدَ والحسد، ويوجب لصاحبه الذّم والنَّكد، ويُرِي صاحبَه عُلُوَّ هِمَّتِه وإن كانت ساقِطة، ويظُنُّ الرِّضى من النَّاسِ ولو كانت ساخطة.

١٨ ـ الحياء

الحياء: حُلَّةُ جمال، وحِلْيَةُ كمال. يُحترَمُ في عيون الناس صاحِبُه ويزداد قدرُه ويعظُمُ جانِبُه. وإذا رأى ما يكرَهُ غَضَّ بَصَرَه عنه. وكلّما رأى خيراً قَبِلَه وتلقّاه، أو أبصَرَ شَرّاً تحاماه. يمتنِعُ عنِ البغيِ والعُدْوان، وَيَحْذَرُ الفُسوقَ والعِصيان، يخاطب النّاس كأنّه مِنْهم في خجل، ويتجنّب محارِمَ الله عزَّ وجَلَّ. فَمَنْ لبسَ ثوبَ الحياءِ استوجَبَ من الخلقِ الثَّناء، ومالت إليه القلوب، ونال كلَّ أمر محبوب. ومن قلّ حياؤه، قلّت أحِبَّاؤه.

١٩ ـ الإمام علي والأعرابي

رُبَّ إشارةٍ أبلغُ مِنْ عبارةٍ

يروى أنّه بينما كان أميرُ المؤمنين عليُّ بن أبي طالب كرّم الله وجهَه أيّامَ خلافتِه جالساً في ضواحي المدينة، إذ وفد عليه أعرابي يسأله حاجَتَه والحياءُ يمنَعُه أن يَذْكُرَها له، فخطّ بعصاهُ على الرَّمْل هذين البيتين: [الكامل]

لم يَبْقَ عِنْدي ما يُباعُ بدِرْهَمٍ ... تُنْبيكَ حالةُ منظَرِي عَنْ مَخْبَرِي

إلّا بَقيّةُ ماءِ وَجْهٍ صُنْتُه عَنْ أَنْ يُباعَ وَقَدْ أَبَعْتُكَ فاشْتَرِ

فما قرأهما حتى وافاه رسولٌ يُخبره أنّ نصيبَ أميرِ المؤمنين في الغنيمةِ مِنَ الفِضَّة محمولٌ على أربعةِ جمالٍ ببابِ المدينة. فقال: هي هِبَةٌ لهذا الأعرابي. وقال: [الكامل]

وافَيْتَنَا فأتاكَ عاجِلُ بِرِّنا فاهْنَأْ وَلَوْ أَمْهَلْتَنا لم نَقْتُرِ
فَخُذِ القليلَ وَكُنْ كأنّك لم تبِعْ ماءَ الحيا وكأنّنا لَمْ نَشْتَرِ

٢٠ ـ الحلم

الحلم: هو سُكونُ النَّفْسِ عند دواعي الغَضَبِ مَعَ تَرْكِ الانتقام. وهو من أشرَفِ الأخلاقِ وأكرَمِها، وأعلى مراتِبِ الكمالِ وأعظَمِها. يُبْلِغُ صاحِبَه ذُرْوَةَ المجدِ، ويُكْسِبُه جميلَ الحَمْد. به يصونُ الإنسانُ عِرْضَه، ولا ينالُ منهُ السَّفيهُ غَرَضَه. يعصِمُ النفس عن مواقعِ النَّدم. ولذا قيل: (ما قُرِنَ شيءٌ إلى شيءٍ أزين من حِلْم إلى عِلم، وَمِنْ عَفْوٍ إلى قَدرة). ويُدرِكُ بالرِّفق ما لا يدرِك بالعنف. واحتمال السَّفيه خيرٌ من مشابهته، والإغضاءُ عن الجاهل خيرٌ من مناضلته. وبالحلم تكثر الأنصار، وتُدْفَع الأشرار. فَمَنْ غَرَس شجرَ الحِلْمِ، اجتنى ثَمَرَ السِّلم.

٢١ ـ الإمام علي والفارسي

الحلم سَيِّد الأخلاق

يُرْوَى أنّ عليَّ بنَ أبي طالب كَرّمَ اللَّهُ وجهَهُ لَقِي كبيراً من كُبراءِ فارسَ، فقال: مَنْ أَحْمَدُ ملوكِكِمْ سيرةً؟ قال: أحمَدُهم سيرةً أنوشروانَ، فقال له: ما كان أغلبُ خِصالِه عليه؟ قال: الحِلْمُ والأناة. فقال له عليّ: توءمانِ يُنْتِجُهما عُلُوُّ الهِمَّة: [الوافر]

أُحِبُّ مكارِمَ الأخلاقِ جَهْدي وأكْرَهُ أن أَعيبَ وَأَنْ أُعابا
وَأَصْفَحُ عَنْ سِبابِ النَّاسِ حلماً وَشَرُّ النَّاسِ مَنْ يَهوى السِّبابا
وَمَنْ هابَ الرِّجالَ تَهَيَّبوه وَمَنْ حَقَرَ الرِّجالَ فَلَنْ يُهابا

٢٢ ـ الصبر

الصبر: هو تَرْكُ الشكوى مِنْ أَلَمِ البَلْوى، يقضي لصاحِبِهِ بالسيادَةِ ويكسوهُ فضيلةَ الحزم، ويَدْفَعُ عنه نقيصةَ الحرمانَ. يَكْبِتُ العَدُوَّ الألَدّ. ويُغيظُ الحسودَ الأشَدّ. تُحْمَدُ عقباه، ويَبْلُغ صاحبُه مناه. فكثيراً ما أدركَ الصابرُ مرامَه أو كاد. وفات المستعجلُ غَرَضَه أو كاد. فَمَنْ هداهُ اللَّهُ بنورِ توفيقهِ، ألهمَهُ الصبرَ في مواطِنِه والتَّثبُّت في حركاتِه وسكناتِه.

٢٣ ـ الجَزَعُ أَتعبُ من الصبر

يُرْوَى عن بعضِ الحكماءِ وقد رأى رجلاً أُصيبَ بمصيبةٍ عَظُمَتْ عليه أنّه قال: الجزعُ أتعبُ من الصبر، ففي الجزع التَّعَبُ والوِزْرُ، وفي الصَّبْرِ الرّاحةُ والأجْرُ. ولو

صُوِّرَ الجزعُ والصبرُ لكانَ الصَّبْرُ أحسنَ صورةً، وأكرمَ طبيعة. وكان الجزعُ أقبحَ صورةً، وأخبثَ طبيعةً، ولكنَّ الصبرَ أولاهُما بالغلبةِ لحسنِ الخلقةِ وكَرَمِ السجيَّةِ: [البسيط]

إنّـي رأيـتُ وفـي الأيّـام تـجـربَـةٌ ... لـلـصَّـبْـرِ عـاقـبـةٌ مـحـمـودَةُ الأثَـرِ
وَقَـلَّ مَـنْ جَـدَّ فـي شـيءٍ يُـؤَمِّـلـه ... واسـتـعـمـلَ الـصـبـرَ إلّا فـازَ بـالـظَّـفَـرِ

٢٤ ـ الكرم

الكرم: بَذْلُ المالِ بغيرِ إسراف. والتَّصَرُّف الحسنُ بغير إتلاف. وهو أشرفُ وصفٍ يتزيَّنُ به الإنسان، وأجملُ أثرٍ يُكْسِبُ صاحبَه الثَّناءَ مدى الأزمان، وقد حثَّ على التحلي به أولو النفوسِ العليّة، وحضّت على التخلّق به ذوو الأخلاق المرضيّة، فقد قيل: ذلّلوا أخلاقكم للمطالب، وعوّدوها المحامد، وعلِّموها المكارم، وتحلَّوا بالجود، يُلْبِسْكم ثوبَ المحبة. فمن جاد ساد، ومن ساد شاد، وخيرُ المال ما أفاد حمداً، ونفى ذمّاً وصان عرضاً، وأدّى فرضاً.

٢٥ ـ الإنصاف

الإنصاف: هو استيفاءُ الحقوقِ واستخراجُها بالأيدي العادلة والسياسات الفاضلة، وهو والعدلُ توءمان نتيجتُهُما علوُّ الهمَّة، وبراءة الذِّمَّة، باكتساب الفضائل، واجتناب الرذائل. فالإنصافُ استثمار، والعدلُ استكثار. ولذا قيل: «حقّ على من ملّكه اللّهُ بلادَه وحكّمه في عباده، أنْ يكونَ لنفسِه مالكاً، وللهوى تاركاً، وللغيظ كاظماً، وللظُّلم هاضماً، وللعدل في حالَتَيِ الرِّضا والغضب مُظْهراً، وللحقِّ في السر والعلانية مُؤثراً»[٣٥]: [الوافر]

لـكـلِّ ولايـةٍ لا بُـدَّ عَـزْلُ ... وَصَـرْفُ الـدَّهْـرِ عَـقْـدٌ ثُـمَّ حَـلُّ
وأحـسـنُ سـيـرةٍ تـبـقـى لِـوالٍ ... عـلـى الأيّـامِ إحـسـانٌ وَعَـدْلُ

٢٦ ـ الصِّدق

الصِّدق: هو أن تنبئ عن الشيءِ على ما هو عليه، وهو وصفٌ يدعو إليه الدِّينُ والعقلُ والمروءةُ وحبُ الثَّناء، والاشتهار بالفضائل، فلا مزيَّةَ أجمل منه، ولا سجيّة أكمل منه، ولا عطيّة أشرف منه، ولا سمعةَ ألطف منه، ولا أثرَ أنفع منه، وقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]. والكذبُ من أقبحِ الرَّذائل، وأسوإ الوسائل، صفةُ لؤم وشؤم، بل عادةٌ دنيئة رديئة، تؤوب بالعار والشَّنار والهلاك، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٠٥]، وقال عليه السلام: «دعْ ما يريبُك إلى ما لا يريبُك»، فمن الكذب ريبة، والصدق طمأنينة.

---

[٣٥] ـ مؤثراً: مفضّلا.

٢٧ ـ ولاة الأمور

ولاة الأمور: هم الرؤساء الأُلى بواسطتهم يُنْصَرُ الدِّين، فتُقامُ الحدودُ، وتُؤَدَّى الفروض، وتُؤَلّف الأجناد، وتعظم البلاد، وتُحْفظُ أرواحُ العباد، ويُشَيَّدُ عمادُ التربية والتعليم، وغير ذلك مما يرفع طوارئ الجور والعدوان، ويكفلُ حصولَ الأمنِ واستتباب الرَّاحة والأمان، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾ [النساء: ٥٩].

٢٨ ـ الشعراء في مجلس عبد الملك

اجتمع جريرٌ والفرزدقُ والأخطلُ: وهم ثلاثةٌ من رؤساءِ الشعراءِ، في مجلس عبد الملك، فأحضر لهم رهاناً من المال وقال: لِيَقُلْ كلُّ امرئٍ منكم بيتاً في مدح نفسه، فأيُّكم غلبَ وظفِرَ فله هذا الرِّهان، فبادر الفرزدق وقال: [الوافر]

أنا القَطِرانُ والشُّعراءُ جَرْبَىْ وفي القَطِرانِ للجربى شِفاءُ

وقام الأخطل فقال: [الوافر]

فإنْ تَكُ زِقَّ زاملةٍ فإنّي أنا الطاعونُ ليسَ له دواءُ

ونَشِط جرير وقال: [الوافر]

أنا الموت الذي آتي عليكم فليسَ لهاربٍ منه نجاء

فقال له عبد الملك: لك الرِّهانُ فقد غلبت خَصْمَيْكَ فَلَعَمْرِي إنّ الموتَ يأتي على كلّ شيء.

٢٩ ـ خالد بن عبد الله والأَعرابي

حسن الجواب والخطاب [الطويل]

أخالدُ إنّي لَمْ أَزُرْكَ لحاجةٍ سوى أنّني عافٍ وأنت جَوادُ[٣٦]
أخالدُ بَيْنَ الحمدِ والأجرِ حاجتي فأيُّهما تأتي فأنتَ عِمادُ[٣٧]

فقال خالد: سَلْ حاجَتَك. قال الأعرابي: مائةُ ألفِ درهم. قال خالد: أسرَفْتَ يا أخا العرب، فاحْطُطْنا[٣٨] منها. قال الأعرابي: حَطَطْتُكَ ألفاً. فقال له: ما أعجبَ ما سألتَ وما حَطَطْتَ!!! قال الأعرابي: لا يَعْجَبِ الأميرُ، سألته على قدرِه، وحَطَطْتُه على قدري.

٣٠ ـ الحجاج والأعرابي

الحركة والسكون بيد الله تعالى

حجّ الحجَّاجُ فنزل بين مكّةَ والمدينةِ وطلب الغداء. وقال لرسوله: اذهبْ وتَحَرَّ

---

[٣٦] ـ العافي: كلّ طالب معروف.
[٣٧] ـ العِماد: الرئيس الشّريف.
[٣٨] ـ احطط: أنقص وأرخص.

من يأكلُ معي. فولّى الرسولُ وجهَه شطرَ الجبلِ فإذا هو براع نائم فَلَكَزَه[٣٩] بيده وقال: ائتِ الأميرَ. فلمّا مَثَلَ بينَ يَدَي الحجّاج قال له: اغسلْ يدَيك وتَغَدَّ معي. فقال الأعرابي: دعاني من هو خير منك فأجبته. قال: من هو؟ فقال: دعاني الرءوفُ الأعلى إلى الصِّيام فصمت. قال: أَفْطِرْ وصُمْ غداً. فقال: إن ضَمِنْتَ لي البقاءَ إلى غد. قال: ليس ذلك إليّ. فقال: كيف تسألني عاجلاً بآجِلٍ لا تقدرُ عليه؟ قال: لأنّه طعامٌ طيّب. فقال: لم تطيِّبْهُ أنت ولكنْ طيَّبَتْهُ العافية.

٣١ ـ أَبو تَمّام والكِنْدِيُّ
سرعة الخاطر وفَصاحة اللسان

امتدح أبو تمّام أحمدَ بنَ المعتصم بقصيدةٍ، فلمّا بلغ إلى قوله: [الكامل]

إقدامُ عمروٍ في سماحةِ حاتمٍ ... في حِلْمِ أحنفَ في ذكاءِ إياسِ

قال له الكندي بجرأة وثبات: الأميرُ فوقَ من وصفت. فأطرق أبو تمّام ملياً ثم قال:

لا تُنْكروا ضربي له من دونَه ... مثلاً شَروداً في النَّدى والباسِ

فاللّهُ قد ضَرَبَ الأقلَّ لنوره ... مثلاً مِنَ المشكاةِ والنِّبراسِ

فسكتَ الكِنْدي، وأُعْجِبَتِ الفئةُ الحاضرةُ لفطنةِ أبي تمام وأصالة رأيه، وجودة فكره، وسرعة فؤاده.

٣٢ ـ المنصور والواشي
صِدْقُ الجواب مَنْجاةٌ من العقاب

وَشى بعضُهم إلى المنصورِ برجلٍ فَأَمَرَ بإحضاره، ولمّا مَثَلَ بين يديه قال له: لقد أَتَيْتَ أمراً إدًّا[٤٠] سيّئاً أوجب عليك العقاب. فقال الرجل: يا أميرَ المؤمنين، ذنبي السوء أعظمُ من نقمتِك، وعفوُك أوسعُ من ذنبي. وأنشد قائلاً: [الطويل]

فَهَبْني مسيئاً كالذي قلت ظالماً ... فعفوا جميلاً كي يكونَ لكَ الفَضْلُ

فإنْ لَمْ أَكُنْ للعفوِ منك لسوءِ ما ... أتيتُ به أهلاً فأنتَ له أَهْلُ

فقال له المنصور: لولا جوابُك لما تَرَكْتُ عقابَك(*).

٣٣ ـ معاوية وضئيل
كمالُ الرَّجُلِ آدابُه لا ثيابُه

نظر معاويةُ إلى امرئ ضئيلٍ في مجلسه، عليه عباءةٌ رديئةٌ رَثَّةٌ فازدراه مستهزئاً

[٣٩] ـ لكزه: ضربه بجُمْعِ كفّه في صدره.
[٤٠] ـ الإدُّ: الأمر الدّاهي المنكر.

(*) راجع الحاشية [٢٠].

به، وأبى مجاذبته أطرافَ الحديث. فاستشعر ذلك المرءُ بسوءِ نِيَّةِ معاوية له، فقال له: يا أميرَ المؤمنين، إنَّ العباءَةَ لا تكلِّمُك إنّما يكلّمُك مَنْ فيها؛ وأنشد قائلاً: [البسيط]

إنّي وَإنْ كانَتِ أثوابي مُلَفَّقَةً ليستْ بخزٍّ ولا مِنْ نسجِ كتَّانِ
فإنّ في المجدِ هماتي وفي لغتي فصاحةٌ ولساني غيرُ لحَّانِ

فخجل معاوية من جوابه، وبالغ في إكرامه واحترامه.

٣٤ ـ الأمانة

الأمانةُ هي: أن تُؤَدِّيَ حقوقَ الرءوف الأعلى، وألّا تفشي سِرَّ مَنْ أودعَ إليكَ شئونَه وألّا تنقضَ عهدَ من عاهَدْتَه، وألّا تختلِسَ ما ليس لك فيه حقّ وألّا تَغُشَّ امرأً في معاملاتك، وأن تحافظَ على مَنْ جُعِلَ تحتَ رعايتِك. قال عليه الصّلاة والسّلام: «لا إيمانَ لمن لا أمانةَ له ولا دِيْنَ لمن لا عهدَ له». [الكامل]

وإذا اؤتُمِنْتَ على الأمانةِ فارعها إنَّ الكريمَ على الأمانةِ راعي

فالأمانةُ عليها مدارُ عمومِ المعاملات ونجاحُها. وهي أصلٌ من أصولِ الدِّيانات. ولذلك أكَّدَتْ جميعُ الشَّرائعِ وجوبَ رعايتِها والحثَّ على الاتصافِ بها.

٣٥ ـ الدِّين

الدِّينُ هو الذي أَرْشَدَنا إلى أنَّ لنا خالقاً رؤوفاً رحيماً؛ أنعم علينا بنِعَم هذه الحياةِ الدُّنيا، وأَعَدَّ في الآخرة مكافأةً حسنةً يكافئُ بها المحسنين، كما أَعَدَّ عقاباً شديداً للمسيئين، فإذا اعتقدَ المرءُ مِنَّا أنَّ هناك جزاءً طيِّباً للمحسن، وعذاباً أليماً للمسيءِ، فإنَّه يَصْنَعُ الفضائِلَ والحسناتِ، ويتجنَّبُ الرذائل والسِّيئاتِ، وهو الذي هدانا إلى أنَّ الصدقَ، والحياءَ، والأمانةَ، والعدلَ، أخلاقٌ فاضلةٌ، وصفاتٌ كاملةٌ، وعليها نظامُ المعاملات. وأنَّ الكَذِبَ، والخيانَةَ، والدناءَةَ، والسُّوءَ، والتجرُّؤَ على الجَوْرِ والظُّلْمِ، هي أسبابُ فسادِ المعاملاتِ، وخرابُ الأمم.

٣٦ ـ الرِّفْقُ بالحيواناتِ والشَّفَقَةُ عليها

قد أوجَبَتْ جميعُ الشَّرائعِ والأديانِ، الرِّفْقَ بالحيوانِ، وقامَتِ الأُمَمُ المتَمَدِّنَةُ للدِّفاعِ عنها، والشَّفَقَةِ والحُنُوِّ عليها، لضعفها عن الشكوى وعدمِ قدرتها على النُّطق، قال عليه السلام: «اتقوا اللّهَ في البهائم المعجَمَةِ، فاركبوها صالحة، وكلوها صالحة»، وقد سخّرها المولى لمنافِعِناوقضاءِ لوازِمِنا، منْ حَمْلِ ما لا نُطيقُ حَمْلَهُ مِنَ العبءِ الثَّقيل، ومن حَمْلِنا في أسفارِنا، واتّخاذِ قوتِنا من ألبانِها، ولحومِها، واصطناع ملابسَ وفُرُشٍ من أصوافها وأوبارِها وأشعارِها، قال تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۞ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۞ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ

بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ * وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٥ ـ ٨].

٣٧ ـ عبدُ الله بنُ جعفر والأعرابي

لَوْ كان الفقر رجلاً لقتلته

بينما كان عبدُ اللَّهِ بنُ جعفر راكباً إذ تعرَّضَ له أعرابيٌّ وَأَمْسَكَ بعِنَانِ فَرَسِه وقال: يا أيُّها الأميرُ، سألتُكَ باللَّهِ أن تضربَ عُنُقي، فقالَ له الأميرُ: أمعتوهٌ أنتَ؟ فقال الأعرابي: لا وَرَأْسِ الأميرِ، قال: فما خطبُك أيُّها الأعرابي؟ قال: لي خصمُ سوءٍ ليس لي به طاقةٌ؛ فقال له الأميرُ: ومَنْ خصمُك هذا؟ فقال له: الفَقْرُ، فالتفتَ الأميرُ إلى مرءوسٍ له وقال: إدفعْ إليه ألفَ دينارٍ، ثم قال له: خُذْها ونحن مسئولون، ولكنْ إذا عادَ إليكَ فأْتِنا فإنّا منصفوك منه. فقال الأعرابي: أطالَ المولى بقاءَك، إنّ معي من جودِك ما أدْحَضُ به حُجَّةَ خصمي بقيّةَ عمري.

٣٨ ـ كسرى وحاجبُ بنُ زرارة

المرء بقرينه

جاء حاجبُ بنُ زرارةَ على باب كسرى فحال الحاجبُ بينَه وبينَ الوصول. فقال له: قُلْ للملكِ إنَّ بالباب امرأً من العرب يريدُ المثولَ بينَ يَدَيْكَ. فلمّا أَذِنَ له بالدُّخولِ قال له: مَنْ أنت؟ فقال: سيِّدُ العرب. قال كسرى: ألستَ القائل، إنَّك امرؤٌ من العرب؟ فقال: نعم، قلتُ ذلك قبلَ وصولي إليك، ومثولي بين يديك. أمّا الآنَ وقد تَشرَّفْتُ بخدمتِك، وَحظِيتُ برؤيَتِكَ فقد صِرْتُ سيِّدَ العرب، فقال له كسرى: للّهِ درُّكَ أَجبْتَ فَأَعْجَبْتَ.

٣٩ ـ معاوية وزياد

طَلَبَ زيادٌ رجلاً، فلجأ إلى أميرِ المؤمنينَ معاويةَ واحتمى به، فكتبَ زيادٌ إلى معاويةَ يقولُ له: إنّ هذا اللِّينَ مسيءٌ لشئوني، ومفسدٌ لأعمالي؛ إذا طلبتُ امرأً لجأَ إليكَ ولاذَ بِكَ. فكتبَ معاويةُ إليه يقول: إنّه لا ينبغي لنا أنْ نسوسَ النَّاسَ بِسياسةٍ واحدةٍ فيكونَ مقامُنا مقامَ رجلٍ واحد، ولكنْ فَلْتَكُنْ أنتَ للشِدَّةِ والخشونَةِ ولأَكُنْ أنا للرأفةِ والرَّحْمَةِ، فيستريحَ النَّاسُ فيما بيننا.

٤٠ ـ المأمونُ والمتَظَلِّمُ

حسنُ الجواب يستوجبُ العفو

سار المأمونُ مع يحيى بنِ أكثَمَ، وبينما هما في الطريق إذ خرج عليهما رجلٌ فجأة، فنَفَرَتْ منه دابَّةُ المأمون، وألقته على الأرض، فَأَمَرَ بضربِ عنقِ ذلك الرَّجلِ،

فقال: يا أميرَ المؤمنين أمهلْني حتّى أكلمَكَ، وافعلْ ما بدا لك. قال: قلْ وأَوْجِزْ. فقال: إنَّ الرجلَ المضطَرَّ يركَبُ الصَّعْبَ من الأمورِ وهو عالمٌ بركوبِه، ويتجاوزُ الأدَبَ وهو كارهٌ لتجاوزِهِ، ولو أحسنتِ الأيّامُ مطالبتي، لأَحْسَنْتَ مطالبَتَك، ولأنتَ على ردِّ ما لم تفعَلْ أقدرُ مِنّي على ردِّ ما قد فعلت، فعطف عليه المأمون وقال ليحيى: ألا تنظرُ مخاطبةَ هذا الرجل؟ ثمّ عفا عنه وأَمَرَ له بِصِلَةٍ، واعتذر إليه.

٤١ ـ المنذرُ بنُ ماءِ السَّماء وضمرَةُ بنُ ضمرة

المرء بأصغريه: قلبه ولسانه

دخلَ ضمرةُ بنُ ضمرَةَ على المنذرِ بن ماءِ السَّماءِ، والمنذر إذ ذاكَ ملكُ الحِيرةِ واليمامة. وكان ضمرةُ ذا عقلٍ وعلم وحِلْم وشجاعةٍ وحكمة. غير أنَّه كانَ دميمَ الخِلْقَةِ، قصيرَ القامة. وكان أمرُه قد شاعَ وذَاعَ لخصالِه المحمودَةِ، وأعمالِه المشكورة. فلمّا رآه المنذرُ احتقرَهُ، وقال[٤١]: «سماعُك بالمُعَيْدِيِّ خيرٌ منْ أنْ تراه»، فقال له ضمرة: أيُّها الملكُ، ليس المرءُ بحسنِه وجمالِه، وبهائِه وكمالِه، وهيئتِه وثيابِه. لا واللَّهِ حتَّى يشرُفَ أصغراه، لسانُه وقلبُه، ويعلو أكبراه، هِمّتُه ولبُّه، وقد قال الشاعر: [الطويل]

وما المرءُ إلّا الأصغران فقلبُهُ ومِقْوَلُهُ، والجسمُ خَلْقٌ مُصَوَّرُ

فعطف عليه المنذر، وأمرَ له بِصِلَةٍ، فأخذها ومضى

٤٢ ـ الملك والنّاصح والحسود

على الباغي تدور الدوائر

يُرْوَى أنَّ رجلاً كان يقف كلَّ يوم عندَ ملكٍ مِن الملوكِ ويقولُ له: «أحسِنْ إلى المحسنِ بإحسانِه والمسيءُ ستكفيكَهُ مساعيه»، وكان الملكُ يحسنُ إليه. فَحَسَده على ذلك أحدُ أصحابِه ووشى به لدى الملك، فكتب بيده إلى عامِله: إذا وصلَكَ كتابي هذا فاذبَحْ حامِلَه، وابعَثْ إليَّ برأسِه. ثم دفع الكتابَ إلى الرَّجُلِ النّاصح، فأخذه وخرج. فقابله صاحبُه وقال له: ما هذا؟ قال: كتابٌ بخطِّ الملك، فقال له الحاسد: هَبْهُ لي فإنّي محتاج. فدفعه النّاصح إليه شفقةً ورحمَةً به. فأخذه ومضى إلى العامل، فأَنفَذَ به العاملُ أمرَ الملك. أمّا الناصح فذهب كعادته وقال مقالته، فقال له الملك: ما فعلتَ بالكتاب؟ قال: دفعته إلى فلانٍ بعد أن طلبه منّي، فقال الملك: إنّه ذَكَرَكَ عندي بسوء. فبرَّأ الناصح نفسه، وصدَّقه الملك. وجيء برأس الحاسد، فقال الملك: صَدَقْتَ وَصَدَقَتْ مَوْعِظَتُك، قمْ كما كنت تقوم وقل كما كنت تقول.

---

[٤١] ـ من أمثال العرب. وفي مجمع الأمثال ١/ ٢٢٧ «ويروى لأن تسمع بالمُعَيْديّ خير»، وأن تسمع ويروى: تَسْمَع بالمعيدي لا أن تراه، والمختار «أن تَسمع» يضرب لمن خبرُه خير من مرآه. راجع قصة المثل في مجمع الأمثال ١/ ٢٢٧ وما بعدها.

٤٣ ـ الأعرابيّ والإمام عليّ كرَّم اللَّهُ وجْهَه

الإحسان في الطَّلَب يستوجبُ الإعطاء

قدم أعرابيٌّ على علي بنِ أبي طالبٍ كرَّم اللَّهُ وجهَه، فقال: يا أميرَ المؤمنين، لي إليك حاجةٌ يمنعُني حيائي أن أذكرَها لك، فقال له: يا أعرابيُّ خُطَّها في الأرض، فخطَّ: إنّي فقير. فقال علي لغلامه: اكسُهُ حُلَّتِي. فكساه الحلَّةَ فأنشد الأعرابي يقول: [البسيط]

كسوتني حُلَّةً تبلى محاسِنُها ... فسوف أكسوك من حُسْنِ الثَّنا حُلَلا
إن نلتَ حسنَ ثناءٍ نلتَ مكرمة ... ولست تبغي بما قد نلتَهُ بدلا
إن الثَّناءَ ليحيي ذكرَ صاحِبهِ ... كالغيثِ يحيي نداهُ السَّهْلَ والجبلا
لا تزهدِ الدَّهر في عرفٍ بدأت به ... كلُّ امرئٍ سوف يُجْزى بالذي فعلا

فأمر له بمالٍ، فأخذه الأعرابي ومضى فرِحاً مسروراً.

٤٤ ـ إبراهيمُ بنُ المهدي وبختيشوع الطبيب

الحاكم العادل نصير الحق

تنازع إبراهيم بنُ المهدي وبختيشوعُ الطبيبُ في مجلس الحكم في عَقارٍ، فأغلظَ له إبراهيمُ القولَ، وكان القاضي أحمدُ بنُ أبي دؤادٍ فغضب وقال له: يا إبراهيمُ إذا نازعت في مجلس الحكم امرأً، فلا ترفَعْ عليه صوتاً، ولا تُشِرْ بيدك. وليكن قصدُكَ أَمَماً[٤٢]، وطريقُك نَهْجاً[٤٣]، وكلامُك مُعْتدلاً، وَوَفِّ مجالسَ الخليفة حقَّها من التوقيرِ والتعظيم، والاستكانةِ والتَّوَجُّهِ إلى الحقّ، فإنَّ ذلك أشكل بك، وأجمل بمذهبك في محتدِك وعظيم خطرك، ولا تَعْجَلَنْ فَرُبَّ عَجَلةٍ تَهَبُ ريثاً[٤٤]، والله يَعْصِمُك من الزَّلل وخطلِ القولِ والعملِ ويُتِمُّ نعمتَه عليك كما أتمّها على أبويكَ مِنْ قبلُ، إنَّ ربَّك عليم حكيم. فقال إبراهيم: أَمَرْتَ أصلَحك الله بسداد، وحَضَضْتَ على رشاد، ولستُ عائداً لما يَثْلَمُ قدري عندك، ويُسْقِطني من عينيك، ويُخرِجُني عن مقدارِ الواجب إلى الاعتذار. فهأنذا معتذرٌ إليكَ من هذهِ البادرةِ اعتذارَ مُقِرٍّ بذنبه، باخع بجرمه، لأنَّ الغضبَ لا يزال يستفزُّني بمرادِه فيردّني مثلك بحِلْمِه. وتلك عادةٌ عندَكَ وعندنا فيك وحسبُنا اللَّهُ ونعمَ الوكيلُ، وقد جَعَلْتَ منّي هذا العقار لبختيشوع، فليت ذلك يكون وافياً بأَرْشِ[٤٥] الجناية عليه ولم يُتْلَفْ مالٌ أفادَ موعظة وبالله سبحانه وتعالى التوفيق.

---

[٤٢] ـ الأَمَمَ: اليسير القريب التّناول.

[٤٣] ـ النَّهج: طريق نَهْج: مستقيم واضح.

[٤٤] ـ الرَّيث: البطء. وجاء في مجمع الأمثال ٢/٣٦ «ربّ عجلةٍ تَهَبُ ريثاً ويروى تَهَبّ ريثاً». يضرب للرجل يَشتدّ حرصه على حاجة ويخرق فيها حتّى تذهب كلّها.

[٤٥] ـ الأَرْشُ: ما يُسْتَرَدُّ من ثمن المبيع إذا ظهر فيه عيب.

٤٥ ـ معاويةُ وأحدُ مخالفيه

حسنُ الاعتذارِ يستوجبُ الصَّفْحَ

بعث زيادٌ إلى معاويةَ برجلٍ من بني تميم كان مِنْ أهل الفِتْنَةِ، فلمّا مَثَلَ بين يَدَيْهِ قالَ له معاويةُ: أنتَ القائمُ علينا، المكَثِرُ لعدوِّنا؟! قال: يا أميرَ المؤمنينَ، إنّما كانت فتنةٌ عَمَّ عماها، وأظلَمَ دُجاها، ورجحَ فيها الوضيع، وخفَّ الحليم والرفيع، فاحتدَمَتْ، وأكَلتْ علينا وشربَتْ، حتى إذا انحسرَتْ ظلماؤُها، وانكشفَ غطاؤُها، آلَ الأمرُ إلى مآلِه، وصرَّح عن مَحْضِه[٤٦]، وارتفع العُبوسُ، وثابَتِ النفوس، فتركنا فِتْنَتَنا وتركنا عِصْمَتنا، وعرفنا خليفَتَنا، ومن يجد متاباً، لم يُرِدِ الله به عقاباً، ومن يستغفرِ اللَّهَ يجدِ اللَّه غفوراً رحيماً فعجب معاويةُ من فصاحته، وجميلِ اعتذاره، وعفا عنه وأحسنَ إليه.

٤٦ ـ أنوشروانَ ووزيرُه

من صبر ظفر

غضب أنوشروانَ على وزيره فسجنه، وصفَّده بالحديد، وألبسه الخشِنَ من الصوف، وأمر ألّا يُعْطَى من القوت إلّا القليل من الخبز والملح والماء، وأن تُقَيَّدَ ألفاظُه حتى يَطَّلِعَ عليها، فأقام الوزيرُ أشهراً لم يُسْمَعْ له لفظٌ واحد. فوجّه إليه الملك قوماً ينظرون في أمره فقالوا له: يا أيّها الوزيرُ، نراك فيما نراكَ فيه من الشِّدَّةِ والضِّيق وأنت كما أنت لم تَتَغَيَّرْ حالُك، فما شأنُك؟ قال: إنّي استعنت على أمري بستَّةِ أشياءَ: الثِّقَةُ بالله تعالى، وعلمي أنَّ كلَّ مُقدَّرٍ واقعٌ، وبالصبرِ الجميل، ومعرفةُ أنّي إنْ لم أصبرْ أكُنْ قد أعنت على نفسي بالجزع، وأنّي ربّما أكونُ في شرٍّ أصعبَ من هذا، وما بين ساعة وأخرى يأتي اللَّهُ بالفرج القريب، فلمّا قالوا مقالَتَهُ لأنوشروانَ عفا عنه، وردَّه إلى عمله، وأحسن إليه.

٤٧ ـ الأعرابي والحجّاج

في وصف العصا

لَقِيَ الحجَّاجُ أعرابياً فقال له: مِنْ أينَ أقبلت؟ قال: مِنَ البادية. قال: وما بيدِك؟ قال: عصا أركُزُها لصلاتي وأُعِدُّها لِعُداتي[٤٧]، وأسوقُ بها دابَّتي، وأقوى بها على سفري، وأعتمد بها على مشيي لِيَتَّسعَ بها خَطْوي، وأَبُثُّ بها النهرَ فتُؤَمِّنني، وألقي عليها كسائي فَيَسْتُرُني من الحرِّ ويقيني من القُرِّ وتُدْني ما بَعُدَ مِنّي. وهي مَحْمَلُ سَفْرَتي، وعِلاقَةُ أدواتي، ومِشْجَبُ[٤٨] ثيابي، وأعتمد بها عند الضِّراب، وأقرع بها

---

[٤٦] ـ المحض: كُلُّ شيء خلص حتّى لا يشوبه شيء يخالطه.

[٤٧] ـ العُداة: جمع العادي وهو العَدُوّ.

[٤٨] ـ المِشْجَبُ: ما تُعَلَّق عليه الثّياب ونحوها.

على الأبواب، وأتقي بها عقورَ الكلاب. تنوب عن الرمح في الطِّعان وعن الحِرَابِ عند منازلة الأقران. ورثتها عن أبي، وأُورثها بعدي ابني وأَهُشُّ بها على غنمي ولي فيها مآربُ أخرى كثيرةٌ لا تُحصى.

٤٨ ـ الحجَّاجُ والشَّيخ
حُسْنُ التَّخلُّص

أرادَ الحجَّاجُ أن يقفَ على أَسرارِ النَّاسِ فيه وفي عُمَّاله. فخرجَ متنكِّراً حتى لَقِيَ شيخاً فقال له: ما رأيكم في رؤسائِكم؟ قال الشيخ: إنّهم ظَلَمَةٌ مستبدُّون غيرُ أكْفاءٍ، قال: ما رأيُكُمْ في رئيسِكم الحجّاج؟ قال: إنّه دنيءُ الخصالِ، بريءٌ من الفضائلِ. فأسِفَ الحجَّاجُ على سؤالِه وتلا قولَه تعالى: ﴿لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١] ثم قال للشيخ أتدري من أنا؟ قال: لا. قال: أنا الحجّاج، فقال الشيخ: وأنا زيد بن عامر يَمَسُّني الشيطانُ كُلَّ يوم مرَّةً فأُصْرَعُ فلا أدري ما أقولُ، ولا يؤاخذني الناسُ على ما يصدرُ عنّي، ويبدرُ مني. فَعفا عنه الحجاج لحُسْنِ تخلُّصِه.

٤٩ ـ الأعرابيةُ وعبد الله بنُ أبي بكرة
حُسْنُ البيان يَسْتَوْجِبُ الإحسان

دخلت أعرابِيَّةٌ على عبد الله بن أبي بكرة بالبصرة بين السِّماطين[١] وقالت: أصلح الله الأميرَ وأَمْتَعَ به. حَدَرتنا إليك سَنَةٌ اشتَدَّ بلاؤها وانكشف غطاؤها. أقودُ صِبْيَةً صغاراً وآخرينَ كباراً في بلدة شاسعة تخفضنا خافضة وترفعنا رافعة. مُلِمّات من الدَّهْرِ بَرَيْنَ عظمي، وأَذْهَبْنَ لحمي. وتَرَكْنَنِي والهاً[٢] أدورُ بالحضيض[٣]. وقد ضاق بي البلدُ العريض. فسألتُ في أحياءِ العربِ، مَنِ الكامِلَةُ فضائِلُهُ، المعْطِي سائلَه الكفيُّ[٤] نائله! فَدُلِلْتُ عليك، أَصلَحك الله تعالى، وأنا امرأة من هوازن، قد مات الوالد، وغاب الرَّافد[٥]. وأنتَ بعدَ اللَّهِ غياثي ومنتهى أملي، فافعل بي إحدى ثلاثِ خصال: إمَّا أن تردَّني إلى بلدي أو تُحْسِنَ صَفَدِي[٦] أو تقيمَ أَوَدِي[٧]. فقال: بل أَجْمَعُهُنَّ لكِ. فلم يزل يُجْري عليها كما يُجْرِي على عيالِه حتَّى ماتت.

---

(١) السماطان من الناس: الجانبان والصفّان، أي: وقفت بين الصَّفَّين.
(٢) الواله: التي ذهب عقلها من الحزن.
(٣) الحضيض: المنخفض.
(٤) الكفي: أي الكافي كفاية زائدة.
(٥) الرافد: المعين.
(٦) الصفد: العطاء.
(٧) الأود: العوج من الأرض.

٥٠ ـ المأمونُ والحَسَنُ بنُ رجاء
بالإحسان في البديهة تتفاضل العقول

دخل المأمون في بعض الدواوين، فرأى غلاماً جميلاً على أذنه قلم، فقال: من أنت يا غلام؟ قال: أنا يا أميرَ المؤمنين النَّاشِئُ في دولتك، المتقلِّبُ في نعمتك، المؤَمِّل لخدمَتِك، خادِمُك وابنُ خادِمك، الحسنُ بن رجاء. فقال المأمون: أحسنت يا غلام، وبالإحسانِ في البديهة تتفاضلُ العقول. وأمر بِرَفْعِ مرتبتِه وزيادةِ عطائه.

٥١ ـ الغلام وعمر بن الخطاب
الإحسان في الإجابة من أمارات النَّجابة

مرّ عُمَرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه بغلمانٍ يلعبون فلمَّا رأوه تفرّقوا هائبين. وثبت أحدُهم مكانَه. فقال له عمر: ما لَكَ لَمْ تفارقْ مكانَك، وقد فَرَّ من كانوا معك؟ فقال: يا أميرَ المؤمنين ما الطَّريقُ ضَيِّقَةً فأوسِعَها لك، ولا ذنبَ لي فأخافه. فَسُرَّ من جوابه وكافأه مكافأةً حسنة.

٥٢ ـ الشَّعْبِيّ والحجّاج
في الصدق النجاة

خرج الشَّعْبِيُّ مع ابن الأشعث على الحجاج. فظهر الحجاج على ابن الأشعث. فاستشار الشعبي أصحابَهُ فأشاروا عليه بالاعتذار، قال الشعبي: فلمّا دخلت خالفت مشورَتَهُمْ، ورأيتُ واللَّهِ غيرَ الذي قالوا، فسلّمت عليه بالإمرة ثم قلت: أيَّد اللَّهُ الأمير. إنّ الناسَ قد أمروني أن أعتذِرَ بغير ما يعلَمُ اللَّهُ أنّه الحق. ولكَ الله ألّا أقولَ في مقامي هذا إلَّا الحقَّ: قد جهدنا وحرِصنا، فما كنا بالأقوياءِ الفَجَرَةِ، ولا الأتقياءِ البَرَرَة. ولقد نصرَك اللَّهُ علينا، وأظفرَك بنا. فإن سَطَوْتَ فبذنوبِنا، وإن عَفَوْتَ فَبِحِلْمِكَ والحجّةُ لك علينا. فقال الحجاج: أنتَ واللَّهِ أحبُّ إلينا قولاً ممن يدخُلُ علينا وسيفُه يقطرُ من دمائنا، ويقول: واللَّهِ ما فعلت ولا شهدت. أنت آمنٌ يا شعبي. فقلت: أيها الأمير اكتحلت والله بعدك السهر. واستحلست الخوف(١). وقطعت صالح الإخوان ولم أجد أحداً من الأمير خلفاً. قال: صدقت. وانصرفت.

٥٣ ـ الذئب والظبي
خف عدوك واحذره

صاد ذئب ظبياً ضئيلاً من الجوع فرأى أن يشبعه حتّى يسمنَ ثم يأكله. فجاء إليه وسلّم عليه وقال: يا أخي ما شأنُك؟ قال: جوع شديد كاد يقتلني. فأظهرَ الذئب شفقة

---

(١) استحلست الخوف: لزمته ولم أفارقه.

زائدة. وبكى لحال الظبي، وقال: لقد تركت عداوةَ مثلِك، وحلفت ألّا آكلَ حياً، وأنِفْتُ القساوةَ، ومللت الفتكَ بالنفوسِ البريئة. [الرّجز]

وَقَدْ عَلِمْتُ واللّبيبُ يَعْلَمُ ... بالطَّبْعِ لا يُرْحَمُ من لا يَرْحَمُ

فاغتَرَّ الظبي بقوله، وانتظر الذئب حتى جاءه بالأكل فأكل وشبع وشكر للذئب جميلَ إحسانه، ولم يزل كذلك حتى سمن وامتلأ فوثب عليه الذئب وأكله. وتلك عاقبةُ من يستسلمُ لأعدائِه، ويغتَرّ بأقوالهم وأفعالهم.

٥٤ ـ الطاووس والبوم

العاقل لا يستشيرُ عَدُوَّه وإذا وقع في شِدَّة فكّر في سبيل النجاة

وقع طاووسٌ في حبائلِ صيَّادٍ فوجد فيها بوماً، فازداد هماً إذ رأى عَدُوَّه فيها، ولكنْ أظهر الرِّضا، وتحادث معه كيف ينجوان؟ فقال البوم: الرأي عندي أن نتماوَتَ فيتركَنا الصَّياد، فتماوتا وجاءَ الصَّيّاد وألقى البومَ ونَتَفَ ريشَ الطاووسِ لنفاسَتِه فلقيَ الطاووسُ شقاءً وعناءً باتّباع رأي عدوّه وندِم على سوء فعله. وقال لنفسه: لو أني عشت ولم أتماوتْ لكنت مكرَّماً معزَّزاً عند من يأخُذُني. ثُمَّ طرحه الصَّياد ومضى، فجاء البومُ وجعلَ ينقُرُه حتى كادَ يهلكُه. ثمّ تركه على أسوإِ حال، فجاء ثعلبٌ وحمله بأنيابِه إلى أن ألقاه أمام زوجتِه وأبنائِه ومضى. فقال الطاووس للزوجة: إنّي مريض فإن أكلتِني يُصبْكِ مرضي. فذكرت الثعلبة ذلك للثعلب، فقال: هذه حيلة يريد النجاة بها. فراجعته حتى رضي بتركه إلى أن يبرأ. فعاش الطاووس حتى عوفِيَ وطال ريشه وطار على شجرة، فقالت له الثعلبة: انزل ولك الأمان، فقال لها: «العاقل إذا خلص من شدّة لا يوقع نفسَه فيها مرَّة ثانية» ثم طار إلى أهله وأنبأ بنبئه. فلقي اللومَ على اتّباع مشورةِ عدوِّه، والمدحَ على احتيالِه للخروج من كربَتِه والتخلّص من مصائبه.

٥٥ ـ الظليم[١] والصياد

لا تترك الموجود طلباً لأمر موهوم

وقع ظليم في شَرَكٍ. فأخذه الصَّيادُ وقاده. فقال له الظليم: لم أخذتني؟ فقال: لأنّي شيخٌ فقيرٌ ذو عيال. فبكى الظليم وضحك. فَدُهِشَ الصَّياد وسأله عما فعل فقال: بكيتُ لتركي فراحي وهي تنتظر رجوعي بشغف ولهف، فذكر الصياد أولاده، وهمَّ بترك الظليم، ولكنه صبر حتّى يتم كلامه، ثم قال الظليم: وضحكت لأنّي تركت في بيتك مالاً كثيراً في موضع كذا، ففرِحَ الصياد، وهمّ بإطلاقه، غير أنّه قال للظليم: لو

---

(١) الظليم: ذكر النعام.

تركتُك تركْتُ شيئاً موجوداً لأمرٍ قد يكون معدوماً، ولو علمتَ الغيب ما وقعت في شركي. فقال له الظليم: سترى جِمالاً تتبعها أبناؤها. وكان الظليم قد رآها من قبل. فلما مضى الصياد ورأى الجمال وأولادها أطلق الظليم، وذهب مسرعاً إلى داره، وجعل يحفر فيها حتّى خرّبها فرماه الناس بالجنون، ولم يحصل على شيء «فالعاقل لا يغترّ ويحافظ على ما معه حتى يجِدَ العِوَضَ عنه».

٥٦ ـ السمكات الثلاث والصياد

اليأس شيمة العاجز

كان بغدير ثلاثُ سمكات: الأولى كيّسة، والثانية أكيس، والثالثة عاجزة. وكان الغدير بعيداً عن المارة، ومتّصلاً بنهر جار، فمرّ به الصياد فأحسّت به السمكات، فارتابت أكيسُهُنّ، وخرجت من الغدير إلى النهر، وبقيت الكيّسة والعاجزة فجاء الصياد وسدّ الوصلةَ التي بين الغدير والنهر ورمى بشباكه في الغدير، فقالت الكيّسة لنفسها: «هذه نتيجة التفريط، فهل من حيلة، وهل تنفع حيلة الخائف؟ وربما تنفع. ولذلك لا أيأس». ثم تماوتت وطفت على وجه الماء، وجعلت تتقلّب ظهراً لبطن، فأخذها الصّياد، ووضعها بين الغدير والنهر، فوثبت إلى النهر ونجت بهذه الحيلة، أمّا العاجزة فيئست كُلَّ اليأس ولم تزل في إقبال وإدبار وارتفاع وانخفاض حتّى صادها، وذلك جزاء اليائسين. فالعاقل لا ييأس، بل يستعين على النجاة بالثبات والصَّبْرِ كما قال القائل: [البسيط]

لا تَـيْـأَسَـنَّ وإن طـالـت مـطـالَـبَـةٌ   إذا استَعَنْتَ بِصَبْرٍ أن ترى فَرَجَا

٥٧ ـ القردة والأسد

القُوَّة في الاتحاد

يُرْوى أنَّ حبشياً ذهب بأبقاره إلى نهر لتشرَبَ، فرأى هناك أسداً قد ربض على الشاطئ، فلمّا بَصُرَ به الأسد، تحفّز للوثوب، فلجأ الرجل إلى شجرة، وخاضت أبقارُه الماء، ثم شاهد الرَّجل قِرْدَةً يتبعها ولدُها فافترس الأسدُ ولدَها فحزِنَتْ كثيراً، وعادت من حيثُ أتت. ثم رجعت ومعها جَمٌّ غفير من القردة، وهي أمامهن وقد سبقهُنَّ غبارٌ سَدَّ الأفق، وبأيديهن العِصِيُّ، فذُهِلَ الرجلُ ودُهِشَ الأسد، الذي لم يلبث أن رأى نفسَه داخلَ سور من القردة، وهي تتقدّم إليه بكل ثبات وشجاعة، ثم أوسعته ضرباً ووخزاً حتى مات ونالت منه ثأرَها على قوته وضعفها، ولكنّ القُوَّةَ في الاتحاد.

٥٨ ـ اليمامة والصياد

الصمت واجب إذا ضر الكلام

قيل إنَّ يمامةً كانت آمنة مطمئنة في عشّها بأعلى شجرة مورقة جميلة، فجاء في مكانها صياد، وجعل يبحث عن طير يصيده، فلم يجد شيئاً. ولمّا همّ بالرجوع، برزت اليمامة من

عشّها، وترنّمت بجميل صوتها. فتوجّه إليها الصيّاد وصادَها، فلما وقعت في يده قالت لنفسها «سلامتي كانت في صمتي، ولو ملكت منطقي، لملكت نفسي» وقيل: [الطويل]

يموتُ الفتى مِنْ عَثْرَةٍ بلسانِهِ وَلَيْسَ يموتُ المرءُ من عَثْرَةِ الرِّجْلِ

٥٩ ـ سليمان عليه السلام والهدهد

الظلم مرتعه وخيم

وقف هُدْهُدٌ أمامَ سُليمانَ عليه السلامُ خاضعاً ذليلاً، وشكا إليه سوء حاله وتكدّر عيشُه من حبَّة بُرٍّ تناولها، فقال سليمان عليه السلام لمن حوله: قد جنى هذا الهدهد ذنباً عظيماً، وظلم ظلماً كبيراً لأنَّ هذه الحبَّة سرقها من بيت نملة، تعبت في الحصول عليها تعباً شديداً، فكافأه الله عزَّ وجلَّ على ظلمه وَبَغْيِه، وأكلِه ما ليس له، بما ترون من المرض وسوء الحال. فأنا لا أسمع له شكوى، ولا أنظر له في دعوى، وذلك جزاءُ الظالمين الباغين ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

٦٠ ـ الغلام والقط

جزاءُ سَيِّئَةٍ مثلها

دخل غلام غرفته فتبعه قِط. فلما رآه بادر بإغلاق النوافذ، وجعل يعدو وراء القِطِّ ويضربه بالعصا وهو يموءُ ويقفز حتّى كسر بعضَ ما في الغرفةِ من الأدوات، فاغتاظَ الغلامُ وحَنِقَ على القِطِّ وازدادَ في الضَّرْبِ المؤلِم والإيذاءِ مِنْ غَيْرِ شفقة ولا رحمة، فتألَّم القطُّ كثيراً، ولم يجدْ مَفَراً، فاستجمع قُواه، وَوَثَبَ على الغلامِ فَفَقَأَ عينَه، وجرَحَ وجهَه، فأسرع الغلامُ إلى الباب وفتَحه مستغيثاً، ففرَّ القِطُّ ونجا، وبقي الغلامُ مفقوءَ العين مُشَوَّهَ الوجه، طولَ حياته، وعَرَفَ أنَّ الظُّلْمَ مرتَعُه وخيم يوجب لصاحبه البلاء، ويوقعه في الشقاء، وندم على ما فعل ولاتَ ساعةَ مندم.

٦١ ـ السَّيِّدة والكلب الصغير

الرفق بالحيوان من الإيمان

خرجتِ امرأةٌ لقضاءِ ما تحتاج إليه، فرأت أبناءً يسحبون كلباً ضئيلاً وهو ينبح ويتألم، فأشفقت عليه واشترته منهم، وحملته إلى بيتها، وسقته وأطعمته وأحسنت إليه، فأحبّها وتعلّق بها، ثم حدث أن جاء لصٌّ واختبأ تحتَ سريرِ تلكَ المرأةِ فجعل الكلب يروحُ ويغدو وينبحُ تحتَ السَّرير على خلافِ عادته، فرابها الأمر، وانشغل فؤادُها، فنظرت تحت السَّرير بهدوء واطمئنان، فرأت اللص مختبئاً ساكناً، فأسرعت بدون بطء إلى الباب وأغلقته، واستغاثت بأَهلها وخدمها، فجاءوا وأوسعوا اللِّصَّ ضرباً، ثم سيق إلى السجن ليلقى جزاءَه، ونجت المرأة من سوءِ شَرِّهِ لإحسانها إلى الكلب ورفقِها به وشفقتِها.

٦٢ ـ الكلب ووفاؤه

فَمَنْ يَعْمَلْ مِثقالَ ذَرَّةٍ خيراً يَرَهْ

اعتنى ولد بتربية كلبه، فجاء أعداءُ الولدِ وأخذوه ومعه كلبُه إلى إِحدى الدور. وشرعوا يقتلونَ الولدَ ودفنوهُ في فِناءِ الدَّار. فجعلَ الكلبُ يناضِلُ عنه ويقاتِلُ دونه، حتى خارت قُواه. وقتل الولد عداء، فلما غابَ الولدُ عن أمِّه خرجَتْ تَبْحَثُ عنه فلم تَجِدْه، وقَطَعَتْ أَمَلَها في رجوعِه، ولكنَّ الكلبَ رأى أحدَ قتلةِ سيِّده فتعلّق به واجتمعَ الناس، ومعَهُمْ أمُّ الولدِ لإِنقاذِ القاتِلِ من الكلبِ حتى أنقذوه بكلِّ جَهْدٍ وَمَشَقَّةٍ.

فلمّا مضى القاتلُ اتَّبعَه الكلب، فارتابَتِ الأمُّ وأبلغتِ الأمرَ للرئيسِ الحاكم فأَرسَلَ معها بَعضَ أعوانِه للتحقيق. فساروا ومعهم الكلبُ وفتحوا الدَّارَ، فَتَبِعَهُمُ الكلبُ إلى الجهةِ التي دُفِنَ فيها سيِّدُه، وشَرَعَ يَنْبُشُ بيديه ورجليه باذِلاً كلَّ ما في وسعه، فعرف الحاضرون غَرَضَه، فحفروا وأخرجوا الجُثَّةَ وحاكموا القاتلين، وأخذ الكلبُ بثأرِ سيِّدِهِ بعد موتِهِ وفاءً له جزاءَ إحسانه إليه.

٦٣ ـ الأسد والثعلب وابن التاجر

كن عالي الهمة

أرسلَ أَحَدُ التُّجَّارِ وَلَدَهُ في تجارةٍ، فرأى في طريقِه ثعلباً طريحاً يتلوّى من الجوع فقال: مِنْ أَيْنَ يتغذّى هذا المسكين؟ وإذا بأسَدٍ أقبلَ يَحْمِلُ فريسَتَه. فانزوى الولدُ وهو يرتَعِدُ. ثم راقبَ الأسدَ حتّى أكلَ فريسَتَه وتركَ منها بَقِيَّةً لا خيرَ فيها ومضى، فقام الثَّعْلَبُ وَأَكَلَ مِن فُضالَةِ[٤٩] الأَسَدِ، فأرادَ الولَدُ أن يقتدِيَ بالثعلب. وَرَجَعَ إلى أبيه وأخبَرَهُ بما رأى، فقال له والده: إنّك مخطئ يا بُنَيّ، وإنّي أرجو أن تكونَ أسداً تأكلُ الثَّعالبُ ما أبقَيْتَ، ويسوءُني أنْ تكونَ ثعلباً تأكُلُ مِنْ بقايا الأسودِ وتشربُ من سُؤْرِها[٥٠]. وردّه عن خطئه، وقال: **[الطويل]**

وما المرء إلَّا حيثُ يجعَلُ نفسَه فكنْ طالباً في النَّاسِ أعلى المراتِبِ

٦٤ ـ الثعبان والأسد

تُلْجِئُ الضَّرورةُ الحُرَّ إلى مصادقَة عَدُوٍّ بلا مَفَرّ

تآخى ثعبانان واتفقا على أن يضربا في الأرض ابتغاءَ الرِّزق، فَرَأَيا أسداً قَدْ أَقْبَلَ عليهما، فقالَ أحدهما لصاحِبِه: لا بُدَّ لنا من حيلةٍ تُنْجينا من هذا العَدُوِّ الآتي. فلمّا جاءَهُما الأسدُ، تقدّما بين يديهِ خاضعين، وقال أحدُهما: يا أبا الحارث، إنّا قد ورثنا

---

[٤٩] ـ الفُضالة: البقيّة من الشيء.

[٥٠] ـ السُّؤْرُ: بقيّة الشيء.

أغناماً عن أبينا، واختَلَفْنا كيف نَقْسِمُها، فجئناك لتَقْسِمَ بيننا بالعدل، كما هي شيمتك. فقال الأسد: «عادلاً حكَّمْتما» فَلْيَذْهَبْ أحَدُكما لإحضارِها. فَذَهَبَ أحدُهما مسرعاً وانزوى في كَرْم عِنَبٍ ولَمْ يَعُدْ. فقال الآخر: يا سيّدي، قد غاب هذا الخائنُ لِيَخْتَصَّ بالأغنام فَمُرْني أن أُحْضِرَه بها، فأمره، وذهب وعلا حائطاً ولم يَعُدْ، فذهب الأسدُ في طلبِهما، فرأى الثعلبَ الثاني فوقَ الحائِط فأمَرَه بالنُّزولِ لِيَحْكُمَ بينه وبين صاحِبِه، فقال الثَّعْلَبُ: قد اصطلحنا واذهَبْ حيث شئتَ. فَغَضِبَ الأَسَدُ، فقال الثَّعْلَبُ: عجباً، ما رأينا قاضِياً يغْضَبُ من اصطلاح الخَصْمَيْنِ سواك. وقد نَجوَا منه بحسن حيلتهما، وَفَضْل تعاونهما.

٦٥ ـ الثَّعْلبُ والدِّيك
إِحْذَرْ عَدُوَّكَ فَقَوْلُهُ تغريرٌ وتمويه

يُرْوَى أنّ ثعلباً رأى ديكاً، فأقبلَ عليه طَلْقَ المُحَيَّا، بادِيَ البِشْرِ فما رآه الديكُ علا شجرةً حتى انتهى إلى أعلى غصن فيها، فناداه الثعلب وقال له: ما بالُك قد خِفْتَ مني؟ فقال له الدِّيك أنت عَدُوِّي قديماً وحديثاً، فَمِنَ الحُمقِ والجهلِ أنْ أنزلَ إليك فتأكلَني ظلماً وبغياً. فقال الثعلب: أما سَمِعْتَ أنَّ منادِيَ السُّلْطانِ نادى بالأمان في جميع البلدان فاجتمع القِطُّ بالفأر، والأسدُ بالإنسان، والذئبُ بالغزلان؟ انزلْ ولا تَخَفْ إنّي لك من النّاصحين. فقال الدِّيكُ لنفسه: إنّ هذا الثعلبَ لا ينفكُّ يحتال عليَّ ليوقِعَني في حبائِلِه، لا بُدَّ لي من حيلة. ثم قال للثَّعْلب: يا أبا الحُصَيْن، إنّي أرى شبحاً يعدو على أربع كأنّها السِّهام فارقت قِسِيَّها، وهو يَقْصِدُك. فقال الثعلب: ذلك عدوّي الكلب. وَفَرَّ هارباً. فناداه الدِّيك وقال له: أَقْبِلْ ولا تَخَفْ فَقَدْ قُلْتَ إنّ منادِيَ السلطان نادى بالأمان. فقال وهو يعدو: لعلّ هذا الخبيثَ لم يَسْمَعِ النِّداء. ونجا الدِّيكُ بحُسْنِ حيلتِه، وكمالِ ذكائِه. ولم يُصَدِّقْ قولَ عَدُوِّه.

٦٦ ـ الضِّفْدَعَةُ والبقرة
الجاهل عَدُوُّ نَفْسِه

رأت ضفدعة بقَرَةً عظيمةَ الجثَّةِ كثيرةَ النَّشاط. فَحَسَدَتْها على ما أعطاها الله. ورغِبَتْ أن تكونَ مثلَها. فتمدَّدت وبسطت أعضاءَها وجعلت تشرَبُ كي يَعْظُمَ جسمُها، وتكونَ كالبقرة. ثم عرضت نفسها على أَخواتِها، وطلبَتْ مِنْهُنَّ أن يقارِنَّ بينَها وبين البقرة. فقُلْنَ لها: هيهات أن تَصِلي إلى ما وصَلْتُ إليه وعبثاً تحاولين. فلم تُصْغِ للقول. وَرَجَعَتْ إلى شربِ الماء، حتّى انتفخَتْ، وماتَتْ لِوَقْتِها ضحيَّةَ ضلالِها وفريسَةَ جهلِها، قال الشاعر: [السّريع]

لا يَبْلُغِ الأعداءُ من جاهلٍ ... ما يبلغُ الجاهلُ من نفسِهِ

٦٧ ـ الكلبُ الحرُ والكلبُ المأسورُ

الحرِّيَةُ مَعَ الفَقْرِ خيرٌ من الاستعبادِ مع الغنى

مرّ كلبٌ ضئيلٌ قد أنهكه الجوع، وأضعفه الاحتياج، بكلب ممتلئٍ قد عَظُمَ جسمُه، وكثُرَ خيرُه، فتحادثا. فقال الكلب السَّمينُ صاحبُ العيشِ الرغيدِ: ما لَكَ قد أضناكَ الجوعُ، وكاد يودِي بحياتِك؟ وما عليك لو جئتَ معي، وعشتَ عِيْشَتي، ولقيتَ نعيمي؟ الكلبُ الضَّعيف: ذلكَ ما أبغيه، ولكنْ ما هذا الذي أراه بجيدِك؟ قال: هذا أثرُ الحديد لأن أصحابي يطلقونني ليْلاً، ويضعون الأغلال في رقبتي نهاراً. فقال الضّعيف: دعني أَعِشْ حراً، فلا لذَّةَ لي في نعيم الحياةِ ورَغدِ العيش، وأنا أسمع رنينَ الحديدِ في رَقَبتي. [الطويل]

إذا لَـمْ أَجِـدْ فـي بـلـدةٍ مـا أريـده فـعـنـدي لأُخـرى عَـزْمَـةٌ وَرِكـابُ

٦٨ ـ الحصان والذئب

السَّيِّئ يرجعُ سوءُ عملِه عليه

صادف ذئبٌ حصاناً قد امتلأ شحماً ولحماً، ورَوْنقاً وشباباً، في فصل الربيع. فعقدَ الآمالَ على أنْ يأكلَ من هذا اللَّحْم الطَّريِّ الجميلِ ظلْماً وبغياً. فجاءَ إلى الحصانِ، وألقى عليه السَّلامَ وقال له: يا كريمَ الجيادِ، إنّي حكيمٌ ماهرٌ، عارِفٌ بأسرارِ الطِّبِّ، أعالِجُ وأصرِفُ الدَّواءَ مجاناً. فقال له الحصان: بي وجَعٌ في رجلي من أثرِ القَيْدِ. فقالَ الذِّئبُ: أَرِني يا أخي، لا بأسَ عليك، كأنَّ هذا الوجعَ بِكَبِدي، ثُمَّ أمْسَكَ رجْلَ الحصان وجعل يفكِّرُ كيف يفترسُه. فلما أيقنَ الحصانُ بالشَّرِّ، ضربَ الذِّئبَ برِجْلَيْهِ ضَرْبَةً جَدَعَتْ أَنْفَهُ، وفرقت بَيْنَ فَكَّيْهِ وتَرَكَتْهُ صريعَ بغيِه، قتيلَ مكرِه وخداعِه، لأنَّ مَنْ حَفَرَ بئراً لأخيه أوقعَهُ اللَّهُ فيه[٥١] ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

٦٩ ـ كسرى والكهل

اعمَلِ الخيرَ لأبنائِكَ كما عَمِلَتْهُ لك آباؤك

مرّ كسرى على رَجُلٍ كَهْلٍ، يغرِسُ شجراً يثمر بعد زمن طويل، فقال له: يا هذا، إنّك قد بَلَغْتَ من العمرِ نهايَتهُ فكيف تغرس شجراً لعلك لا تدرك ثمرَه؟ فقال له: يا بني، قد زرع لنا آباؤنا فأكلنا، ونحنُ نَزْرَعُ لأبنائِنا ليأكلوا من بعدنا. فَسُرَّ الملكُ من جوابِهِ وَأَمَرَ له بِصِلَة. فقال الشيخ: أيُّها الملك الجليل، قد أثمرتْ هذه الشَّجَرَةُ ثمراً طيّباً بما وصلتني به وانتفعت به في حياتي. فَوَصَلَهُ ثانية، فقال: إنّها شجرة مباركة أثمرت مرَّتين في وقت واحد. فَسُرَّ كسرى وقال: هَلُمُّوا بنا فقد ألقى علينا هذا

---

[٥١] ـ في معجم المذكّر والمؤنث ص٣٠ أنّ البئر مؤنثة وفي التنزيل: **﴿وبئرٍ معطّلةٍ وقصر مشيد﴾** [الحج: ٤٥].

الكهلُ درساً نافعاً، فالعاقلُ من يعمَلُ العمَلَ المفيدَ لأنّه في نفسه مفيد، ولو لم يَنْتَظِرْ منه فائدةً لنفسه في حياته الدنيا، فما عند اللّهِ خيرٌ وأبقى. وربّما استفادَ منه كما استفادَ ذلك الكهلُ العاقلُ العامِلُ المخلص.

٧٠ ـ مروان بن محمد وعبد الحميد الكاتب
أخوك حقيقةً من قدَّمك وآثرَك على نفسه

لمّا أيقنَ مروانُ بنُ محمد آخِرُ خلفاءِ بني أمية بانقضاءِ مُلكه وانتهاءِ حكمه لظهورِ آل العبّاسِ عليه، ومناهضتِهم إيّاه، قال لعبدِ الحميدِ وكان إمامَ الكاتبين: «لقدِ احتجت إلى أن تصيرَ مع عدوي، وتظهرَ الغدرَ، فإنّ إعجابَهم بأدبك، وحاجتَهم إلى كتابك يدعوانِ إلى حسن الظَّنِّ بك، فإنِ استَطَعْتَ أن تنفَعَني في حياتي، وإلّا لَمْ تعجِزْ عن حرماني من بعد مماتي». فقال عبدُ الحميد: «إنّ الذي أمرت به أنفعُ الأشياءِ لك وأقبحُها بي، وما عندي غيرُ الصَّبْرِ معك حتّى يفتحَ الله عليك أو أُقْتَلَ معك». ثمّ لزمه ولم يُفارِقْهُ. وهكذا يكون الوفاءُ وتكون الأصدقاء. «ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خَصَاصة»[٥٢].

٧١ ـ معاوية وعبد الله بن الزبير
يستفيدُ العاقِلُ باللُّطْفِ ما لا يستفيدُه الجاهلُ بالعنف

كانَ لمعاويةَ بنِ أبي سفيان عبيدٌ يعملون في أرضٍ له تجاورُ أرضاً لعبدِ الله بنِ الزبير. فدخلوا ذاتَ يومٍ أرضَ عبدِ الله، فكتب إلى معاوية:

أمّا بعد: «فيا معاويةُ إنّ عبيدَكَ دَخلوا أرضي، فانْهَهُمْ عن ذلِك وإلّا كان لي ولكَ شأن». فأخبرَ معاويةُ ابنَهُ يزيدَ فقال: إبْعَثْ إليه بجيش، أوّلُه عندَه وآخِرُه عندك، يأتوك برأسِهِ. فقال معاويةُ: غيرُ هذا أوفقُ. وكتب يمدح عبدَ الله ويعظِّمه ويخبرُه أنّه ضَمَّ الأرضَ بعبيدِها إليه. فكتب عبد الله: «قدْ وقفت على كتابِ أميرِ المؤمنين، أطال اللّهُ بقاءه، ولا أعدَمَه الرَّأْيَ الذي أحَلَّهُ من قريش هذا المحَلَّ، والسَّلام». فأخذ معاويةُ الكتابَ ودفعه إلى يزيدَ، فتهلّلَ وجهُه. فقال له: «يا بُنَيَّ، من عفا ساد، ومن حَلُمَ عَظُم، ومن تجاوز استمالَ إليه القلوب. فإذا ابتليتَ بشيءٍ من هذا فداوِه بهذا الدَّواء».

٧٢ ـ الهادي والخارجي
العاقِلُ يَعْتَمِدُ على حيلتِه والجاهلُ يُعَوِّلُ على قوَّتِه

ركبَ الهادي حمارَه، وسار في بستانٍ له، ولا سلاحَ معه، ومعَهُ بعضُ حاشيتِه.

---

[٥٢] ـ الخَصاصة: الفَقْرُ والحاجة وسوء الحال.

فجيء إليه بخارجيٍّ ذي بأسٍ وكَيْدٍ، بين اثنينِ قَدْ أمسكا بيديه، فلمّا اقتربا من الهادي أفلَتَ منهما، واختطَفَ سيفَ أحدِهما وقَصَدَ الهادي ففرَّ الحاضرون. وثبت الهادي مكانَه حتى دنا منه الخارجِيُّ وهمَّ أن يضرِبَه بالسَّيف، فأشارَ الهادي وراءَ الخارجي وقال: يا غلامُ اضربْ عُنُقَه، ولَمْ يَكُنْ هناك غلام. فنظرَ الخارجِيُّ خلفَه، فنزلَ الهادي مسرعاً وقبضَ على عنقِه وانتزعَ السَّيْفَ منه وقتلَه به، ثمَّ رَكِبَ حماره. فجعل الفارّون يرجعون وقد مُلِئوا رُعْباً وخوفاً، فَلَمْ يعاتِبْهُمْ. ثمّ التزم السَّيف وركوبَ الخيلِ حتى قضى نحبَه من الدُّنيا وفارَقها.

٧٣ ـ الرَّجلُ وابنُ عمِّه

أَحِبَّ لأخيك ما تحبُّ لنفسك

ذهب رَجُلٌ مِنْ جُنْدِ اليرموك(١) يبحث عنِ ابنِ عمٍّ له بين القتلى والجرحى، ومعه قدح مملوءٌ ماءً فعثرَ به فوجدَه في غايةِ ما يكون من التعب، فقال: هل لك أن تشرب؟ فَلَمْ يَسْتَطِعْ أنْ يُكَلِّمَه، فأشارَ إليه أن نَعَمْ، ولكنّه سمع رجُلاً يَئِنُّ بجوارِه، فأشار إلى الرَّجُلِ أن يسقِيَه أَوّلاً، فذهب إليه وقال له: هل لك أن تشرب؟ قال: نعم، ولكنّه سَمِعَ رجلاً يتأوَّه فقال للرَّجُلِ: أسرِعْ إليه وآتِني بما يبقى، فذَهَبَ إليه فرآه قد مات، فعادَ إلى الثاني فإذا هو ميّت، فذهب إلى ابنِ عمه فوجده قد لحق بِربِّه. فتلك هي المحبَّة، وهذه هي الصَّداقة، وبمثل هذه الخلالِ ترقى الأُمَمُ وتتقدَّمُ الدُّوَلُ.

٧٤ ـ النساء والجند

الحاجة تَفْتُقُ الحيلة ـ أو ـ الحاجَةُ أُمُّ الاختراع

خرج جيشُ المسلمين لقتالِ الرُّومِ الذين نَقَضوا العهود، ولم يَعْبَأوا بالمواثيق. فلمّا التقى الجمعانِ انحازَ نساءُ المسلمين إلى جانِبٍ، فرأينَ العَدُوَّ غالباً، فقالت إحداهُنَّ: إنَّ رجالَنا في نَحْرِ العَدُوِّ، ونحن خلوف وليس عندنا من يمنعنا. وقالت أخرى: إن الهزيمةَ باديةٌ على رجالِنا، فلو أننا سرنا إليهم كَمَدَدٍ، لَظَنَّ المشركون ذلك وانكسروا، وهي مكيدة. فوافَقْنَها على رأيها، فعقدَتْ لِواءً من خمارِها، واتخذتِ النساءُ راياتٍ من خُمُرِهِنّ، وَمَضَيْنَ وهي أمامَهُنَّ تقول: [الرّجز]

يا ناصرَ الإسلامِ صفًّا بعد صفّ   إن تُهْزَموا أو تُدْبِروا عنّا نَخَفْ(٢)

أو يغلبوكم يَغمُرُوا فينا القلف(٣)

---

(١) اليرموك واد بالشام وقعت فيه حربٌ بين المسلمين والروم في خلافة أبي بكر.

(٢) النخف: النفس العالي كناية عن شدة العذاب.

(٣) القلف: نهايات حدود السيوف.

وهنّ يردِّدْنَ هذا الصوتَ كأنهُنَّ رجال، فلمّا سمع العدوُّ ورأى، قال: هذا عُدَدٌ وَمَدَدٌ أتى المسلمين، فانهزم وانتصر المسلمون بهذه الحيلة: [الكامل]

الـرَّأيُ قـبـلَ شـجـاعـةِ الـشُّـجـعـان هــو أوّلٌ وَهْــيَ الـمَـحَـلُّ الـثـانــي

٧٥ ـ المعتصم والغلام

فَلْيُسْعِدِ النُّطْقُ إنْ لَمْ تُسْعِدِ الحالُ

ذَهَبَ المُعْتَصِمُ ليَعُودَ عاملاً من عمّالِه، وكانَ لهذا العامل ولدٌ ذكيُّ الفؤاد، سريعُ الخاطر، حاضرُ الجواب. فلمّا رآه المعتصم قال له: «داري أحْسَنُ أم دارُ أبيك؟» فقال الغلام: ما دامَ أميرُ المؤمنينَ في دارِ أبي فَهي أحسن. فَسُرَّ منه، ثم أراه خاتَمَه الذي بيده وقال له: «هل رأيتَ أحسنَ من هذا الخاتَمِ؟» قال: نعم يا أميرَ المؤمنين، اليد التي هو فيها. فسُرَّ المعتصمُ لذكاءِ الغلام، وسرعةِ خاطرِه، وانتزعَ الخاتَمَ من يَدِه، وكافأه به وأنشد قائلاً: [الكامل]

نِـعَـمُ الإلـهِ عـلـى الـعـبـادِ كـثـيـرةٌ وأَجَــلُّــهُــنَّ نــجــابــةُ الأوْلادِ

٧٦ ـ الإسكافُ والأعرابي

رَجَع بِخُفَّيْ حُنين

كان حنين إسكافاً، فأراد أعرابيٌّ شراءَ خُفَّيْنِ منه، فاختلفا وغضب حنين وأضمَرَ الشرَّ للأعرابي. فلما ارتحل الأعرابي ودخل الصحراء، ذهبَ حنينٌ مسرعاً مختفياً، ووضع أحَدَ خُفَّيْهِ في طريق الأعرابي، ووضع الآخَرَ بعيداً عن الأوّل، ثم كمن. فلمّا مرّ الأعرابيّ بالأوَّلِ قال: ما أشبَهَ هذا بِخُفِّ حنينٍ ولو كان معه الآخَرَ لأخذتُهما. ولمّا انتهى إلى الآخَرِ، نزل عن راحلته وأخذه وترك الراحلةَ وعادَ ليأتِيَ بالأوَّلِ، فخرج حنينٌ من مَكْمَنِه واستاق الراحلة بما عليها. فرجع الأعرابيّ بالخُفَّيْنِ ولم يجد الرّاحلة. فذهب إلى قومه فقالوا له: بماذا رَجَعْتَ إلينا؟ فقال: «رَجَعْتُ بِخُفَّيْ حنين» فذهب مثلاً يُضْرَبُ عندَ الرُّجوع بالحقيرِ، وتركِ العظيمِ الخطير.

٧٧ ـ عمرو بن العاص وأمير غزة

الحازِمُ مَنْ إذا وقع في مكروهٍ احتالَ للتخلّص منه

دخل عمرُو بنُ العاصِ غَزَّةَ فاتحاً ومعه أصحابُه. فبعث إليه أَميرُها أن أوفِدْ عليَّ رجلاً من أصحابِك لأحدِّثَه بما أرى. فذهب عمرو بنفسِه وحادثَه، فعَجِبَ منه وقال: هل في أصحاب عمرو مثلُك؟ فقال: إني هيِّن إذ بعثوا بي إليك، فأمر له بجائزة، وبعث إلى الحاجب سراً أن اضربْ عنقه. فلما مضى عمرو قابله صديق له نصراني وقال له: يا عمرو إنك قد أحسنت الدخول فأحسِنِ الخروج، ففطن عمرو ورجع إلى الأمير، فقال له: ما ردّك؟ قال: نظرتُ فيما أعطيتَني فوجَدْتُه لا يسع بني عمي،

فرأيت أن آتيك بِعَشْرَةٍ منهم، ليكون معروفُك أوسَعَ وفضلُكَ أعمّ. فطمِعَ الأميرُ في قتلِه وقتلِ عشرةٍ مِنْ أصحابِه، وقال له: عجّل بهم، وبعث إلى الحاجب: لا تقتل عمراً. فخرج عمرو وهو يقول: لا عُدْتُ لمثلِها، ونجا بِحُسْنِ حيلَتِه.

٧٨ ـ كسرى ومؤدِّبُه

حُسْنُ الإرشادِ سرُّ النجاح

كان لكسرى مُؤَدِّبٌ نال على يديه التَّقدُّمَ والرُّقيَّ، فضرب كسرى ذات يوم من غير ذنب، ليذوقَ ألمَ الظلم فلا يظلِم وهو ملك. فتألّم كسرى وبحث عن ذَنْبٍ فعله فلم يجد. فلمّا تولّى الملك أمرَ بإحضارِ مؤدِّبه فجاء، فقال له كسرى: في يوم كذا ضربتني ولا ذنبَ لي، فقال: أيّها الملك العادل، رأيت أنّك ستكونُ ملكاً ذا قولٍ نافذ، وحُكْم مسموع، فأَرَدْتُ أن أذيقَكَ ألم الظُّلْم وأنتَ صغير حتى لا تلجأَ إليه وأنتَ كبير، فَتعيش آمناً مطمئناً. فشكر له عملَه ورفَعَ منزلَته.

٧٩ ـ عُمَرُ بنُ عبد العزيزِ والغلامُ

المرءُ بأصغريه، قلبِهِ ولسانِه

دخل على عمرَ بنِ عبد العزيزِ في مبدإِ ولايتِه وفودُ المهنئين، فتقدَّم وفدُ الحجازِ بين يديه، فقامَ من بينهم غلامٌ لَمْ يتجاوزِ الحاديَةَ عَشرَةَ من عُمُره، وأراد أن يتكلَّم عن قومه، فقال له عُمَرُ: اجلس أنت وَلْيَقُمْ مَنْ هو أَسَنُّ منك، فقال الغلام: أَيَّدَكَ اللَّهُ يَا أميرَ المؤمنين، المرءُ بأصغريه، قلبِهِ ولسانِه، فإذا مَنَحَ اللَّهُ العبدَ لساناً لافظاً وقلباً حافظاً، فقد استحقَّ الكلام، ولو أنّ الأمرَ يا أميرَ المؤمنينَ بالسِّنِّ لكانَ في الأُمَّةِ مَنْ هو أحقُّ منك بمجلسِك هذا. فَسُرَّ عُمَرُ من حسنِ جوابه، وفصاحةِ لسانِه، وأكرَمَه، وسَمِعَ منه شكاةَ فئتِه، وقضى حوائجَهُم: [الرّجز]

والنـاس ألـف مـنـهـمـو كـواحـد ... وواحـد كـالألـف إن أمـر عـنـا

٨٠ ـ المأمونُ ومُؤَدِّبه

من علّمني حرفاً صرت له عبداً

يُرْوَى أنَّ مُؤدِّبَ المأمون حَضَرَ ذَاتَ يوم وانتظَرَ خروجَ المأمونِ حتى سَئِمَ الانتظارَ، فلمّا حضرَ المأمونُ ضربَه مؤدِّبُه فبكى فَإذا بوزيرٍ من وزراءِ أبيه استأذن عليه، فاستوى المأمونُ جالساً ومسح عينيه وأذِنَ له، فلمّا دخل قابله المأمونُ بالبشرِ والإيناسِ، ولم يُظْهِرْ له أيَّ كَدَرٍ حتّى انصرف، فلما ذهب الوزير قال المؤدِّب للمأمونِ: كنتُ أَظُنُّ أن تذكرَ له ما كان بيني وبينَك. فقال المأمون: إنّي لا أُحِبُّ أن أُطْلِعَ أحداً على احتياجي إلى الأدب، وواللّهِ ما يطمَعُ منّي والدي في مثل هذا، لأنّ من علّمني حرفاً صِرْتُ له عبداً. فَسُرَّ منه مؤدِّبُه وأحسنَ معاملته.

٨١ ـ الرَّشيد والخارجي
قُوَّة الحجَّةِ قد تكونُ من أسبابِ النجاة

ظفرَ الرَّشيدُ برجلٍ من الخارجين عليه، فقال له: ما تريدُ أن أصنعَ بك؟ قال: الذي تريدُ أن يصنَعَه بكَ الإلهُ إذا وَقَفْتَ بين يديه، ولا أجدُ أذلَّ مني بين يديك. فأطرق الرشيد ثم قال: اذهبْ حيث شِئْتَ، فأغراه جلساؤه به، وحذّروه منه. فأمر بردِّه، فلما حضر قال: يا إمامَ الأئمةِ لا تُطِعْهُمْ فيَّ، فلو أطاع اللّهُ فيك خَلْقَه ما استخلَفك عليهم. فعجب من قوله، وكمالِ فطنتِه، وخلّى سبيلَه لقوّة حُجَّتِه، وتمامِ ذكائِه، فخرج آمناً مطمئناً.

٨٢ ـ خالدُ بنُ برمك وقَحْطَبَةُ
استعداد للحرب سلم

مما ينبغي أن يَتَّصِفَ به صاحبُ الملكِ أن يكونَ بأعلى مكانةٍ من اليقظة، والاستدلالِ بقليلِ القولِ على كثيرِه، كما رُوِيَ عن خالدِ بنِ برمك، أنّه كان مع قحطبةَ في معسكَرِه جالسين في خيمة إذ نظرَ خالدٌ إلى سِرْبٍ من الظباء كادَ يخالطُ العسكر. فأشار على قحطبةَ بالركوبِ، فسأله عن السَّبب فقال: الأمرُ أعجلُ من أن أبيِّنَ سببَه، فركب وأركب العسكر، فلم يستتمّوا الرُّكوبَ إلّا والعدُوُّ قد دَهَمَهُم، وقد استعدّوا له بغيرِ بطء، فكانت النُّصْرَةُ لهم على العدو. فلمّا انقضى الحرب، سأل قحطبةُ خالداً: من أين أدرَكْتَ ذلك؟ فقال: رأيتُ الظِّباء وقد خالَطَتِ العسكر، فعرفْتُ أنّها لم تفعلْ ذلك مع نفورِها من الإنسِ إلَّا لأمرٍ عظيمٍ قد دهمَها من ورائها. فهكذا تكونُ اليقظة، ويكونُ الانتباه، والحذرُ أمانٌ من الخطر.

٨٣ ـ الملك ووزيره
كِتْمانُ السِّرِّ مِنْ خُلُقِ الحرّ

يروى أنّ ملكاً من ملوك العجم، استشارَ وزيرَيهِ معاً في مسائلَ سِرِّيَةٍ. فقال أحدهما: لا ينبغي للملك أن يستشيرَ منا أحداً في أسراره إلا خالياً، فإنّه أصونُ للسرِّ، وأحزمُ للرأي، وأجدرُ بالسلامة، وأعفى لبعضِنا من غائلةِ بعض، فإنَّ إفشاءَ السِّرِّ إلى رجلٍ واحد، أوثقُ من إفشائه إلى اثنين، وإفشاءَه إلى ثلاثةٍ كإفشائِه إلى جملة، لأنّ الواحدَ رهنٌ بما أفشي إليه، والثاني مُطْلَقٌ عليه ذلك الرَّهْنُ، والثالث زائد. وإذا كان السر عند واحد، كان أحرى ألّا يظهرَه رغبةً أو رهبةً. وإن كان عند اثنينِ كان على شبهةٍ واتَّسَعَتْ على الرَّجُلينِ المعاريض[1]، فإن عاقبهما عاقب اثنين بذنب واحد، وإن

(١) المعاريض من الكلام: ما يقال فراراً من الحقيقة ويظن السامع أنه حقيقة.

اتّهمهما اتّهم بريئاً بجنايةِ مجرم، وإن عفا عنهما كان العفوُ عن أحدهما ولا ذنبَ له، وعن الآخرِ ولا حجّة معه.

٨٤ ـ المرأة وهارون الرشيد
اللّبيب تكفيه الإشارة

دخلتِ امرأةٌ على هارون الرشيد، وهو بين فئة من أصحابه فقالت: يا أميرَ المؤمنينَ أقرَّ اللَّهُ عينَك، وفرّحك بما أعطاك، لقد حَكَمْتَ فَقَسَطْتَ. فقال: من تكونين؟ فقالت: من آلِ بَرْمَكَ ممن قتلتَ رجالَهم، وأخذتَ أموالَهم. فقال: أمّا الرجالُ فقد مضى فيهم قدَرُ اللَّهِ، وأمّا المالُ فمردودٌ إليكِ. ثم توجه إلى أصحابه وقال: أتدرون ما قالت هذه المرأة؟ فقالوا: ما نراها قالت إلّا خيراً. قال: ما فهمتم غَرَضَها، أمّا قولها: أقرّ الله عينَك ـ تريد أسكنها عن الحركة ـ وإذا سكنت عَمِيَتْ، وأمّا قولُها: وفَرَّحك بما أعطاك، تشيرُ به إلى قوله تعالى: ﴿إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا﴾ [الأنعام: ٤٤]، وأما قولُها: حكمت فقسطت، تشير به إلى قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ(١) فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجنّ: ١٥]. فَسُرَّ الحاضرون من عبقريةِ الرَّشيد وسرعةِ خاطره.

٨٥ ـ كافور الإخشيد وصاحبُه
المرءُ حيثُ يجعلُ نفسَه

كان كافورُ وصاحبُه عبدين أسودين. فجيء بهما إلى قطائع ابنِ طولونَ، حاضرةِ الدِّيارِ المصريّة وقتَئِذٍ، ليُباعا في أسواقِها فتمنّى صاحبه أن يباعَ لطبَّاخ حتّى يملأَ بطنه بما شاء، وتمنّى كافور أن يملك هذه المدينةَ ليحكم وينهى ويأمر، وقد بلغ كلٌّ مُناه، فبيع صاحبُ كافورٍ لطبَّاخ، وبيعَ كافورُ لأحدِ قوّادِ المصريين، فأظهر كفاءة واقتداراً. ولما مات مولاه، قام مقامه واشتهر بذكائه، وكمالِ فطنته حتى صارَ رأسَ القوّاد، صاحبَ الكلمةِ عند الولاة، وما زال يجدُّ ويجتهدُ حتّى ملك مصرَ والشَّامَ والحرمين، ومرّ يوماً بصاحبه فرآه عند الطبَّاخ بحالة سيّئةٍ، فقال لمن معه: «لقد قَعَدَتْ بهذا هِمَّتُه فكان كما تَرَوْن، وطارت بي هِمّتي فكنت كما ترون، ولو جمعتني وإيّاه هِمَّةٌ واحدة، لجَمَعَنا عمل واحد» ولِلَّهِ درُّ عمرو بن العاص حيثُ يقولُ: «المرءُ حيثُ يجعلُ نفسَه، فإنْ رفعَها ارتفعَتْ، وإنْ وَضَعَها اتَّضَعَتْ».

٨٦ ـ المهلَّبُ بنُ أبي صُفْرَة وآخَرُ
عِلْمٌ بلا عمل، كشجرةٍ بلا ثمر

قال رجل للمهلَّبِ بنِ أبي صفرةَ: يا أبا المهلَّبِ، بِمَ أدركْتَ ما أدركْتَ؟ فقال

(١) القاسطون: الجائرون.

المهلّب: إنّما أدركت ما أدركت بالعلم. قال الرجل: ولكنّ غيرَك قد علم أكثرَ ممّا عَلِمْتَ ولم يدرِكْ ما أدرَكْتَ. فقال المهلّب: ذلكَ عِلْمٌ حُمِلَ، وهذا علم استُعْمِل، وقد قالت الحكماءُ: العلم قائدٌ، والعقلُ سائقٌ، والنفس ذَوْدٌ. فإن كان قائدٌ بلا سائقٍ هَلَكَتْ، وإن كان سائقٌ بلا قائدٍ، أخذت يميناً وشمالاً، وإذا اجتمعا أنابت طوعاً أو كرهاً.

٨٧ ـ أبو العلاءِ المعري وغلامٌ عربيٌّ
ليسَ في الإمكانِ أبدعُ ممّا كان

لقيَ غلامٌ من العربِ أبا العلاء المعري الشاعرَ المشهور، فقال له: من أنتَ يا شيخُ؟ قال: أنا أبو العلاء المعري شاعرُكُم المعروفُ، فقال الغلامُ: أهلاً بالشاعرِ الفحلِ، أنتَ القائلُ في شعرك: [الطويل]

وإنّي وإنْ كنتُ الأخيرَ زمانُه لآتٍ بما لم تَسْتَطِعْهُ الأوائل

قال أبو العلاء: أنا الذي قلت هذا، ولماذا؟ فقال الغلام: قَوْلٌ طيّب، وثقة بالنفس، وإعلام بالكفاءة والقدرة، ولكنّ الأوائل قد وضعوا ثمانيةً وعشرينَ حرفاً للهجاء، فهل لك أن تزيدَ عليها حرفاً واحداً؟ فسكت أبو العلاءِ، وقال: واللّهِ ما عهدْتُ لي سكوتاً كهذا السّكوت.

٨٨ ـ الجاحظ وسعيدُ بنُ عبدِ العزيزِ وغيرُهما
لا يُحْمَدُ الصَّمْتُ في كلِّ المواطن

قال أبو تمام: تناقشنا في مجلسِ سعيدِ بنِ عبدِ العزيز، في فضيلةِ الكلامِ، وفضيلةِ الصَّمت وأيّهما أرفعُ شأناً، وأعزّ مكاناً، فقال واحد في المجلس: إنَّ الصَّمْتَ زين الرَّجُل، وفضيلةٌ من الفضائل المطلوبة له، والمكمّلة لأدبه، وكثرةُ الكلامِ دليلُ الطَّيْشِ وعلامةٌ على ضعف الرأي، فأجاب سعيدُ بنُ عبدِ العزيز: يا هذا، إنّك تمدحُ السكوتَ بالكلام، ولا يُمْدَحُ الكلامُ بالسُّكوتِ، ومن أنبأ عن شيءٍ فهو أكبر منه.

فقام الجاحظ وقال: كيف تقولونَ إنَّ الصَّمْتَ أنفع من الكلام؟ ونفعُ الصَّمت لا يتجاوز صاحبَه، ونفعُ الكلام يَعُمُّ ويخُصُّ والرواة لم تروِ سكوتَ الصّامتين كما رَوَتْ كلامَ النّاظمين والناثرين فبالكلام أرسلَ اللّهُ تعالى أنبياءَه، وليسَ بالصَّمْتِ أرسلهم، ومواضِعُ الصَّمْتِ المحمودةُ قليلَةٌ، ومواطنُ الكلامِ المحمودةُ كثيرةٌ وبطولِ الصَّمت يفسدُ البيان، ومحادثَةُ الرِّجالِ تلقيح لألبابها.

٨٩ ـ عبدُ الملكِ بنُ مروانَ وأعرابيّ
أحمَدُ اللّهَ تعالى على ما أنت فيه

جاءَ أعرابي إلى عبدِ الملك بنِ مروان. فقال له عبدُ الملك تكلّمْ بحاجَتِك يا

أعرابي. قال الأعرابيّ: يا أميرَ المؤمنينَ، جلالُ الدَّرجة وهيبَةُ الخلافَةِ يمنعانِني من ذلك. فقال عبد الملك: على رِسْلِك[٥٣] يا أعرابي، فإنّا لا نحبّ مدحَ المشاهدة، ولا تزكيةَ اللقاء. قال الأعرابي: أنا لستُ أمدَحُك يا أميرَ المؤمنينَ ولا أزكّيك، ولكنّني أحمَدُ اللّهَ تعالى على النِّعمَةِ فيك.

٩٠ ـ أَبو نواس وهارون الرشيد

الشعراء يقولون ما لا يفعلون

غضب يوماً هارون الرشيد على أبي نواس فطلب إحضاره إلى ديوانه وأمر بقتله. فلمّا حضرَ ورأى الديوانَ مكتظًّا بالعلماءِ والأعيانِ وسمع بحكم الرَّشيدِ عليه بالقتل، قال: يا أميرَ المؤمنين شهوَةٌ لقتلي؟ قال: لا، بل باستحقاقٍ، فقال أبو نواس: إنّ اللّهَ يحاسبُ ثم يعفو، أو يعاقبُ، فيمَ استحقَقْتُ القتلَ؟ قال بقولك: [الطويل]

ألا فَاسْقِني خمراً وقلْ لي هيَ الخَمْرُ ولا تسقِني سرًّا إذا أمكنَ الجَهْرُ

قال: يا أميرَ المؤمنين، أَعَلِمْتَ أنه سقاني؟ قال: أظنّ ذلك. قال: أتقتُلُني بالظَّنِّ، وبعضُ الظَّنِّ إثْمٌ؟ فقال: قلت أيضاً ما تستحقّ به القتلَ، وهو قولُك في التَّعطيل[٥٤]: [الكامل]

ما جاءنا أحَدٌ يخبِّرُ أنّه في جَنَّةٍ مُذْ ماتَ أو في نارِ

قال: أفجاءَنا أحَدٌ؟ قال: لا. قال: فتقتُلُني على الصِّدق؟! قال: أو لست القائل: [البسيط]

يا أحمدُ المرتجى في كلِّ نائبة قُمْ سيِّدي نَنْعَصْ جُبَارَ السَّمٰواتِ[٥٥]

قال: يا أميرَ المؤمنينَ أَوَ صارَ القولُ فعلاً؟ قال: لا أعلم. قال: أتقتُلُني على ما لا تَعْلَمُ؟ قال: دع هذا كلَّه فقد اعترفْتَ في مواضِعَ كثيرةٍ مِنْ شعرِكَ بما يوجب القتلَ، وذلك كالزِّنا والفجور.

فقال أبو نواس: قد علم اللّهُ هذا من قبل علم أميرِ المؤمنين، وأخبر أنّي أقولُ ما لا أفعل. قال اللّهُ تعالىَ: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤ ـ ٢٢٦].

فقال الرشيد: دعوه يذهبْ وشأنَه، قطعَ اللّهُ لسانَه.

---

[٥٣] ـ على رِسْلِك: اتّئدْ ولا تعجَلْ.

[٥٤] ـ التّعطيل: تعطيل الحدود في الشريعة: ألاّ تُقام على من وجبت عليه.

[٥٥] ـ نَعَص الشيء: حرّكه، والنَّعَص: التمايل.

٩١ ـ مطيعُ بنُ إياس ومعنُ بنُ زائدة
الدراهم كالمراهم

مدح مطيعُ بنُ إياسٍ معنَ بنَ زائدةَ بقصيدته التي منها: [المنسرح]

أهــلاً وســهــلاً ســيِّــدَ الــعــربِ ... ذا الـغُـررِ الـواضـحـاتِ والـنُّـجُـبِ
فـتـى الــنــزارِ وكــهــلَــهــا وأخــي ... الـجـود حـوى غـايـتـه مِـنْ كَـثَـبِ

فلما فرغ قال له معن: إن شئْتَ مدحناكَ كما مدَحْتَنَا، وإن شئْتَ أثَبْنَاك. فاستحى مطيعٌ من اختيارِ الثَّواب على المديح، وكرِهَ اختيارَ المديحِ وهو محتاجٌ إلى الثَّواب، فأنشد يقول: [الوافر]

ثــنــاءٌ مــن أمــيــر خــيــرُ كَــسْــبِ ... لـصـاحِـبِ مَـغْـنَـم وأخـي ثـراءِ
ولــكــنَّ الــزَّمــانَ بــرى عــظــامــي ... ومــا مِــثْــلُ الــدَّراهِــم مِــنْ دواءِ

فضحك معن وقال له: لقد صَدَقْتَ، فلعمري ما مثلُ الدراهم من دواء، وأنشد: [الكامل]

إنَّ الـدراهِـمَ فـي الـمـواطِـنِ كـلِّـهـا ... تـكـسـو الـرِّجـالَ مـهـابَـةً وكـمـالا
فـهـيَ الـلِّـسـانُ لـمـن أرادَ فـصـاحَـةً ... وهــيَ الـسِّــلاحُ لـمـن أرادَ قـتـالا

ثُمَّ أمَرَ بجائزة حسنة مكافأةً له.

٩٢ ـ الحَسَنُ بنُ سَهْلٍ وأعرابيٌ
لا خيرَ في السَّرف، كما لا سَرَفَ في الخير

كان الحسنُ بنُ سَهْلٍ جَمَّ السَّخاء، كثيرَ العطاء، فكتب إليه أعرابِيٌّ يقول: ما هكذا واللَّهِ يا حَسَنُ سبيلُ الإحسان، أما علمت أن لا خيرَ في السَّرَف؟ فأجابه الحسنُ ابنُ سهلٍ قائلاً: لقد علمت أنا أنْ لا خيرَ في السَّرَف، فهل علمت أنت أيضاً أن لا سَرَفَ في الخير؟

٩٣ ـ الثقيل والظريف
زُرْ غِبًّا تزدد حبًّا[٥٦]

تردَّدَ ثقيل على ظريف وأطال تردادَه عليه حتّى سئم منه، فقال له الثقيل: من تراه أشعرُ الشعراء؟ فأجابه الظريف: هو ابن الوردي بقوله: [الرّمل]

غِـبْ وزُرْ غِـبـاً تَـزِدْ حـبًّـا فـمـن ... أكــثــرَ الــتَّــرْدادَ أضــنــاهُ الــمــلــل

فقال الثّقيل: أخطأْتَ فإن النجاري أشْعرُ منه بقوله: [الوافر]

إذا حَــقَّــقْــتَ مــن خِــلٍّ وداداً ... فَــزُرْه ولا تَــخَــفْ مــنــه مَــلالا

[٥٦] ـ راجع قصة هذا المثل في مجمع الأمثال ٢/ ٨٥ وما بعدها.

وكُنْ كالشَّمْسِ تطلعُ كلَّ يومٍ ولا تَكُ في زيارَتِهِ هِلالا

فأجاب الظريف: إنّ الحريري أشعرُ منه بقوله: [الخفيف]

لا تَزُرْ مَنْ تُحِبُّ في كلِّ شهر غيرَ يومٍ ولا تزدهُ عليه

وإن لم تصدقني فقد وهبتك الدار بما فيها، وخرج وهو يقول: [الوافر]

إذا حَلَّ الثَّقيلُ بأرضِ قَوْمٍ فما للسّاكنينَ سوى الرّحيلِ

فخجل الثَّقيل وذهب في سبيله.

٩٤ ـ الشاعر والمأمون

الشَّعْرُ بالشِّعْرِ حرام

أتى شاعرٌ المأمونَ فقال: [السريع]

حيَّاكَ ربُّ النَّاسِ حيّاكا إذ بجمالِ الوَجْهِ رقّاكا
بغدادُ من نورِكَ قد أشرَقَتْ وَأَوْرَقَ العودُ بِجَدْواكا

فأطرق المأمون وقال: [السّريع]

حيّاكَ رَبُّ النّاسِ حيَّاكا إنّ الذي أَمَّلْتَ أخطاكا
أَتَيْتَ شخصاً قد خلا كيسُه ولو حَوى شيئاً لأعطاكا

فقال الشاعر: يا أميرَ المؤمنين، الشَّعْرُ بالشِّعرِ حرام، فاجعَلْ بينهما شيئاً يُسْتَطاب. فضحكَ المأمونُ وأمَرَ له بجائزةٍ جزيلة.

٩٥ ـ أعرابية وأخرى

الهوى خطرات محدثات

عاتبت أعرابية من المدينةِ أعرابيَّةً مثلَها على هوى لها فقالت لها: أما علمتِ يا أختاه أنّه قيل في الحكمة الغابرة والأمثال السائرة «لا تلومَنَّ من أساءَ بكَ الظن، إذا جعلت نفسَك هدفاً للتُّهْمة، ومن لم يكن عوناً على نفسه مع خصمه لم يكن معه شيءٌ من عقدةِ الرأي، ومَنْ أقدَمَ على هوى يعلمُ ما فيه من سوء المغبّة، سلّط على نفسه لسانَ العَذْلِ وضيَّع الحَزْمَ»، فأجابتِ الأعرابِيَّةُ المعذولَةُ: أو مَا عَلِمْتَ أنت أيضاً أنّ الهوى ليس أمرُه إلى الرأي فيملكه، ولا إلى العقل فيدبّره. وهو أغلبُ قدرةً، وأمنعُ جانباً من أن ينفذَ فيه رأيُ الحازم. وهلّا سمعت قولَ الشاعر: [الخفيف]

ليسَ خطبُ الهوى بِخَطْبٍ يسيرٍ لَا يُنَبِّيكَ عنه مثلُ خبيرِ
ليسَ أمرُ الهوى يُدَبَّرُ بالرَّأ ي ولا بالقياسِ والتفكيرِ
إنّما الأمرُ في الهوى خَطَراتٌ محدثاتُ الأمورِ بعدَ الأُمورِ

فقالت: صدقت أنت وكذبت أنا.

٩٦ ـ أعرابي وسائل
لا تكن لحوحاً[٥٧]

قال سائل لأعرابي: يا أعرابي، أعطني حاجةً لوجهِ الله تعالى. فقال الأعرابي: واللَّهِ ليس عندي ما أتفضَّلُ به على الناس، والذي عندي أنا أولى الناس به. قال السائل: أينَ الذين يُؤْثِرونَ النَّاسَ على أنفسِهم ولو كان بهم خَصَاصة؟ فقال الأعرابي: ذهبوا مع الذين لا يسألون الناس إلحافاً.

٩٧ ـ عُبَيْدُ الله بنُ سليمانَ وأبو العيناء
الطبعُ يغلبُ التَّطَبُّع

دخل أبو العيناء الشاعرُ على الوزيرِ عبيدِ اللَّهِ بنِ سليمانَ فشكا إليه حالَه. فقال عبيدُ الله: أما كتبنا لك إلى إبراهيم بن المدبر؟ فقال أبو العيناء: نعم، كتبتَ إلى رجلٍ مِنْ هِمَّتِه طولُ الفقر، وذلُ الأسْرِ، ومعاناةُ محنِ الدَّهر، فأخفَقْتَهُ في طلبتي.

فأجابه عبيد الله: إنَّما أنت الذي اخترته لنفسك. فقال أبو العيناء: وما علي ـ أعَزَّ اللَّهُ الوزيرَ ـ في ذلك فقد اختار موسى مِنْ قومِه سبعين رجلاً، فما كان منهم رجلٌ رشيدٌ، واختار المصطفى ﷺ ابن أبي السرح كاتباً فرجع إلى المشركين مرتَدًّا، واختار علي بن أبي طالب أبا موسى حاكماً له فحكم عليه.

٩٨ ـ الخليفةُ المتوَكِّلُ وأبو العيناء
الجزاءُ مِنْ جِنْسِ العمل

قال الصّولي: دخل أبو العيناءِ على الخليفةِ المتوكِّل، فدعا له وكلّمه فاستحسن الخليفة كلامه وقال: يا أبا العيناءِ بلغني أنّ فيك شَرًّا. فأجاب أبو العيناء: إنْ يَكُنِ الشَّرُّ عبارةً عن ذِكْرِ المحسنِ بإحسانه، والمسيءِ بإساءَته، فقد مدح الله وذم. فقال في المدح: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤] وقال في الذَّمِّ: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ [القلم: ١١، ١٢] وقال الشاعر: [الطويل]

إذا أنا لَمْ أمْدَحْ على الخيرِ أهلَه ... ولم أذْمُمِ الرَّجُلَ اللئيمَ المذمَّما
ففيمَ عرفتُ الخيرَ والشَّرَّ باسمِه ... وشَقّ ليَ اللَّهُ المسامِعَ والفما؟

وإن كان الشَّرُّ كفِعْلِ العقرب التي تلدغ الرفيع والوضيع بطبعٍ لا يتميّز، فقد صان الله عبدَك من ذلك.

٩٩ ـ الطفيلي والشعراء

نظر طُفَيلي إلى قومٍ ذاهبين، فلَمْ يَشُكَّ في أنّهم مدعوّون إلى وليمة. فقام وتَبِعَهُم،

---

[٥٧] ـ اللّحوح: الكثير السُّؤال المديمه

فإذا هم شعراءُ قد قصدوا السلطانَ بمدائِحَ لهم، فلمّا أنشد كلُّ امرئ منهم شعرَه، أخذ جائزَتَه، فلم يبقَ إلّا الطُّفَيْليُّ وهو جالسٌ ساكت. فقال السلطان: أنشِدْ شعركَ! فقال الطفيلي: لستُ بشاعِرٍ وإنّما أنا من الغاوين الذين قال الله تعالى في حقهم: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤] فضحك السُّلطان وأمَرَ له بجائزةٍ كجائزةِ الشعراء.

١٠٠ ـ النَّابغة والنُّعمانُ وكعبُ بنُ زهير
رُبَّ كلمةٍ جَلَبَتْ نِعْمَةً، وكلمةٍ جرَّتْ نقمة

دخل النابغةُ على النعمانِ بنِ المنذر فقال: [الوافر]

تَـخِـفُّ الأرضُ إن تَـفْـقِـدْكَ يـومـاً وتـبـقـى مـا بـقـيـتَ بـهـا ثـقـيـلا

فنظر إليه النُّعانُ نظرَ الغضبانِ وكان كعبُ بنُ زهيرٍ حاضراً فقال: أصلحَ الله الملك، إنّ مع هذا البيتِ بيتاً ضَلَّ عنه، هو: [الوافر]

لأنّـك مـوضـعُ الـقـسـطـاسِ مـنـهـا فـتـمـنَـعُ جـانِـبَـيْـهـا أن تـمـيـلا

فضحك النعمان وأمر له بجائزتين.

١٠١ ـ الحريري وطالب الأدب
تسمع بالمعيدي خير من أن تراه

كان الحريري قذراً في نفسه، رديئاً في شكلِه، رثَّ الهيئة، فجاءه يوماً رجلٌ غريبٌ، لكي يأخذَ عنه شيئاً. فلمّا رآه على تلكَ الحالةِ السيِّئة، ازدراه في نفسه. ففهم الحريري منه ذلك، ولمّا حان وقتُ أخذِ الدَّرْسِ أملى الحريري عليه قوله: [البسيط]

مـا أَنْـتَ أوَّلَ سـارٍ غـرَّهُ قَـمَـرٌ ورائـدٍ أعـجَـبَـتْـهُ خُـضْـرَةُ الـدِّمَـنِ
فاختر لنفسِك غيري إنّني رجل مثلُ المعيديِّ فاسمَعْ بي ولا تَرَني

فخجِلَ الرَّجُل وانصرف عنه.

١٠٢ ـ الخليل بنُ أحمدَ وابنُه

كان الخليلُ بنُ أحمدَ يُقَطِّعُ في علم العروض، فدخل عليه ولدُه في تلك الحالة التي لم يَسْبِقْ له بها مثيل، فخرج إلى الناس وقال: إنّ أبي جنٌّ، فدخل النَّاسُ عليه وهو يقطِّع العروض الذي اخترعه من بناتِ فكرِه وأخبروه بما قالَ ابنُه، فقال له: [الكامل]

لـو كُـنْـتَ تـعـلَـمُ ما أقولُ عَـذَرْتَـنـي أو كُـنْـتَ تـعـلـمُ مـا تـقـولُ عـذلـتـكـا
لـكـنْ جـهـلـت مـقـالـتي فـعَـذَلْـتَـنـي وعـلـمـتُ أنّـك جـاهـلٌ فَـعَـذَرْتُـكـا

١٠٣ ـ داودُ بنُ المهلَّبِ وأحدُ الأعراب
ليس في مال الأمير ما يفي بقدره

قام أعرابي بين يدي داودَ بنِ المهلَّب وقال: إنيّ مدحتك يا أميرَ المؤمنينَ

فاستَمِعْ. فقال له داود: على رِسْلِك. ثُمَّ دخَلَ بيته فتقلَّدَ سيفَه وخرج وقال له: قلِ الآن، فإن أحْسَنْتَ جازَيْناكَ وإن أسأتَ قتلناكَ. فأنشد الأعرابي: [الطويل]

أَمِنْتُ بداودٍ وجود يمينِه ... مِنَ الحدث المخشِيِّ والبؤسِ والفَقْرِ
وأصبحت لا أخشى بداودَ كَبْوَةً ... من الدهر لمّا أنْ شَدَدْتُ به أزري
له حكمُ داودٍ وصورةُ يوسفٍ ... وملكُ سليمانٍ وعَدْلُ أبي بَكْرِ

فقال له داودُ: قد كافأناك فإن شئت على قدرِنا، وإن شئت على قَدْرِك؟ قال الأعرابي: بل على قدري يا أميرَ المؤمنين. فأمر له بخمسين ديناراً، فأنكر عليه ذلك أحدُ الحاضرين، وقال له: يا أعرابي، أتحتَكِمُ على قَدْرِ نفسِك، ولا تحتكم على قَدْرِ الأمير، وفيه كَسْبٌ لك؟! قال الأعرابي: نعم أحتكِمُ على قدْري، لأنّه ليس في مالِ الأميرِ ما يفي بقَدْرِه.

١٠٤ ـ ملكٌ وغلامٌ عربي
لا تَمْدَحَنَّ امرأً حتى تجرِّبَه

مرَّ أحدُ الملوك بغلام عربي يسوق حيواناً بعنف وشدَّة، والحيوان بطيء الحركة قليل الهِمّة. فقال الملك: يا غلام، ارفق بهذا الحيوانِ، فقال الغلام: يا أيها الملك، في الرفق به مَضَرَّةٌ له. قال الملك: وكيف ذلك! وإنّي لا أرى مَضَرَّةً غيرَ الذي هو فيه الآن؟ قال الغلام: ذلك أنّه إذا أبطأ يطولُ طريقُه، ويشتدُّ جوعه، ففي العُنْفِ به إحسانٌ إليه. فقال الملك: وما الإحسان إليه؟ قال الغلام: يخفّ حِمْلُه، ويطولُ أكله. فأعجب الملك بجوابِه وكافأَه، فقال: هو رزقٌ مقدور، وواهِبٌ مأجور. قال الملك: لقد أَمَرْتُ بإثباتِ اسمِك في بطانتي. قال الغلام: كُفيتُ مؤونَةً، ورُزِقْتُ بها معونة. قال الملك: ولولا حداثةُ سِنِّك لاستَوْزَرْتُك. قال الغلام: لن يعدمَ الفضلَ مَنْ رُزِقَ العقلَ. قال له الملك: وهل تصلُحُ لذلك يا غلام؟ قال الغلام: إنَّما يكون المَدْحُ والذَّمُّ بعدَ التجربَةِ، ولا يَعْرِفُ الإنسانُ نفسَه حتَّى يَبْلُوَها.

١٠٥ ـ أعرابيّةٌ وأخرى
لذَّةُ الهوى في التَّنَقُّل

تزوّج أعرابي امرأةً على امرأته، فجاءت الثانية على باب الأخرى وقالت: [الطّويل]

وما يستوي الرِّجْلانِ رجلٌ صحيحةٌ ... ورجلٌ رمى فيها الزَّمانُ فشُلَّتِ

ثم عادت بعد أيام وقالت: [الطّويل]

وما يستوي الثَّوْبانِ ثوبٌ بِهِ البلى ... وثوبٌ بأيدي الباتِعينَ جديدُ[٥٨]

[٥٨] ـ بَتِعَ عليّ فلان بأمر لم يؤامرني فيه: إذا قطعه دونك. والباتعون: القاطعون.

فعند ذلك خَرَجَتِ الزَّوْجُ القديمة وقالت: [الكامل]

نَقِّلْ فؤادَكَ حيثُ شِئْتَ من الهوى ... ما القلبُ إلّا للحبيبِ الأَوَّلِ
كم منزلٍ في الأرض يألفُه الفتى ... وحنينُه أبداً لأوّلِ منزلِ

١٠٦ ـ هشامُ بنُ عبدِ الملك وأعرابيٌّ
وأمّا بنعمةِ ربِّكَ فَحَدِّثْ

مدحَ أعرابيٌّ هشامَ بنَ عبدِ الملك فقال له هشام: يا هذا، إنّ مدحَ الرجلِ في وجهه غيرُ مرغوبٍ فيه، ومنهيٌّ عنه، فلا تمدحِ النَّاسَ في وجوههم. فقال الأعرابي: واللَّهِ يا هشامُ إنّي لست أمدحُك ولكنّني أذكّرُك بنعمِ المولى تبارَكَ وتعالى عليك، حتى لا تنساها فتجدِّد لها شكراً.

١٠٧ ـ ثلاثة يناظرون عالماً من العلماء
كلُّ ما خطرَ ببالك فهالك، واللَّهُ بخلافِ ذلك

كان أحدُ العلماء عاكِفاً في بستان له، لا يخالِط أحداً من النَّاس، فسمع به ثلاثةٌ من الذين يسخرون من أمثالِه، فقال قائل منهم: هلمُّوا بنا لنناظِرَه. فلمّا ذهبوا وأجمعوا أن يسألوه، أشار إليهم أن ادنوا وتكلّموا، فتقدم الأول، وقال: أنتم تقولون: اللَّهُ موجود، وبناءً عليه أطلب أن أرى الله. فأشار إليه نَعَمْ، وتقدّم الثاني، وقال له: أنتم تقولون: العذابُ يومَ القيامةِ بالنّار، والجِنُّ خُلِقَتْ مِنَ النَّارِ فكيفَ تُعَذَّبُ النارُ بالنَّارِ؟! ثُمَّ تقدّم الثالث وقال له: أنتم تقولون: كلّ شيء بالقضاء والقدر، فإنْ كان كما تقولون، فالإنسان غيرُ مؤاخَذٍ على أعمالِه، وأنا أرى أنَّ المرءَ يخلق أعماله. فما كان من هذا العالِم المسؤولِ إلّا أنْ أَخَذَ حَفْنَةً من التُّراب وَذَرَّها في وجوهِهِم وقال لهم: هذا جوابي لكم على ما سألتموني. فأجمعوا أمرَهم لا بُدَّ من سياقه إلى المحاكمة، ومَشَوْا به إلى الحاكِم فسأله الحاكِمُ: أصحيحٌ ما يقولون، من رميكَ التّرابَ في وجوههم؟ قال: نعم. قال له: وَلِمَ؟ قال: لأنَّ الأوّلَ سألني أن أريَهُ ربَّه، حيثُ إنّه موجود. فقُلْ له: يريني الألمَ الذي تألمَّ به من حفنة التراب، وأنا أريه ما يريد. فسأله الحاكم: يمكنُكَ أن تُرِيَه الألم؟ قال: لا. قال العالم: قلْ إذاً، ليسَ كُلُّ موجود يُرى.

وأمّا الثاني، فسألني عن كيفيَّةِ عذابِ الجِنِّ بالنار يوم القيامة، واستبعد إيلامَ الشيءِ بمادَّتِه، فقل له: لِمَ هو تألَّم من التّراب وهو مخلوق منه؟

وأمّا الثالث فسألني عن معنى القضاء والقدرِ، وقال لي: لا بُدَّ أن أُسَلِّمَ له بأنّ المرءَ مجبورٌ على أعماله، ونسي ما للإنسانِ منَ الاختيارِ الكَسْبِيّ، فإذا كنتُ أنا لا اختيار لي فيما فعلت به مِنْ ذَرِّ الترابِ، فَلِمَ ساقني إلى المحاكمة؟

فنطق الحاكمُ وقال لهم: لا تروموا أن تحيطوا باللّهِ خِبْرَةً، فإنّه أعظمُ من أن تدرِكَهُ فِطَنُ المخلوقاتِ إلّا مِنْ آثاره.

١٠٨ ـ المنصورُ وابنُ إدريس
الحياءُ من الإيمان

رُوِيَ أنّ ابنَ إدريسِ كان ليلة بين يدي المنصور، وكان القمرُ يبدو تارة ويخفيه السَّحابُ مرَّةً أخرى، فاقترحَ المنصورُ على ابنِ إدريسَ أنْ يقولَ في ذلك شيئاً، فقال: [الوافر]

أرى بَدْرَ السَّماءِ يلوحُ حيناً ... فيبدو ثُمَّ يلتَحِفُ السَّحابا
وذلك أنّه لمّا تَبَدَّى ... وأبصرَ وجهَك استحيا فغابا

١٠٩ ـ الجاحظ ومحمد بن عبد الملك
الكريم إذا نال أقال، واللئيم إذا نال استطال

كانَ الجاحظ كثيرَ الميلِ، عظيمَ الرَّغبة إلى محمد بن عبد الملك دون (أبي دؤاد)، فلمّا نكب محمد بن عبد الملك، جاؤوا بالجاحظ بين يَدَيْ أبي دؤاد مكبَّلاً بالأصفاد. فقال له: «والله لا أعرفك إلّا متناسياً للنعمة، كفوراً للصنيعة، معدِّداً للمساوئ، وما فَتِئْتُ أستصلحُ لك، ولكنَّ الأيامَ لا تُصْلِحُ منك، لفسادِ طويَّتِك، ورداءةِ دخيلتِك، وسوءِ اختيارك، وتغلّبِ طباعك».

فأجاب الجاحظ بثبات وَتُؤَدَةٍ: خفِّضْ عنك، أصلحك الله، فواللّهِ لأَنْ يكون لك الأمرُ عَلَيَّ، خيرٌ من أنْ يكونَ لي عليك، ولأَنْ أسيءَ وتُحْسِنَ، أَحْسَنُ في الأُحْدوثَةِ مِنْ أن أُحْسِنَ أنا، وتسيءَ أنت، ولأن تعفو عنّي، على حال قُدْرَتِك عليّ، أجملُ بِكَ مِنَ الانتقامِ منّي، والسلام.

١١٠ ـ أبو العيناء وابن أبي دؤاد
ولا يحيقُ المكرُ السيِّئ إلّا بأهله

قال أبو العيناء لابنِ أبي دؤاد: إنّ قوماً تضافروا علي. فقال ابن أبي دؤاد: لا يضرُّك تضافُرُهم، فَيَدُ اللّهِ فوق أيديهم. قال أبو العيناء: ولكنّهم جماعة، وأنا فرد واحد. فقال ابن أبي دؤاد: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. قال أبو العيناء: إنّ لهم مكراً وأخاف مَكْرَهُمْ. فقال ابن أبي دؤاد: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣].

١١١ ـ أعرابيٌ وعجوز
إذا عَمِيَتِ البصائر، فلا ينفعُ نورُ النواظر

بينما كانت امرأة عجوز تمشي الهوينا، إذ مَرَّ أعرابي يقود بعيراً محمّلاً، فقالت:

إلى منْ تحمِلُ الهديّة؟ فقال: ليست هذه هديّة وإنّما هي هُدى. قالت: وما هُداك؟ قال: كتاب في الدّليل على وجودِ الله، فضَحِكَتِ العجوز، فاستغربَ الأعرابيّ وقال: أَلَمْ أنبِئْك بالصَّريح فما هذا الضَّحك يا أماه؟ قالت: يا بُنَيّ أنا لستُ أضحَكُ مِنْكَ وإنّما أضحك مِمَّنْ لا يُقِرُّ بوجودِ مولاهُ بَعْدَ مشاهَدَةِ هذا الكونِ وما فيه من الآياتِ، ثمَّ هو يقنع بِحملِ بعير. فقال لها: أما علمتِ أنّه إذا عميت البصائر، فَلْتَقَرأ النواظر؟ قالت: صدقت.

١١٢ ـ الصَّرْصار والنَّمْلَة

العاقلُ مَنِ ادَّخر في الرَّخاء، ما ينفعه في الشِّدَّةِ والشقاء. أضاع صرصارٌ زمنَ الصَّيْفِ في اللهو واللعب، ولم يدَّخِرْ للشتاء ما يُغنيهِ عن المسألةِ، ويقيه شَرَّ الذُّلّ. فلمّا جاء الشِّتاءُ افتقر إلى الغذاء، وعَجزَ عنِ السَّعْي لِشِدَّةِ البرد، فقصد مَسْكَنَ نملة، واستقرَضَها شيئاً من القمح حتّى إذا جاء الصَّيف ردَّه. فقالت له: وما مَنَعَك أنْ تَدَّخِرَ مثلي وتسعى سعيي، ولا تعرِّضَ وجهَك لذُلِّ المسألة؟ فقال: قد فرَّطْت وندِمْتُ على ما فعلت. فقالت له: جزاءُ المفرِطِ الإهمالُ ومقابلته بالإعراض، وليس عندي ما أستغني عنه وأدفعه إليك، فَسَلْ غيري، وتذكَّرْ موقفك هذا متى جاء الصيف. قال: يا أختاه قد سمعت مقالتَكِ وقَبِلْتُ نصيحَتَكِ، والآن لا أجدُ مَنْ يُقْرِضُني، فأجيبي سؤالي وكفاني ما رأيت، جزاكِ اللّهُ خيراً. فأعْطَتْهُ جزءاً مِنَ القمحِ، فتناوله ومضى كئيباً حزيناً. وذلك جزاءُ المهملين.

١١٣ ـ الأسد والذئب والثعلب

الفتنةُ نائمةٌ، لَعَنَ اللّهَ مَنْ أيقظها

يروى أنّ أسداً مَرِض فعادته الوحوش، وتخلّف الثعلب، فوشى به الذئبُ عند الأسد، فسمِعَ الأسدُ كلامَه، وقال له: إنْ جاء فأخبرني. وكان بحضرتهما أرنب، فمضى مسرعاً وأخبرَ الثعلبَ بما جرى، فصاد الثَّعْلَب كُرْكِياً، وترقّب خلوة الأسد ودخل عليه. فقال له الأسد: ويلك! أمرضُ فتعودُني الوحوش كلُّها إلّا أنت! فقال الثعلب: أيّها الملكُ المطاعُ أمرُه، الشَّديدُ بأسُه، الجليلُ قدرُه، لقد علمْتُ مرَضَك فحزنْتُ كثيراً، ولكنّي كنت أستشير الأطباء فأشاروا عليَّ بأنْ تأكُلَ كُرْكِياً[٥٩]، وتستخرجَ مرارَتَهُ وتمزجَها بدم ساقِ ذئب وتدَّهِنَ بها، فإنّك تبرأ برءاً عاجلاً بمشيئةِ الله تعالى، وقد أحضَرْتُ الكُرْكيَّ. فتناوله الأسدُ واستخرج مرارَتَه وأكلَهُ فوجد من نفسه نشاطاً، فصدّق الثعلب. فلمّا حضر الذئب قبضَ عليه الأسَدُ وقطعَ رِجْلاً مِنه، ومزج مرارةَ الكُرْكيِّ بدمها وادَّهن بها. فخرج الذئبُ ودمُه يتقَطّر، ورجلُه ترجف حتّى سقَطَ

[٥٩] ـ الكُرْكيّ: طائر كبير، أغبر اللون، طويل العنق والرّجلين، أبتر الذنب، قليل اللحم، يأوي إلى الماء أحياناً.

مغْشِيّاً عليه. فقال له الثعلب: يا صاحبَ الخفِّ الأحمرِ إذا حضَرْتَ المجالِسَ فاحفَظْ لسانَكَ، واترك الوِشايَةَ، فإنّك تنجو من الضَّرر وتسلمُ من الخطر: [مخلّع البسيط]

إذا حَضَرْتَ الملوكَ فالبسْ ... مِنَ التَّوَقيِّ أجلَّ ملبَسْ
وادخل إذا ما دخلت أعمى ... واخرج إذا ما خرجت أَخْرَسْ

١١٤ ـ البلبل والأرنب

لا تُظْهِرِ الشَّماتَةَ بأخيك، فيعافيه الله ويبتليك

يقال إن نَسراً اختطف أرنباً وطار، فرآهما بلبل فخاطب الأرنب شامتاً مستهزئاً وقال له: أين كانت رجلاك أيّها الأرنبُ حين اختطفك هذا النسر؟ فسمع صوتَهُ غرابٌ فانقَضَّ عليه وأخذه، فقال الأرنب للبلبل وهما يعانيان الموت: أين كان جناحاك يا بلبلُ حينَ أخذَك الغراب؟ فانظرْ ما دهاك وشارِكْني في الهلاك، ولا تفرَحْ لمصيبةِ غيرِك ولا تشْمَتْ به، فإنّ ذلك جهلٌ وَحُمْقٌ. أَلَمْ تَسْمَعْ قولَ القائل: [الوافر]

إذا ما الدَّهْرُ جَرَّ على أناس ... نوائِبَه أناخَ بآخَرِينا
فقلْ للشّامتين بنا أفيقوا ... سيلقى الشامتون كما لقينا

ثم شهق شهقة مات بعدها، وكذا البلبل. فالعاقل لا يَشْمَت بغيره ولا يفرح لمصيبة سواه.

١١٥ ـ البَطّتان والسُلَحْفاة

من لَمْ يَسْمَعْ يأكل لما يشبع

كان بغديرٍ بطّتان وسُلَحْفاة، كُنَّ على أحسنِ ما يكونُ مِنَ الوئام والصَّفاء، فغاضَ ماءُ الغديرِ وأَجْدَبَتِ الأرض، فعزمَتِ البطّتان على الرَّحيل لارتيادِ الماء والعشب. فقالتا للسُلَحْفاة: قد أصبح هذا المكانُ كما ترينَ من الجدب، وسنرتحل عنه. فقالت لهما: خذاني معكما لأنّي لا أهنأ بفراقِكما. فقالتا لها: حُبّاً وكرامة، سنأخذُ بِطَرَفَيْ عود، وتتعلّقينَ في وسطِه بأسنانِك، وإيّاكِ أن تَنْطِقي إذا سَمِعْتِ النّاس يذكرونَكِ بشيء، فَفَعَلَتْ وطارتا بها. فقال الناس: عجباً! سُلَحْفاة بينَ بطّتين يحملانِها. فلمّا سمعت السُلَحفاةُ قولَهم، لم تملِكْ نفسَها ولم تعمَلْ بالوَصِيَّةِ، وقالت للنّاسِ: فَقَأَ اللّهُ أعينَكم، فسقطت عَقِبَ كلامِها وماتت لوقتِها. وذلك جزاءَ تَرْكِها نُصْحَ المحبّين، ووصيّة المخلصِ الأمين.

١١٦ ـ الأَسد والثَّعْلبُ والكلب

العاقِلُ مَنْ وُعِظ بغيره

اصطحَبَ أسدٌ وثعلب وضبع، فخرجت للصيد ذات يوم فصادت حماراً وظبياً وأرنباً. فقال الأسد للضبع: اقسم بيننا. فقال: الأمرُ هَيِّنٌ، الحمارُ لك، والظَّبْيُ لي،

والأرنبُ للثَّعْلَبِ، فضربه الأسدُ ضربَةً قضت عليه. ثم أقبل على الثعلب وقال له: إنّ هذا الخائنَ لم يُحْسِنِ القسمة، فاقسم أنت. فقال: يا أبا الحارث الأمرُ بَيِّن، الحمارُ لغدائِك، والظبي لعشائِك، وكُلِ الأرنبَ فيما بين ذلك. فقال الأسد: ما أَحْسَنَ قضاءَك، مَنْ علّمك هذا؟ فقال: علَّمنيه موتُ هذا الخائن. والعاقِلُ من وُعِظ بغيره.

١١٧ ـ الذِّئْبُ والحمل الصغير

ذهبَ حملٌ صغيرٌ إلى نَهْرٍ ليشرَبَ من مائِه كعادته، فرآه ذئبٌ فأقبل عليه مسرعاً، ووقف في الجهة العليا التي يرد منها الماء، ثم قال للحمل: عكّرت عليَّ صفوَ الماءِ. فقال الحمل: كيف ذلكَ والماءُ يجري إليَّ من عندك؟ فغضب الذئب، وقال: لقد أسأتَ الأدبَ، واقترفت ذنباً ثانياً بِرَدِّكَ، ولي عليك ذنب ثالث، وهو سبيّ وشتمي في السنة الماضية. فقال الحمل وهو موقن بالهلاك: يا سيّدي أنا مولود في هذا الحول، وقد خاطبتك بكلِّ أدبٍ ولين. فقال الذئب: ويلَك يا خَبيثُ إنْ لم تَكُنْ أنتَ الشاتمَ، فهو أبوك أو أخوك أو أحدُ أقاربك، وعلى كلِّ حال فأنتم لنا أعداءٌ من غيرِ استثناء. ثم وثب عليه ومزّقه وأكله.

وهكذا قُوَّةُ أهلِ الظُّلم تحملُها على ارتكاب الجرم.

١١٨ ـ العصفور[٦٠] وأولادها

مَنْ لَمْ يتحمَّلْ ذُلَّ التعلُّمِ ساعةً، عاش في ذُلِّ الجهلِ أبداً.

خرج تلميذ للهوِ واللَّعبِ تاركاً دروسَه، مهملاً واجباتِه، ثم جلس في بستان، فرأى عصفوراً فوق شجرة تعلِّم أولادها الطَّيرانَ، فأخرجَتِ الأوَّلَ ثم طارت أمامه من أسفَلِ الغصنِ إلى أعلاه، ومنه إلى ما يجاورُه، ثُمَّ إلى أبعدَ منه وهو يتبَعُها، وما زالت به تعلِّمه حتى قدرَ أن يفارقَ الشجرةَ إلى شجرةٍ أخرى فتركته، وجاءَت بغيره وعلَّمته، وهكذا حتى صادفها فَرْخٌ من فراخِها لم يقدرْ على اتِّباعِها، فأخذَتْهُ إلى العشِّ ونَقَرَتْهُ نقراً خفيفاً، وأخرجَتْهُ وطارت، فتبعَها ثُمَّ عجزَ، فأخذته ونقرته نقراً شديداً وطارت فَتَبِعَها، وما زالت به حتّى صارَ كإخوته وتمتَّع بهذا الفضاءِ الفسيح يطير فيه ويصيص. فلمّا رأى التلميذ المهملُ ما رأى خاطَبَ نفسه وقال: إنْ أنا تحمَّلْتُ ألم التعلّم جزءاً من حياتي، عشت سعيداً كما يعيش العصفور. واعتنى بدروسِه فكان النجاحُ أليفَه والسَّعْدُ حليفَه.

١١٩ ـ القنبرة وفرخها

مِن استعجلَ على شيءٍ قبلَ أوانِه عوقب بحرمانه

يقالُ إنّ قنبرةً كانت تعلّم فرخَها الطيران، فنصحت له ألّا يعتمدَ على جناحيه،

---

[٦٠] ـ في معجم المذكّر والمؤنّث ص١٣٤: العُصفور: طائر ذكر، والأنثى بالهاء.

حتى يأنسَ من نفسِه القوّةَ والشدّةَ، وجعلت تطيرُ أمامه من غصن إلى غصن يقاربه، ومن عود إلى عود يجاوره، وهي تستريح في كل نَقْلَةٍ كيْ يستريحَ فرخُها ولا يَمَلَّ ثِقْلَ الهواءِ، فخالفها وطار وارتفع مظهراً النشاط والمهارة. فخانه جناحاه وانكسرت ركبتاه ولم ينل مناه. ولو تأنّى لنال ما تمنّى، وعاش سعيداً. [الرّجز]

لكلِّ شيءٍ في الحياةِ وقتُه وغايةُ المستعجلينَ فَوْتُه

١٢٠ ـ الحمار والكلب

ولا يَحيقُ المكرُ السيِّئُ إلّا بأهله

سافر رجلٌ ومعه كلبُه وحمارُه، في يوم شديدِ الحرِّ، فلَمّا جاء وقتُ الظهيرةِ أَوْقَفَ السَّيْرَ ليستريحَ ثمّ نام، فدخلَ الحمارُ أرضاً مزروعةً وأكل منها. وكان بعنقِ الحمارِ سَلَّةٌ فيها طعام، فقال الكلب: يا هذا طَأْطِئْ رأسَك حتى آخذَ طعامي من السلَّةِ فقد أضرَّ بيَ الجوعُ، فامتنعَ الحمارُ وقال: انتظر مولاك حتّى يستيقظَ فيعطيك نصيبَك. ولمْ يُتِمَّ الحمارُ كلامَه حتّى خرج عليه ذئبٌ عظيم، فاستغاثَ بالكلبِ، فقال له: إنّي لا أستطيعُ منعَ الذئبِ عنك حتى يأذنَ لي مولاي، فانتظر حتى يستيقظ. ثمّ وثب الذئبُ على الحمارِ ومزّق بطنه. وهذا جزاء السَّفيهِ الغبيّ الجاهل. [البسيط]

مَنْ يَزْرَعِ الشَّرَّ يَحْصُدْ في عواقِبِهِ ندامةً ولِحَصْدِ الزَّرْعِ إبّانُ

١٢١ ـ الطَّيرُ والثعلب

لا تعاشِرْ من لا تعرِفُه حتى تختبرَه

يقال إنَّ ثعلباً ذهب إلى سفح جبلٍ فيه شَجَرٌ مورق، فوقَهُ طيرٌ كثير. فجاء إليه عظيم الطير وقال له: مِنْ أينَ أنتَ وما صَنْعَتُك؟ فقال: إنّي عابرُ سبيل، وصناعتي حِفْظُ الطيرِ منَ الإنسانِ ومعرفةُ الثِّمار إذا نَضِجَتْ، فقال له عظيمُ الطير: عِشْ معنا وكلْ ممّا نأكلُ منه واشرَبْ ممّا نَشْرَبُ. فرضي الثعلب وجعل يخبر الطيرَ بنُضْجِ الثمار، والاحتراسِ من الصيّادين إذا أقبلوا فعظُمَتْ منزلتُه، ثم تاقت نفسُه إلى أكلِ اللحم، فصار يأخذ الطائرَ ويأكلُه ويَدْفِنُ ريشَه وعظامَه حتّى أذهبَ كثيراً من الطير فَشَكَتِ الطيورُ ذلك إلى عظيمها واتَّهمتِ الثعلب. فقال عظيمُها: سأبحثُ عن ذلك بنفسي. ولما جُنَّ الليلُ أقبل الثعلبُ فصادف عظيمَ الطَّيْرِ فأخذه، فقال له: اترُكْني أجعلْ منزلَتَكَ عظيمةً بيننا. فقال الثعلب: إنّ آبائي أدّبتني ألّا أعلِّقَ أنيابي بصيدٍ وأترُكَه، ثُمَّ أكلَهُ ودفَنَ ريشَهُ وعظمَه كعادته. ولـمّا علم الطيرُ ذلك، اجتمع على الثعلب وجعل ينقرُه حتى مات. وهذا جزاء الخائن، وتلك عاقبة من يعاشرُ من لا يعرفُه. [الطويل]

وَلا تُظْهِرَنْ وُدَّ امرئ قبل خُبْرِهِ وبعد بلاءِ المرءِ فاذمُمْ أَوِ احْمِدِ

١٢٢ ـ الأسدان

العدلُ أحسنُ شيمة، والغدرُ عاقبتُه وخيمة

يُزْعَمُ أنّ أسداً تملّك على الوحوش، فظلم واستَبدَّ وجار، ولم يعدل. فأجمَعَتْ على بغضه، وتربَّصَتْ به الدّوائرُ، وكان فيها شبل مات أبوه وربّته أُمُّه أحسنَ تربية. فلمّا كَبُرَ، ملكَ القلوبَ بإحسانِه، وجميلِ خلاله، وانضمّ إليه قسم من الوحوش، فسار بالعدل والإحسان. ولمّا علم به الأسدُ الظالم، جمعَ الوحوش لمقابلته، والإيقاع بما مَعَه من الوحوشِ، وسارَ إليه بقضِّه وقضيضِه فارتاع الأسدُ العادلُ ممّا رأى، واستشارَ أصحابَه فأشاروا عليه بملاقاتِه، وقالوا له: إنّنا سنحاربُ بقلوبِنا، وسنخذُلُه وما معه من الجموعِ. ولما التقى الجمعان انفضَّ من حول الظالم جندُه وبقي في الميدان وحيداً، فأُسِرَ وأوقِفَ أمامَ الأسدِ العادل موقفَ الصَّغيرِ الذليل. فعفا عنه وسجنه، وأمرَ أن يُقَدَّمَ إليه كلُّ ما يحتاجه من طعام وشراب، واستولى على ملكه فحكمه بالعدل، وانفرد بالحكم.

١٢٣ ـ الغرابُ والسِّنَّوْرُ

وإنّما الإخوانُ في الشدائد

تآخى غرابٌ وسِنَّوْرٌ، وتصادقا وتحابّا، فكانا ذاتَ يوم جالسينِ تحت شجرةٍ يتحدَّثان، فأقبل عليهما نمر، فطار الغراب على الشجرة وبقي السِّنَّوْرُ مُتَحَيِّراً، فقال للغراب: أيُّها الصديق المخلصُ، نَجِّني بحسن حيلتك. فطار الغراب نحوَ راعٍ كان قريباً منَ الشَّجرة ومعه كلابُه، فناوَشَها فاتَّبعته، وما زال يناوِشُها وتتبَعُه، حتّى اقترب من النِّمر. فلما رأت الكلابُ النِّمْرَ، وثبَتْ عليه ومزّقته شَرَّ مُمَزَّق. ونجا السِّنَّوْرُ بحيلةِ الغراب صاحبه وصديقه. وهكذا تكون الإخوان: [الوافر]

جـزى الـلّـهُ الـشّـدائِـدَ كُـلَّ خَـيْـرٍ   عَـرَفْـتُ بـهـا عَـدُوِّي مِـنْ صـديـقـي

١٢٤ ـ الأسد والحمار

لا تأْمَنْ عَدُوَّك أبداً

ذهبَ حمار إلى المراعي فغاصَتْ قوائِمُهُ في الطيِّنِ فرامَ الخلاصَ فازداد غَوْصاً. فجعل يشرب ممّا حوله من الماء، ويأكل ممّا جاوره من النبات حتى شبع، فنهق عالياً، فسمعه أسدٌ فأقبل عليه وسلّم. ثم سأله عن أمره، فحيّاه وقال له: يا أبا الحارثِ لولا الوحلُ ما مَكَثْتُ هنا، فأنقِذْني فأنتَ ملك كريم. فقال الأسد: أنا كما قلت، وسأكشفُ عنكَ الكَرْبَ، عاملاً بقول القائل: [الرّجز]

ومـن أغـاثَ الـبـائـسَ الـمـلـهـوفـا   أغـاثَـهُ الله إذا أخـيـفـا

ثم ذهبَ إلى مسيلِ الماءِ وسدَّه، فجعل يقل والحشيش يذهب من الأكل، حتى

انتهى الماءُ والحشيش من حول الحمار، فشرع الأسد يجمع بعضَ الحشائش ويقدّمها إليه، حتى جفت الأرض واستطاع المشيَ عليها، فَوَثَبَ على الحمار وثبةً تركته مُمَزَّقاً فأكله وانصرف، بعدما أظهر من المساعدةِ والإحسانِ ما يغترّ به كُلُّ جهول: [البسيط]

إنّ العَدُوَّ وإنْ أبدى مُسالمة إذا رأى منك يوماً غِرَّةً وثبا

١٢٥ ـ الحمامة والصقر

مَنْ ظَلَمَ مَنْ دونَه ظلَمُه مَنْ فوقَه

طارت حمامة فبصرَتْ بِحَبٍّ تحتَ خيوطٍ جميلة بيضاء، فنزلت لتأكُلَ فأمسَكَتْ بها الخيوطُ، فإذا هي شَرَكٌ لصيَّاد، فحمدت ربَّها على ما أصابها. ولكنّها ما لبثت أن رآها صقر، فانقضَّ عليها ليأخذَها ظلماً وبغياً، فوقعَ معها في الشَّرَك. فقالت الحمامة: ويحي، مصيبتان في آن واحد. ولم تكد تُتِمُّ كلامَها حتى جاء الصَّيادُ ليأخُذَهما، فقال له الصَّقْر: أيّها الإنسان ارحمني واعفُ عنّي. فقال له: وما أَوْقَعَك في هذا الشَّرَكِ؟ أَلَمْ تَرَ الحمامَةَ فسقطت عليها كالصَّاعقة لتأخذَها أخذَ الظالم الباغي الأذى، فَوَقَعْتَ حيثُ وَقَعَتِ الحمامة؟ لو أنّك لم تفعَلِ الأذى لم يَنَلْك الأذى. ولا بُدَّ للظالم من يومٍ يُعاقَبُ فيه على شَرِّ ظلمه، ألم تسمَعْ قولَ القائل: [الخفيف]

إنّ مِنْ أضعفِ الضُّعفاءِ لدى اللّهِ ـ قَوِيٌّ يستضعفُ الضُّعفاء

ثم أخذهما ومضى.

١٢٦ ـ الغرابُ المقلِّدُ للنسر

التقليد الأعمى يَضُرّ

رأى غرابٌ نَسْراً عظيماً قد انقَضَّ على حملٍ صغيرٍ من الغنم واختطفه وطار به، فأراد الغرابُ أنْ يُقَلِّدَه فيما فعل. فطار وارتفع ثم نزل مسرعاً على كَبْشٍ قد عَظُمَ صوفُه وطال، فعلَّقَ به أظفارَه ثُمّ حاول الصُّعودَ به فلم يقدرْ، فأرادَ النجاة فلم يقدر، فجاء الراعي وأولادُه، وأخذوا الغرابَ وأذاقوه العذابَ، وذلك جزاءَ مَنْ لَمْ يحسنِ التَّقليد كما قيل: [البسيط]

يا باريَ القَوْسِ بَرْياً لستَ تُحكِمُه لا تظلم القَوْسَ أعطِ القَوْسَ باريها

١٢٧ ـ اجتماع الجرذان [الوافر]

وَهَلْ في شِرْعَةِ الإنصافِ أنّي أُكَلَّفُ خُطَّةً لا تستطاعُ

اجتمع الجرذان للنّظر في حيلةٍ تُهْلِكُ القِطَّ الذي كدّر عليها صَفْوَها، فأبدى كلٌّ رأيه، وذهبت أغلبُ الآراءِ سدى، فقال كبيرُها: رأيت حيلةً، وأظنّها مفيدةً، إنّ عدوَّنا

القطَّ يسيرُ في أماكنَ كثيرةٍ من غير أنْ يسمَعَه أحد، وبذلك يتمكّن من إهلاكِنا، فعلينا أن نمسكه ونعلّقَ بجيده جُلْجُلاً[٦١]، إذا جاء سمعنا به من بعيد، فليأخذ كلٌّ مِنّا حذَرَهُ، وبذلك نأمن شرّه. فقال الصغير: الحيلة جميلة ولكنّ تنفيذَها من أصعبِ الأمور، لأنَّ القطَّ شيطانٌ رجيم وعفريتٌ كبيرٌ، لا يقدرُ أحدٌ منّا أن يقبضَ عليه، وأرى أن كبيرَنا يقومُ بتنفيذ رأيه. فقال الكبير: عليَّ أن أفكّرَ وعلى غيري التنفيذ. فقال له الجرذان: إذا كنتَ كبيرَنا ولم تقدرْ على تنفيذ ما دبَّرت، فأنّى لنا ذلك؟ وذهب التدبيرُ لعدمِ وجودِ المُنَفِّذِ، فعادت الفيرانُ خائبةً وكبيرُها يُنْشِدُ: [الطويل]

ولو كانَ شيءٌ يُسْتَطاعُ فَعَلْتُهُ ... ولكنَّ ما لا يُسْتَطاعُ شديدُ

١٢٨ ـ الذِّئابُ والنعاجُ والراعي

الطبعُ يغلبُ التَّطَبُّعَ

أقبل كبيرُ الذِّئابِ على الراعي وقال له: يا راعي الشاء العادل قَدْ قَدِمْتُ إليك، لنتعاهدَ على تركِ الخيانة والظلم، وإلقاءِ القسوة والبغي، ونعيش معاً في أمان ووئام. فقال الراعي: طلبت خيراً أجيبُك إليه، ولكنْ أينَ الضَّمان؟ فقال الذئب: الأمر هيِّنٌ، ندع عندك صغارَنا وتحبسُ عنّا الكلاب. فإن خُنّا أطلقت الكلاب، وأهلكتنا وأولادنا. فرضيَ الراعي وحبس الكلابَ وأخذ أولادَ الذئاب وربّاها مع الأغنام، ولكنَّ الذئابَ لمّا كَبِرَتْ عَدَتْ على الأغنام وفتكت بها فتكاً ذريعاً. وغلبها طبعُها ولمْ يُفِدْ تأديبُها، ولم تنفَعْ تربِيَتُها، وعادت إلى ما جُبِلَتْ عليه من أكلِ الأغنام، والرَّغبةِ في افتراسها. وقد قيل: [الوافر]

بَقَرْتَ شُوَيْهَتي[٦٢] وَفَجَعْتَ قلبي ... وأنتَ لشاتِنا ولدٌ ربيبُ
غذيتَ بِدَرِّها وربيتَ فينا ... فمن أنباك أنَّ أباك ذيبُ
إذا كان الطِّباعُ طباعَ سوءٍ ... فلا أدبٌ يفيدُ ولا أديبُ

١٢٩ ـ القط والجرذان

من خاف سلم

طال جوع القِطِّ، وزادَ كربه، وساءت حياته، ولم يجدْ ما يَسُدُّ به رمَقَه. إن ذهب إلى الآكلين يلتمسُ منهم كِسْرَةً ضربوه، وإنْ طلب الجرذانَ هربت منه حتّى هَزَلَ[٦٣]، وبانت عظامُه. فرأى مِشْجَباً فتعلّق فيه برجليه، وطرح جسمه ويديه، وصار كالمصلوب. فخرج جرذٌ صغيرٌ، فرآه على هذه الحالة فذهب مسرعاً وأخبر أصحابَه،

[٦١] ـ الجُلْجُلُ: الجرس الصّغير.
[٦٢] ـ بقر البطن: شقّه. والشويهة: تصغير الشّاة.
[٦٣] ـ هَزَلَ: صار ضعيفاً.

كبيرَها وصغيرَها، فجاءت عجلة لترى القِطَّ وتفرحَ لنكبته. فلما رأته قالت له: قاتلك اللّهُ وأدخلَك النَّار، لقد كَدَّرت علينا حياتَنا. ثم خاف بعضُها ودخل الشُّقوق وبعضُها وقف ليفرَح بمصابِ عدوِّه. فلما رأى القِطُّ ذلك، خاف أن تذهب كُلُّها، فانقضّ على الباقي منها وافترسَه، وأنعشَ نفسَه بأكلِه، ونجا ما خاف وأخذ حذره، وهلك ما لم يخف ولم يأخذ حذرَه. وقد قيل: [البسيط]

لا تـتـرُكِ الـحـزمَ فـي شـيءٍ تُـحـاذِرُهُ　　　فإنْ سَلِمْتَ فما في الحزمِ مِنْ باسِ

١٣٠ ـ الأَسد والبعوضة [البسيط]

لا تَـحْـقِـرَنَّ صـغـيـراً فـي مُـخـاصَـمَـةٍ　　　إنَّ الـبـعـوضَـةَ تُـدْمـي مُـقْـلَـةَ الأَسَـدِ

ذهبت بعوضة إلى الأسد وسلّمت عليه، فازدرى بها واحتقرها ولم يردَّ عليها السَّلام، فقالت له: ما جنيتهُ حَتّى تعاملني هذه المعاملة؟ فسبَّها وزَجَرَها لأنّها اجترَأَتْ عليه وقابلته في عرينِه، وزاد جرمها بكلامها في حضرته، فتوعّدها بالقتل. فقالت له ما هذا الذي تُسَوِّلُ لكَ به نفسك؟ لا تَغْترَّ بجسمِك ولا تعتمدْ على قوَّتِك، وسيحكمُ الله بيني وبينك، وهو خير الحاكمين. فغضب الأسد وزمجر وقام لِيَبْطِشَ بها، فطارت أمامه وقالت له: سأشربُ من دمك، وآكلُ من لحمك، فازدادَ غيظاً وغضباً. ثم كرَّت عليه ولدغته في عينه، فضربَ عينه بيدِه. ثم لدغته في إبطه، فجعل يَثِبُ في الهواء وثباتٍ عظيمةً. وما زالت به تلدغه، وهو يضربُ نفسَه، ويرتفع وينخفض ويزمجر، حتى خارت قُواه، وسالت دماه، ووقع على الأرض ميتاً جزاء كِبَرِه وغَطْرَسَتِهِ واحتقارِه شأنَ عدوِّه. ولقد صدق قولُ من قال: [الكامل]

لا تَـحْـقِـرَنْ شَـأْنَ الـعَـدُوِّ وكـيـدَه　　　فـلـربَّـمـا صـرعَ الـبـعـوضُ الـفـيـلا

١٣١ ـ النعجة وأَولادها والذئب

من احترسَ نجا

خرجتِ النَّعجة إلى المراعي، وتركت أبناءها بعد أن أغلقت دونها البابَ غلقاً محكماً، وقالت لكبيرةِ الأولاد: إياكِ أن تفتحي البابَ لأحد، حتى تعرفيه، وتعرفي جنسَه، فإن كان منّا فافتحي، وإن لم يكن فلا تفعلي. فسمع الذئب كلامَها وكان مختفياً. فلمّا ذهبتِ النعجةُ جاء الذئب وقرع الباب، فقالت الكبيرة: من أنت؟ فقال: أنا ابنُ عمِّك ورأيت الذئب مقبلاً، وهو لا يراني، فافتحي وأنقذيني منه، فقالت له: لا أفتحُ لك حتى تَمُدَّ يَدك وأراها، فإن كانت كأيدينا فتحتُ لك، وإلا عرفْتُ أنّك محتال تريد بنا الشَّرَّ. فاحتار الذئب، ورجع خائباً، ونجت كبيرةُ الأولادِ مع أخواتها بالاحتراسِ والعمل بنصيحة أمِّها. وقد قيل: [الطويل]

ولـكـنْ أخـو الـحـزمِ الـذي لـيـس نـازلاً　　　بـه الـخطبُ إلّا وهـو لـلـخَـطْـبِ مُـبْـصِـرُ

١٣٢ ـ الكلبان والذئب
إذا أردت شيئاً فتدبَّرْ عاقبته

اصطحبَ كلبانِ، وسارا حتى وصلا شاطئَ نَهْرٍ، فرأيا ذئباً على الشاطئ الآخَرِ، ورغبا في افتراسه، ولكنَّ الماءَ حال بينهما وبينه فقال كبيرُهما: الأمر سهل يسير، نشرب هذا الماءَ حتى تبدوَ الأرضُ فنسير إليه، ونقضي غرضنا منه. فقال الثاني: نعم الرأيُ رأيُك، ولم يفكرْ في أنَّ هذا مستحيل، لأنَّ الماءَ كثير، وجارٍ لا ينقطع، ولو اجتمَعَتْ كلابُ البَلَدِ لا تَقْدِرُ على شربه، ثم جعلا يشربان، والذئبُ يضحَكُ من فعلهما، ويهزأ بعَمَلِهما، وهو آمنٌ مطمَئِنٌ، حتى امتلآ وانفجرت بطنُهما، وفاضت روحهما، جهلاً وجنوناً وطمعاً في المستحيل، فالعاقل لا يعلِّقُ آمالَه بغيرِ الممكن، ولا يقدِمُ على شيء حتّى يفكّر، وإلّا كان كمن قيل فيهم: [الطويل]

ولا يَتَّقونَ الشَّرَّ حتّى يصيبُهم ... ولا يعرفونَ الأمرَ إلّا تَدَبُّرا

١٣٣ ـ الذئب والراعي
رُبَّ حيلةٍ أهلكتِ المحتال

خرج ذئب يبحث عن قوتٍ له، فرأى غنماً قد أطلقها راعيها ونام خالعاً ثيابَه، ونامت كلابُه بعدَه، فجاء الذئب وأخذ يفكّر في حيلة ينال بها غرضه، فرأى أن يلبَسَ ثيابَ الراعي، فلا تنفرُ منه الغنم، ولا تؤذيه الكلاب. ففعل ذلك ولكنّه أراد أن يحاكي الراعي في كلِّ شيءٍ حتّى في صوته فعوى، فقام الراعي مذعوراً، وأقبل عليه يضربه بالعصا، وجاءتِ الكلاب ومّزقته شرَّ مُمزَّق، ولو أنه أجاد الحيلةَ وأتمَّ التدبيرَ، ولَزِمَ الصَّمْتَ لنجا، ولكنّه لمْ يفعلْ، فأهلكته حيلَتُه، وأماته ضعفُ رأيِه وسوءُ تدبيره، وقد قيل: [البسيط]

من دَبَّرَ العيشَ بالآراءِ دامَ له ... صفواً وجاء إليه الخطبُ مُعْتَذِرا

١٣٤ ـ زيادٌ ومعاويةُ والأحنفُ
فضلُ العرب

لما تمّ الأمرُ لمعاويةَ، جاءته وفودُ المهنئين، فكان منها وفدُ العراق وفيه زيادٌ والأحنفُ، فقال زياد: يا أميرَ المؤمنين، أَشْخَصَتْ إليك أقواماً الرَّغْبَةُ، وأقعد عنك آخرين العذرُ. فقد جعل الله في سعة فضلِك ما يجبر به المتخلّف ويكافئ به الشاخص. فقال معاوية: «مرحباً بكم يا معشرَ العرب. أما والله لئن فرّقت بينكم الدعوةُ لقد جمعكم الرَّحِم. إنَّ الله اختاركم من الناس ليختارَنا منكم، ثم حفظ عليكم نسبكم، بأن تخيّر لكم بلاداً تجتاز عليها المنازل، حتى صفّاكم من الأمم، تصفية الفضّة البيضاء من خُبْثها، فصونوا أخلاقكم، ولا تدنّسوا أنسابَكم وأعراضَكم. فإنّ

الحسنَ منكم أحسنُ لقربكم منه، والقبحَ منكم أقبحُ لبعدِكم عنه». فقال الأحنفُ: «واللّهِ يا أمير المؤمنين ما نَعْدَمُ منكم نائلاً جزيلاً، ورأياً أصيلاً، ووعداً جميلاً. وإنَّ أخاك زياداً لمتَّبعٌ آثارَك فينا فنستمتع الله بالأمير والمأمور. فإنّكم كما قال زهير: [الطويل]

وما يَكُ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ فإنّما ... توارَثَهُ آباءُ آبائِهم قبلُ
وهل ينبت الخَطِّيَّ إلا وشيجه ... وتُغْرَسُ إلّا في منابتها النخل»؟

١٣٥ ـ المعتصم وتميم السدوسي

إنَّ من البيان لسحراً

خرج تميمٌ السَّدوسي على المعتصم وظفر به وأحضر له السَّيف والنِّطْعَ[٦٤]. وكان تميم وسيماً جميلاً. فأحبَّ المعتصم أن يعرفَ أين لسانُه من منظَرِه؟ فقال له: تكلَّمْ. فقال: أمّا إذا أَذِنْتَ يا أمير المؤمنين فأنا أقول:

الحمد لله الذي أحسن كلَّ شيءٍ خَلَقَه وبدأ خلقَ الإنسانِ من طين. ثم جعل نسلَهُ من سُلالَةٍ من ماء مَهين. جبرَ الله بك صَدْعَ الدِّين ولمَّ بِكَ شَعَثَ المسلمين، وأوضح بك سُبُلَ الحقّ، وأخمد بك شهاب الباطل. إنّ الذنوبَ تُخرسُ الألسنَ الفصيحة وتعيي الأفئدة الصحيحة، ولقد عَظُمَتِ الجريرة وانقطعت الحُجَّة، وساء الظنّ، ولم يبقَ إلّا عفوُك أو انتقامُك. وأرجو أن يكون أقربُهما منّي وأسرعُهما إليَّ أسبقَهُما بك وأولاهما بكرمك، ثم قال: [الطويل]

أرى الموتَ بين السَّيْفِ والنِّطْعِ كامناً ... يلاحظني مِنْ حَيْثُ ما أتلَفَّتُ
وأكبرُ ظنّي أنّك اليومَ قاتلي ... وأيُّ امرئ ممّا قضى اللّهُ يَفْلِتُ
وأيُّ امرئ يأتي بعذر وحُجَّةٍ ... وسيفُ المنايا بين عينيه مُصْلَتُ
وما جزعي مِنْ أنْ أموتَ وإنّني ... لأعلمُ أنَّ الموتَ شيءٌ مُوَقَّتُ
ولكنّ خلفي صِبْيَةً قد تركتهم ... وأكبادُهم من حسرةٍ تَتَفَتَّتُ
فإنْ عشتُ عاشوا سالمين بغبطة ... أذودُ الردى عنهم وإنْ مُتُّ موَّتوا
وكم قائلٍ لا يبعد الله داره ... وآخر جذلانٌ يُسَرُّ وَيَشْمَتُ

فتبسَّم المعتصم وعفا عنه

١٣٦ ـ المهديُّ ويعقوبُ وأحدُ عمّاله

المحاورة الحسنة

سَخِطَ المهديُّ على يعقوبَ فأحضره وقال: يا يعقوبُ. قال: لبيك يا أميرَ

---

[٦٤] ـ النِّطْعُ: بساط من الجلد، كثيراً ما كان يُقْتَل فوقه المحكوم عليه بالقتل. يقال: عليّ بالسّيف والنّطع، إشارة إلى قرب تنفيذ الإعدام.

المؤمنين تلبيةَ مكروبٍ لوجدِك، شَرِقٍ بغُصَّتِك. قال: ألَمْ أرفَعْ قدرَك وأنت خامل، وأشيدْ ذكرك وأنت هامل، وألبسك من نِعَم الله تعالى ونعمي ما لم أجدْ عندَك طاقةً لحمله، ولا قياماً بشكره، فكيف رأيت الله تعالى أظهر عليك وردّ كيدك إليك. قال: يا أمير المؤمنين إنْ كنتَ قُلْتَ هذا بِتَيَقُّنٍ وعلم فإنّي معترف، وإنْ كان لِسِعايَةِ الباغين، ونمائم المعاندين، فأنت أعلم بأكثرها، وأنا عائذٌ بكرمِك وعميم شرفك. فقال المهدي: لولا الحسبُ في دمك، لألبَسْتُك قميصاً لا تَشُدُّ عليه أزراراً. ثم أمر به إلى السجن، فولّى وهو يقول: الوفاءُ يا أميرَ المؤمنين كَرَمٌ، والمودَّةُ رحم، وما على العفو ندم، وأنت بالعفو جدير، وبالمحاسن خليق. فأقام في السجن إلى أن أخرجه الرشيد.

١٣٧ ـ مُعاويةُ والنّعمان بن العجلان الزرقي
قلِ الحقَّ ولا تخشَ فيه لومَةَ لائم

يروى أنَّ معاويةَ بنَ أبي سفيان كان جالساً وعنده فئة من الأشراف، فقال معاويةُ: مَنْ أكرَمُ النَّاس أبا وأماً، وجداً وجدّة، وعمّاً وعمّة، وخالاً وخالة؟ فقام النعمان بن العجلان الزرقي بعدما أخذ بيد الحسن، فقال: هذا أبوه عليّ بن أبي طالب، وأمّه فاطمة، وجدّه رسول الله ﷺ، وجدّته خديجة، وعمّه جعفر، وعمّته أمّ هانئ ابنة أبي طالب، وخاله القاسم، وخالته زينب. فهذا هو الشرف الذي لا يُدانى، والفضلُ الذي لا يُبارى. فانظرْ كيفَ قال نعمانُ الحق، ومعاوية إذ ذاك خليفةُ المسلمين وأميرُ المؤمنين، فكان يجوز أن يشرفه على سواه، ولكنّه آثرَ الحق وقال الحقّ، فهكذا تكون الشّهامة والصّراحة والحرية.

١٣٨ ـ عبد الله بن همام السلولي
ويزيد الأول ابن معاوية

لما توفي معاوية، قَدِمَ عبد الله بن همام السلولي مهنّئاً ومعزياً، فقال: يا أميرَ المؤمنين آجرَكَ الله على الرَّزِيّة، وبارك لك في العَطِيَّة، وأعانك على الرَّعِيَّة، فلقد رُزيتَ عظيماً، وأُعْطيتَ جسيماً، فاشكر اللَّهَ على ما أعطيت، واصبِرْ على ما رزيت. فقد فقدتَ خليفةَ الله، ومُنِحْتَ خلافةَ الله، ففارقت جليلاً، ووهبت جزيلاً إذ قضى معاويةُ نحبَه، فغفرَ اللَّهُ له ذنبَه، ووليت الرئاسةَ، فأعطيت السياسة، فأوردك الله مواردَ السرور ووفّقت لصالح الأمور، ثم أنشد: [البسيط]

إصبِرْ بِزَيْدٍ فقد فارقتَ ذا ثقةٍ ... واذكرْ حباء الذي بالملك أصفاكا
لا رزءَ أصبح في الأقوام نعلمه ... كما رزئت ولا عُقْبى كعقباكا
أصبحتَ واليَ أمرِ النَّاسِ كُلِّهِمِ ... فأنتَ ترعاهُمُ واللَّهُ يرعاكا

فَسُرَّ من كلامِه، وأحسنَ صِلَتَه.

١٣٩ ـ عبدُ الملكِ وابنُه الوليدُ
نصيحة غالية، وموعظة عالية

يروى أنَّ عبدَ الملك بنَ مروانَ لما ولّى ابنَه الوليدَ دمشقَ، كتب له بذلك وقال له: يا بُنَيّ لأبيك صنائعُ قد رسخَتْ في المجدِ أصولُها وأورَقَتْ في العلا فروعُها، وانتشرَ عند الناس ذكرُها، فلا تَهْدِمَنَّ ما قد شَرُفَ لك بناؤُه، وأضاءَ لك ضياؤُه، فكفى من سوءِ رأيِ المرءِ وقبيحِ أثرِهِ وَضَعَةِ نفسه أن يهدِمَ ما قد شُيِّدَ له من فضيلة البناء، ورفيع الثناء. وإياكَ وأعراضَ الأحرار، فإنّ الحرَّ لا يرضيه من عِرْضِه عِوَض. واجتنبِ العقوبةَ، فإنَّها وِتْرٌ مطلوب وعارٌ باق. ولا يمنعك من ذي فضل سبقَتْ إليه صنيعةُ غيرِك أن تصطنِعه، فإنَّ صنيعةَ ذي الفضلِ شكرٌ تستوجبه وكنزٌ تدَّخره، واستعملْ أهلَ الفضلِ دونَ أهلِ الهُونِ[٦٥]، ولا تعزلْ إلّا عن عَجْزٍ أو خيانة، وليكنْ جلساؤُك غيرَ أسنانِك[٦٦]، فإنّ الشبابَ شعبَةٌ من جنون، وإنْ نازعتك نفسُك على أخذ شيء من المال، فلا يكُنْ خصمُك إلّا بيتَ المال، وليكنْ رسولُك فيما بيني وبينك منْ يفهَمُ عنّي وعنك، وإذا كتبتَ كتاباً فَأَكْثِرِ النَّظَرَ فيه، فإنّ الكتابَ موضعُ عقلِ الرَّجل، ورسولَه موضعُ عقله: [الطّويل]

إذا لَـمْ يُـعِـنْـكَ الـلَّـهُ فـي مـا تـريـدُه ... فـلـيـسَ لـمـخـلـوقٍ إلـيـه سـبـيـلُ
وإنْ هـو لـم يـنصُرْكَ لـم تـلقَ نـاصـراً ... وإن عـزَّ أنـصـارٌ وجـلَّ قـبـيـلُ
وإنْ هـو لـم يُـرْشِـدْكَ فـي كـلِّ مـسـلَـكٍ ... ضَـلَـلْـتَ ولـو أنّ الـسِّـمـاكَ دلـيـلُ

١٤٠ ـ المأمونُ وابنهُ العبّاس وامرأَةٌ متظلمة
الحقُّ أحقُّ أنْ يُتَّبع

جلسَ المأمونُ يوماً للفصلِ في شؤونِ الأمّة، فحضرت في آخرِ الجلسةِ امرأةٌ وأنشدت بين يديه: [البسيط]

يا خيرَ منتصفٍ يهدى له الرَّشَدُ ... ويـا إمـامـاً بـه قـد أشـرق الـبـلـد
تـشـكـو إلـيـك عـمـيـدَ الـقـوم أرمـلـةٌ ... عـدا عـلـيـها فـلـم يَتْرُكْ لـهـا سَبَدُ[٦٧]
وابـتـزّ مـنـي ضِـيـاعـي بـعـد مَـنْـعَـتِـهـا ... ظـلـمـاً فُـفـرِّقَ عـنّـي الأهـلُ والـولَـدُ

فأطرق المأمون حيناً، ثم رفع رأسَه إليها وهو ينشد: [البسيط]

في دون ما قلتِ زالَ الصَّبْرُ والجَلَدُ ... عـنّـي وفُـزِّعَ مـنّـي الـقـلـب والـكـبـد
هـذا أذانُ صـلاةِ الـعـصـرِ فـانـصـرفـي ... وأحضري الخصمَ في اليوم الذي أعِدُ

---

[٦٥] ـ الهون: الذّلّ.
[٦٦] ـ غير أسنانك: من غير أترابك الذين هم في عمرك.
[٦٧] ـ السَّبَدُ: ما يَطْلُعُ من رؤوس النّبات قبل أن ينتشر. ويقال ما له سَبَدٌ ولا لَبَدٌ: ما له قليل ولا كثير.

والمجلس السَّبْتُ إنْ يُقْضَ الجلوسُ لنا نُنْصِفْكِ منه وإلّا المجلسُ الأَحَدُ

فلمّا كان يوم الأحد جلس، فكان المبتدئ بالدخول إليه تلك المرأة. فقال لها: أينَ الخصم السوء؟ فأومأت إلى العبّاسِ ابنِه، فأجلسه معها مجلسَ الخصوم، وأخذا يُنشئانِ رؤوسَ الدعوى، وكان كلامُها يعلو كلامَ العبَّاس، فقال لها أحدُالحاضرين: اخفضي زئيرَك. فقال المأمون: دَعْها، فإنَّ الحقَّ أنطقَها وأخرَسه. فَبَقِيَتْ تَئِنُّ بشكايتها أمام مَلَئِه، حتى انتشر نبؤُها في الجلسة، فنصرَها على العبَّاس.

١٤١ ـ الكنز والعاثرون به
حبُّ الدُّنيا رأسُ كلِّ خطيئة

كان في غابرِ الأزمانِ ثلاثةُ أشخاصٍ سائرين فوجدوا كنزاً يتلألأ أمام أعينهم، فمكثوا بجانبه وقالوا: قد جعنا واشتدَّ ظمؤُنا وسئمنا من التعب، فليمض امرؤٌ منّا ليبتاعَ لنا ما نأكلُه، فمضى أحدهم، وبينما هو ذاهب أضمَرَ في نفسِه لهما سوءاً يسوءُهُما به وقال: الصَّواب أن أدُسَّ السُّمَّ في الدَّسَم ليأكلاهُ فيموتا وأنفردُ بالكنزِ دونَهما. ثم أتبعَ القولَ بالفعل، وكان الرجلان الآخرانِ متواطئين على أنّه إذا رجع بالطَّعام قتلاهُ وانفردا بالكنزِ دونَه، فلمّا وصل إليهما وثبا عليه وقتلاه، وأكلا من الطَّعام المسمومِ فوقعا في سوءِ عملِهما، فلمّا اجتاز بذلك المكانِ أحدُ الحكماء مع أصدقائه، قال لهم مشيراً إلى الكنز: هذه الدنيا، فانظروا كيف قتلت هؤلاء الثلاثةَ وبَقِيَتْ بعدَهم.

١٤٢ ـ البُرْغوثُ والبَعوضَةُ
إنْ يكنِ الكلامُ منْ فِضَّةٍ فالسُّكُوتُ من ذهب

اجتمع بُرْغوثٌ وبعوضَةٌ في ليل حالك. فقالت البعوضَةُ للبرغوث: إنّي لأعجب من شأني وشأنك، أنا أفصَحُ منك لساناً وأوضحُ بياناً وأرجحُ ميزاناً وأكبرُ شأناً وأكثرُ طيراناً، ومع هذا فقدْ أضرَّ بيَ الجوع، وحرمني الهجوع، ولا أزال عليلةً مجهودةً، نائيةً عن الطَّريق مطرودة، وأنت تأكل وتشبع، وفي نواعِم الأبدانِ ترتع. فقال البرغوث: أنتِ بين العالمِ مُطَنْطِنَةٌ وعلى رؤوسهم مُدَنْدِنَة، وهأنذا توصَّلْتُ إلى قوتي بسبب سكوتي. [الكامل]

إنَّ القليلَ مِنَ الكلام بِأهْلِهِ حَسَنٌ وإنَّ كثيرَهُ ممقوتُ
ما زَلَّ ذو صمتٍ وما مِنْ ناطقٍ إلَّا يَزِلُّ وما يُعابُ صَموتُ
إنْ كَانَ منطقُ ناطقٍ مِنْ فِضَّةٍ فالصَّمْتُ دُرٌّ زانه الياقوتُ

١٤٣ ـ الأرنب والأسد
حُسْنُ الاحتيال يُنْجي مِنَ الأهوال

كان أسدٌ في أرضٍ فيها فِئَةٌ مِنَ الوحوش لم تنتفع بشيء مما فيها لخوفها من الأسد. فاجتمعن إليه وقلن له: إنك تصيب منّا الدابّة بعد العبء الشديد، وقد رأينا أنّ

نتَّخذَكَ مَلِكاً ونبعثَ إليك كلَّ يَوْم دابَّةً مؤونةَ غذائِك. فرضي الأسدُ بذلك، ثم أخذتِ الوحوشُ يَقْتَرِعْنَ ومَنْ خرجَتِ القُرْعَةُ عليه بَعَثْنَ بِهِ إليه، وداوموا على ذلك مُدَّة إلى أن أصابتِ القرعَةُ أرنباً، فانطلقت إليه ببطءٍ حتى جاعَ وغضِبَ وقال: من أينَ أقبَلْتِ؟ قالت: أنا رسولُ الوحوشِ إليك بعثنني ومعي أرنَبٌ لك فَتَبِعَني أسدٌ فأخذها منّي غَصْباً، فقلت له: إنّ هذا غذاء الملك أرسَلَتْهُ الوحوشُ إليه فلا تَغْصِبَنَّه، فسبَّك ولعنَك. فأقبلتُ إليك لأنبِئَكَ بحقيقة هذا الصَّؤول[٦٨]. فقال الأسد: انطلقي معي فأريني موضِعَ هذا الأسد. فانطلَقَتْ معه إلى جُبٍّ[٦٩] فيه ماء، فنظر فرأى ظلّه وظلّ الأرنبِ في الماء، فَوَثَبَ إليه ليقاتِلَه، فغرِقَ في الجبِّ، وانقلبتِ الأرنبُ إلى الوحوش فأعلَمَتْهُنَّ صنيعها بالأسد ففرِحْنَ كثيراً بنجاتِهِنَّ من ذلك العدوّ السوء.

١٤٤ ـ مجيرُ أُمِّ عامرٍ والضَّبع
وضع الإحسان في غير موضعه

خرج فتيانٌ يتصيَّدون في البيداء، فصادفوا ضبعاً لجأت إلى مأوى امرئ، يسكن تلك النواحي، فأقبل عليهم بالسَّيف مسلولاً لِيُبْعِدَهُم عنها، فقالوا له: لماذا تمنعنا من صيدنا؟ قال: لَئِنْ لَمْ تنتهوا عن صيدِها لأسْفِكَنَّ دماءَكم، فتركوها وانصرفوا، وجعل يسقيها اللَّبَنَ ويعطيها مُؤونَةً جَيِّدة حتى حَسُنَتْ هيئتها، فبينما هو ذاتَ يوم نائمٌ عَدَتْ عليه صَؤولةً بأنيابها، وشقَّت بطنه وشرِبَتْ دمَه. فأنشد ابنُ عمِّه: [الطويل]

وَمَنْ يَصْنَعِ المعروفَ في غَيْرِ أَهْلِه ... يلاقي كما لاقى مجيرُ أمِّ عامرِ
أعَدَّ لها لَمّا استجارَتْ بِقُرْبِه ... مَعَ الأمنِ ألبانَ اللِّقاح الدَّرايرِ
فأشبَعها حتّى إذا ما تمكَّنَتْ ... فَرَتْهُ بأنيابٍ لها وأظافِرِ
فَقُلْ لذوي المعروف هذا جزاء مَنْ ... يُوَجِّهُ معروفاً إلى غيرِ شاكِرِ

١٤٥ ـ المأمونُ وكاتبٌ على حائِطِ قصرِهِ

[الطويل]

إذا كُنْتَ في أَمْرٍ فَكُنْ فيه مُحْسِناً ... فعمَّا قليلٍ أنتَ ماضٍ وتارِكُهْ

أشرَفَ المأمونُ يوماً على قصره فرأى امرأً يكتُبُ بِفَحْمَةٍ على حائِطِه هذين البيتين: [البسيط]

يا قَصْرُ جُمِّعَ فيك الشُّؤْمُ واللومُ ... متى يُعَشِّشُ في أركانِك البومُ
يوماً يُعَشِّشُ فيكَ البومُ من فَرَحي ... أكونُ أوّلَ مَنْ يَنْعاكَ مرغومُ

فقال لبعض خَدَمِه: أحضرْ هذا الرَّجُلَ! فتوجّه إليه وقال له: أجب أميرَ

---

[٦٨] ـ الصَّؤول: الشديد الصَّوْل، وهو السَّطوة والقهر.
[٦٩] ـ جُبّ: بئر.

المؤمنين. فقال الرجل: سألتُك بالرَّؤوفِ الرحمن ألّا تذهب بي إليه. [البسيط]

فَإِنْ قَدِرْتَ فلا تفعلْ سوى حَسَنٍ ... بينَ الأنامِ[٧٠] وجانِبْ كلَّ ما قَبُحا

فقال الخادم: لا بُدَّ من تَوَجُّهك حالاً معي. فلمّا مثل بين يديه قال: يا أميرَ المؤمنين، إنّه لا يخفى عليك ما حواه قصرُكَ من خزائِنِ الأموال، وإنّي مَرَرْتُ عليه الآنَ وأنا جائع، ولا فائدةَ لي فيه، فلو كان خراباً ومرَرْتُ به لم أَعدِمْ رخامة أو غيرَها أبيعُها وأَتَقَوَّتُ بثمنها، ولا يَعْزُبُ[٧١] عنْ علم أميرِ المؤمنين أطال الله بقاءَه قولَ القائل: [الطويل]

إذا لم يَكُنْ للمرءِ في دولةِ امرئٍ ... نصيبٌ ولا حَظٌّ تمنَّى زوالَها

وما ذاكَ مِنْ بُغْضٍ له غيرَ أنَّه ... يرى غيرَها خيراً فَيَهْوى انتقالَها

فأمر له المأمون بألفِ درهم، وانصرفَ ينشِدُ قولَ الشاعر: [الطويل]

وكُلُّ امرئٍ يولي الجميلَ مُحَبَّبٌ ... وكلُّ مكانٍ يُنْبِتُ العِزَّ طيِّبُ

١٤٦ ـ شاعرٌ بينَ يَدَيْ بعضِ الخلفاء
الحسنة بِعَشْرِ أمثالِها(*)

استدعى بعضُ خلفاءِ مصر علماءَ مملكَتِه في يوم عيدٍ لزيارَتِه، فصادَفَهُمْ شاعرٌ في طريقِهم على كتفه جرَّةٌ ذاهباً إلى النِّيل ليملأها، فتبعهم حتّى مثلوا بين يدي الأمير، فبالغَ في تعظيمهم، ثمّ نظرَ إلى ذلك الرَّجُلِ، والجرَّةُ على كتفه، وقال: ما حاجَتُك يا هذا؟ فأنشد قائلاً: [الطويل]

ولمّا رأيتُ القَوْمَ شدُّوا رحالَهم ... إلى بَحْرِكَ الطَّامي أَتَيْتُ بِجَرَّتي

فقال: املأوا جرّته ذهباً، فَمُلِئَتْ وخرج بها الرَّجل وفرّقها على الفقراء، فبلغ ذلك الخليفَةَ فاستحضَرَه، وعاتَبَهُ على فِعْلِه، فأنشد ثانياً: [الطّويل]

يَجودُ علينا الخيِّرونَ بمالِهِمْ ... ونحنُ بمالِ الخيِّرينَ نجود

فأَعْجِبَ الخليفةُ بجوابِه، وأمرَ أن تُمْلأَ له عَشْرَ مرات، فقال الشاعر: الحمدُ لله، الحسنةُ بِعَشْرِ أمثالِها.

١٤٧ ـ القِطّان والقرد
من اغتصبَ شيئاً حُرِم، ومن التجأ إلى قُضاة السوء ظُلِمْ.

اختطف قِطّانِ قطعةَ جبنة واختلفا في قسمتها، فترافعا إلى القِرْدِ ليقسمَها بينهما،

---

[٧٠] ـ الأنام: الخَلْقُ، البشر.

[٧١] ـ يَعْزُبُ: يبعد ويخفى.

(*) المثل هنا بمعنى الصِّفة.

فقسمها قسمين: صغيراً وكبيراً ووضع كلاً منهما في كِفَّةِ ميزانه، فرجحَ الكبيرُ، فقَضَمَ منه شيئاً بأسنانه وبلعه وهو يتظاهر أنّه يريد مساواتَه بالصغير، غير أنّه لمّا كان ما أخذه زائداً عن القَدْرِ اللازم رجح الصغير طبعاً، ففعل به ما فعله بذاك، ولم يزل هكذا حتى كاد يذهب بهما فصاح به القطّان: قد رضينا بهذه القسمةِ فأعطِنا ما بقي، قال: إذا كنتما رضيتما بهذه القسمةِ فإنَّ العَدْلَ لا يرضى، وما برح يَقْضِمُ القسمَ الرَّاجح منهما حتّى أتى عليهما فَرَجعَ القِطّانِ خائِبَيْنِ آسِفَيْنِ ينشدان قول القائل: [الوافر]

إذا خـانَ الأمـيـرُ وكـاتـبـاه وقاضي الأرضِ داهَنَ[٧٢] في القضاء
فَـوَيْـلٌ ثُـمَّ وَيْـلٌ ثُـمَّ وَيْـلٌ لقاضي الأرضِ من قاضي السماء

١٤٨ ـ المأمون والأعرابي
بَراعَةٌ في حُسْنِ السُّؤال

جاء أعرابي إلى المأمونِ وأنشدَ قائلاً: [الكامل]

إنّي رأيتُكَ في منامي سيِّدي يا ابنَ الكرام على الجوادِ السَّابق
فكسَوْتني حُللاً لطائِفَ حسنُها يزهو على حُسْنِ الكميتِ اللّاحق

فقال المأمون: أعطوه حللاً وفرساً. فقال: [الكامل]

وأجزتني بخريطةٍ مملوءةٍ ذهباً وأخرى باللُّجَيْنِ الفائِق
وحبوتَني بركوبة نجدِيَّةٍ سوداءَ تنهض بالغلام الآبقِ[٧٣]

فأمر له بناقةٍ نَجْدِيَّةٍ سوداءَ وغلام وأربعمائةِ دينارٍ، ثم قال له: إيّاكَ أيّها الأعرابي إيّاكَ أن ترى مثلَ هذا المنامِ مرَّة أخرى فإنّك لن تجد امرأ يعبره، ويفسِّره لك.

١٤٩ ـ شعراء مصر عند الوالي

كان مِنْ دَأْبِ شعراءِ مصر أن يأتوا الوالي كلَّ سنة في عيد الأضحى ليهنّئوه بالقصائد، فينالوا الجوائزَ، وبينما كانوا لديه إذ هاجت العواصف وحدثت زلزلةٌ ارتجَّت منها ديارُ مصر، فالتفت الوالي إلى أولئك الشعراء قائلاً لهم: هل منكم من يُطْرِفُنا بديهياً بِشِعْرٍ تَطْمَئِنَّ به أفئدَتُنا، وتتلألأ به فرحاً وجوهُنا، يكون مضمونُه هذه الزلزلة؟

فقال بعضهم مرتجلاً: [البسيط]

يا حاكمَ الفضلِ إنَّ الحقَّ مُتَّضِحُ لدى الأنام أيا ابنَ السَّادَةِ النجبا[٧٤]

---

[٧٢] ـ داهن: أظهر خلافَ ما أضمر، وداهن فلاناً: خدعه وغشّه.

[٧٣] ـ الآبق: الهارب.

[٧٤] ـ وقع الشاعر في خطأ إعرابي فالنعت (النجبا) منصوب والمنعوت (السّادةِ) مجرور.

ما زلزلَتْ مصرُ مِنْ كيد ألَمَّ بها لكنَّها رَقَصَتْ مِنْ عدلِكُم طربا

فملئ الوالي سروراً وقال: املأوا فمه لآلئاً[٧٥] وذهباً.

١٥٠ ـ أبو دلف وجاره

خذِ الجار قبل الدار

يروى أنّ رجلاً كان جاراً لأبي دلف ببغداد، فأدركته حاجة وركبه دَيْنٌ فادح حتّى احتاج إلى بيع داره، وطلب ثمناً لها ألفَ دينار، فقالوا له: إنّ دارَك لا تساوي أكثرَ من خمسمائةِ دينار. فقال: أجلْ ولكنّني أبيعُها بخمسمائةٍ وأبيعُ جوارَهَا بخمسمائةٍ أخرى فبلغ القولُ أبا دلف، فأمر بقضاءِ دينه ووصله وواساه. ولله درُّ القائل: [الطويل]

يلومونَنِي أنْ بِعْتُ بالرُّخْصِ منزلي ولم يعلموا جاراً هناك يُنَغِّصُ

فقلت لهم كُفُّوا الملامَ فإنّما بجيرانِها تغلو الدِّيارُ وتَرْخُصُ

١٥١ ـ المهلّب بن أبي صفرة وأولاده

القوّة في الاتحاد

لما أشرف على الوفاةِ المهلَّبُ بنُ أبي صفرة أحدُ رؤساءِ جيش عبد الملك بن مروان، استدعى أبناءَه السَّبْعَةَ، وبذل لهم النصائحَ التي تنفعهم دنيا وأخرى. ثم أمرهم بإحضار رماحِهم مجتمعة، وتقدّم إليهم أن يكسروها واحداً فواحداً مبتدئاً بأصغرهم، فلم يقدروا. فقال لهم: فرّقوها وليتناوَلْ كلُّ واحدٍ رمحَه ويكسره، فكسروها دون كبيرِ عناءٍ، فعند ذلك قال لهم: اعلموا أنَّ مَثَلَكُم مَثَلُ هذه الرماحِ، فما دمتم مجتمعين ومؤتلفين يَعْضُدُ بعضُكم بعضاً، لا تنال منكم أعداؤكم غَرضاً، أمّا إذا اختلفتم وتفرّقتم فإنّه يضعف أمرُكم، وتتمكَّنُ منكم أعداؤُكم، ويصيبُكم ما أصابَ الأرماح: [الكامل]

كونوا جميعاً يا بَنِيَّ إذا اعترى خَطْبٌ ولا تتفرّقوا آحادا

تأبى الرِّماحُ إذا اجتمَعْنَ تكسُّراً وإذا افترقن تكسَّرت أفرادا

التاجر والوالي

الاعتراف والإقرار أولى من الإنكار

كان امرؤ من التُّجّارِ يستحِمُّ في نهر، وقد وضع صُرَّة مملوءة لآلئ وأموالاً كانت معه على شاطئ ذلك النهر، فجاءت حِدأَةٌ[٧٦] والتقطت الصُّرَّةَ وطارت، فجرى وراءها لينتَشِلَ منها ما اختلسته حتى أعيا، لبطء حركته وسرعة طيرانها، فكاد يطير عقله،

[٧٥] ـ الصَّواب لآلئ لأنها على وزن مفاعل الممنوع من الصّرف.

[٧٦] ـ الحِدَأة: طائر من الجوارح ينقضّ على الجرذان والدّواجن وغيرها.

وقصد إلى والي البلدة وأنبأه بذلك مؤمِّلاً منه أن يجدَ له صرَّته. فسأله الوالي: إلى أيّ الأنحاء كان اتجاهُ الحِدَأة؟ فأومأ إلى بعض القرى، فقال له الوالي: اذهبْ وائتني بعد أيام. فاتمر بأمره. ثم أنفذ الوالي إلى رئيس تلك القرية أن أنبئْني بمن أثرى في قريتك الآن بعد أن كان في بؤس. فأنهى: إن فلاناً كان ضئيل الحال فأصبح ذا فِرَةٍ[٧٧] ونعمةٍ كأولي الغنى، فأمر بإشخاصه. فلمّا انتهى إليه قال له: أين صُرَّة اللآلئ والأموالِ التي وقعت عندك يوم كذا؟ فقال الرَّجل في نفسه: علامَ أُنكرُ والوالي عالمٌ بالمسألة؟ فأقرّ بها وقال: هي عندي برمَّتِها لم آخذْ منها غيرَ بعضِ دريهمات صرفتها في إصلاح شؤوني، لَئِنْ شئتَ سامحتني بها، فأبرأ ذِمَّتَه منها، وكافأه على صِدْقه وقال: لو أتيتني بالصُّرَّةِ من غير سؤال منّي لأجْزَلْتُ[٧٨] لك المكافآت. ثم رَدَّها إلى صاحبها، وعوّض له ما فُقِدَ منها.

١٥٣ ـ التّاجر وابنه الصادق الأمين
الدِّين المعاملة

أرسل تاجر ابنه إلى بعض عملائه بصُرَّة فيها مبلغ كان متأخراً له عليه مِنْ ثمنِ بعضِ البضائع، وفيما هو سائرٌ بها وقعت منه على شاطئ نهر، ولم يشعر بفقدها إلّا قربَ وصوله إلى محلِّ قصده، فآب عوداً على بَدْءٍ يبحث عنها، فجلس تحت شجرة نائحاً قائلاً:

ربي، إنّي ضئيلٌ سَيِّئُ الحظِّ، لا عاضدَ لي سواك، فأرشدني إلى ضالَّتي كي أشكرَ فضلك وبوِّئني[٧٩] مبوأ صِدق، إنّك المبدئ المعيد: [الكامل]

يا من يُرَجّى في الشدائد كلِّها ... يا من إليه المشتكى والمفْزَعُ
ما لي سوى قرعي لبابِكَ حيلةٌ ... فَلَئِنْ رَدَدْتَ فأيَّ بابٍ أقرَعُ

فاتّفق وقتَئِذٍ أنْ مَرَّ أميرٌ من الأمراء، فسمع بكاءه، فدنا منه وسأله عن سبب بكائه، فقصّ عليه قِصَّته. فأخرج الأميرُ من جيبه صُرَّةً حسنة فيها لآلئُ ذهبية، وقال له: أهذه؟ فنظر إليها الولد وقال: لا. فأخرج الأمير صُرَّةً أخرى كان قد عثر عليها وسأل الولد: أهذه؟ فقال: نعم هي بعينها. فأعطاه الأميرُ إياها، وأضاف إليها الأولى بما فيها جزاءَ صِدْقِه، وأنشد قول القائل: [البسيط]

أجَلُّ للمرءِ من مجدِ الغنى شرفاً ... مجد الوفاء وتقوى الله والكرم
وأرفع الناس عندَ الله منزلة ... من لم يكنْ لحقوقِ النَّاس يَهْتَضِمُ

---

[٧٧] ـ فِرَة: الكثرة والاتّساع.
[٧٨] ـ أجزل العطاء: أوسع فيه وأكثر.
[٧٩] ـ بوَّأه: أنزله في المكان فأقام فيه.

١٥٤ ـ هشام وفتى صغير
من عرف بالفصاحة، لاحظته العيون بالوقار

وفد على هشام رؤوس القبائل، فجلس لهم، ودخلوا عليه، وكان فيهم فتى يبلغ[٨٠] سِنُّه أربعَ عَشْرَةَ سَنَةً، وكان في رأسه ذؤابة، وعليه عباءة، وفي يده مِنْسَأة[٨١]. فنظر إليه هشام، والتفت لحاجبه وقال له: ما شاء امرؤ أن يدخل عليَّ إلّا دخل حتى الصبيان، فوثب الفتى بين يديه وقال: يا أمير المؤمنين، إنّ دخولي عليك لم يحط بقَدْرِك، ولكنّه شرّفني، وإنّ هؤلاء الوفودَ قد ائتمنوني وأتمّوا بي، وقدموا في أمر فهابوك دونه، وإنَّ للكلام نَشْراً وطيّاً، وإنّه لا يعرف ما في طيّه إلّا بنشره. فإنْ أذِنَ أميرُ المؤمنينَ أنْ أنشُرَه نَشَرْتُه. فأعجبه كلامه وقال: أنشُرْه. فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنّه أصابتنا سنونٌ ثلاث: سَنة أذابت الشَّحم، وسنةٌ أكلتِ اللّحم، وسنة دقَّتِ العظم. وفي أيديكم فضولُ مال، فإن كانت لله ففرِّقوها على عباده، وإن كانت لهم فعلامَ تحبسونها عنهم؟ وإن كانت لكم فتصدَّقوا بها عليهم، فإنَّ الله يجزي المتصَدِّقين. فقال هشام: ما تركَ الغلامُ لنا في واحدةٍ عذراً، وأمرَ له ولهم بالصِّلاتِ الجزيلة.

١٥٥ ـ الحجَّاجُ وعامله
لا تقصروا أولادَكم على آدابكم فإنّهم خلقوا لزمانٍ غيرِ زمانكم

لما تولّى الحجاجُ شؤونَ العراق أمرَ مرؤوسَه أن يطوفَ بالليل، فمن وجده بعد العشاء ضرب عنقه، فطافَ ليلة فوجد ثلاثةَ صبيانٍ فأحاطَ بهم وسألهم: من أنتم، حتى خالفتم أوامرَ الرئيس؟

فقال الأول: [المنسرح]

أنا ابنُ الّذي هانتِ الرِّقابُ له ... ما بينَ مخدومِها وهاشِمِها
تأتي إليه الرِّقابُ صاغرةً ... يأخذُ من مالِها ومِنْ دَمِها

فأمسك عن قتله، وقال: لعلّه من أقاربِ الأمير.

وقال الثاني: [الطويل]

أنا ابنُ الذي لا يُنْزِلُ الدَّهْرَ قِدْرَهُ ... وإن نَزَلَتْ يوماً فسوفَ تعودُ
ترى الناسَ أفواجاً إلى ضوءِ نارِه ... فمنهم قيامٌ حولها وقعود

فتأخّر عن قتله، وقال: لعلّه من أشراف العرب.

وقال الثالث: [الطويل]

أنا ابنُ الذي خاضَ الصُّفوفَ بعزمه ... وقوَّمَها بالسَّيْفِ حتى استقامَتِ

---

[٨٠] ـ الصّواب تبلغ لأنّ السِّنَّ بمعنى العمر أنثى (اللّسان: سنن).
[٨١] ـ المِنْسَأة: العصا الغليظة التي تكون مع الرّاعي.

ركـابـاه لا تـنـفَـكُّ رجـلاهُ عـنـهـمـا إذا الـخـيـل فـي يـومِ الـكـريـهـة وَلَّـتِ

فترك قتله، وقال: لعلّه من شجعان العرب.

فلمّا أصبح رَفَعَ أمرَهُم إلى الحجَّاج، فأحضرَهُمْ وكشَفَ عن حالهم فإذا الأوّلُ ابنُ حجَّام، والثاني ابن فوَّال، والثالث ابن حائك. فتعجّب الحجّاج من فصاحتهم، وقال لجلسائه: علِّموا أولادكم الأدب، فلولا فصاحَتُهم لَضَرَبْتُ أعناقهم، ثمّ أطلقهم وأنشد: [المنسرح]

كـن ابـنَ مَـنْ شـئـتَ واكـتَـسِـبْ أدبـاً يـغـنـيـك مـحـمـودُه عَـنِ الـنَّـسـب
إنَّ الـفـتـى مـن يـقـول هـا أنـذا لـيـس الـفـتـى مـن يـقـولُ كـانَ أبـي

١٥٦ ـ محمد بن هلال والمعمر

احتقار الصغير من عدم التدبير

قال محمد بن هلال: بعث إليَّ المعمر برسالة يطلب مني بغلة مُسْرَجَة ولم تكن منزلته عندي منزلةً مرعية، فرددت الرسالة ولم أجبه عنها. ثم إنّه بعثها إليّ وعلى ظهرها مكتوب: [الطويل]

عـسـى سـائـلٌ ذو حـاجـةٍ إنْ مَـنَـعْـتَـه مـن الـيـوم سـؤلاً أن يـكـونَ لـه غَـدُ
فـإنّـك لا تـدري إذا جـاءَ سـائِـلٌ أأنـتَ بـمـا تـعـطـيـه أوْ هُـوَ أسـعـد

فأعدتها إليه من غير جواب كما فعلت أوّلاً، حتى ضرب الدهر ضرباتِه فصرف العلاء، ووَزرَ المعمر، وكنت إذ ذاك متولّياً شؤوناً شتى، فأنفذ إليّ من أشخصني إلى شيرازَ، فوردت عليه وأنا لا أشكُّ في قتلي لما تقدّم من سوء فعلي معه، فقرّبني وأكرمني أياماً وأنا من شأنه مُتَعَجِّب. فلمّا كان بعد أيام قمت من مجلسه منصرفاً فأتبعني الحاجب وقال: الوزيرُ يريد أن يخلوَ بك، فلمّا خلا مجلسُه استدعاني، وأسرَّ إلى بعض خدمه شيئاً.

فمضى وعاد، ومعه الرسالة بعينها، فلما أتى قرأت بحيث يسمع ﴿مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٣] فقال لي: لا تَرُع، أوقفتك على سوء فعلك حتى لا تستصغر بعدها أمراً ولا تطرح مراعاة العواقب فيصير الدهر لك غيرَ صاحب، وليكن هذا الفعل لأخلاقك مهذباً ثم خلع عليّ ووصلني وردّني إلى منصبي.

وما أحسن قول القائل: [البسيط]

لا تَـحْـقِـرَنَّ امـرأً قـد كـان ذا ضَـعَـةٍ فـكـم وضـيـعٍ مِـنَ الأقـوام قـد رَأسـا
فَـرُبَّ قَـوْمٍ جـفـونـاهُـمْ فـلَـمْ نَـرَهـم أهـلاً لـخـدمـتـنـا صـاروا لَـنـا رُؤَسـا

١٥٧ ـ أنوشروان وولي عهده

لا يُؤْمِنُ أحدُكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه

لما أراد أنوشروانَ أن يُوَلِّي وليَّ عهدِه استشار أولياءَه في ذلك، فكلٌّ ذكر عيباً لا يستحقّ به الملك، فمن قائل: لا يصلح للملك لأنّه قصير، وذلك مما يذهب بهاء الملك، فقال أنوشروان محتجاً: لا يكاد يرى إلّا راكباً أو جالساً على سريره فلا يظهر عليه ذلك، ومن قائل: إنه ابن رومية، والملك إذا كان ابن أَمَةٍ نقصه ذلك في أعين الناس، فقال أنوشروان محتجاً: إن الأبناء ينسبون إلى آبائهم، ولا ينسبون إلى الأمهات، فلا يضرّه ما قلت. فقال المرزبان: إنّ فيه عيباً وهو أنّه مبغض للناس. فقال أنوشروان عند ذلك: هذا هو العيب الذي لا مدحَ معه ولا عذرَ عنه، والدَّاءُ الذي لا بُرْءَ له. فقد قيل: من كان لا يحبُّ الخير للناس ويرتضيه، فلا خيرَ فيه.

١٥٨ ـ امرؤ القيس وقيصر الروم والسموأل

لا يفي بالعهود، إلّا كل حر معهود

لما أراد امرؤ القيس المضِيَّ إلى قيصرِ الروم أودَع عند السموأل دروعاً وسلاحاً وأمتعة تساوي من المال ثلثمائة ألفِ دينار، فلما مات امرؤ القيس أرسل قيصر يطلب الأشياء المودَعَة عند السموأل فقال: لا أدفعها إلّا لمستَحِقِّها، ولا أغدر بذِمَّتي، ولا أخونُ أمانتي، ولا أتركُ الوفاء الواجبَ عليّ، فقصده قيصر بعسكره فدخل السموألُ في حصنه، فحاصره قيصر وأخذ ولده أسيراً، وقال للسموأل: إنَّ ولدَك ها هو معي، فإن أسلمت إليَّ الدروعَ والسلاح التي لامرئ القيس عندك سَلَّمْت إليك ولدَك ورحلت عنك، وإن امتنعت من ذلك ذبحت ولدك وأنت تنظر، فاختر أيَّهما شئت، فقال السموأل: ما كنت لأخفر ذمامي، وأبطل وفائي، فاصنع ما شئت. فذبح ولده وهو ينظر، ثم عجز عن الحصن ورجع خائباً. فلمّا جاء الموسم وحضرت ورثة امرئ القيس، سلّم إليهم الدروع والسلاح، ورأى حفظ ذمامه ورعاية وفائه أحبَّ إليه من حياة ولده وبقائه. وقتئذٍ صارت الأمثال تُضْرَب بالسموأل في الوفاء، وقد قال في قصيدته المشهورة: [الطويل]

إذا المرءُ لم يَدْنَسْ مِنَ اللؤم عِرْضُهُ ... فكلُّ رداءٍ يرتديه جميل
وإنْ هُوَ لم يحمِلْ على النَّفْسِ ضَيْمَها ... فليس إلى حسنِ الثَّناءِ سبيل

الباب الثاني

في الألف اللينة، وفيه خمسة مباحث

المبحث الأول

الألف اللينة[٨٢] هي الساكنة التي قبلها فتحة، نحو: سما، العلا، ولها موضعان: الوسط والآخر.

أما التي في الوسط فتكتب ألفاً مطلقاً سواء أكان توسُّطها أصلياً، نحو: قال عامر، أو كان التوسط عارضاً(١) نحو: فتاك يخشاني، ونحو: إلامَ وعلامَ وحتَّامَ وبمقتضامَ؟

المبحث الثاني

الألف التي في الآخر تكتب ألفاً في مواضع:

١ ـ إذا كانت في حروف المعاني، نحو: لولا، ولوما، وألا، وكلا، وإذا،

(١) التوسط العارض بأن دخلت إلى وعلى وحتّى على ما الاستفهامية التي لم تتصل بهاء السكت[٨٣] كما مثل، فإن اتصلت بهاء السكت بقيت الأحرف الثلاثة مكتوبة بالياء، نحو: إلى مه وعلى مه وحتى مه وبمقتضى مه. وكذا إذا دخل حرف منها على استفهام آخر غير ما، تبقى الأحرف الثلاثة مكتوبة بالياء، نحو: إلى ماذا وعلى ماذا وحتى ماذا. أو دخلت حتّى على الضمير، نحو: حتاك، فإن دخلت على الظاهر كتبت بالياء، نحو: حتى مطلع الفجر، أو اتصل الفعل بضمير المفعول، ولم يكن قبل الألف همزة، نحو: يهواك، فإن كان قبلها همزة حذفت وعوض عنها مدة، نحو: رآه. أو اتصل الاسم بضمير ولم يكن قبل الألف همزة، نحو: عصاه وفتاه، فإن كان قبل الألف همزة، نحو: لأي، حذفت الألف وعوض عنها مدة، فنقول: لآه «أي ثوره». واعلم أن الفصل بين الفعل وضمير المفعول بنون الوقاية لا يخرجه عن الاتصال، نحو: رماني بخلاف رمى، ونادى لي.

[٨٢] ـ الألف الليّنة مَدٌّ ناشئ عن إشباع الفتحة فوق الحرف الذي سبقها ولا تأتي في أوّل الكلمة، ولا تقبل الحركة.

[٨٣] ـ في شرح الشافية ٣/ ٣١٥ «من شدّة اتصال (ما) بالحرف كتبت حتّى وإلى وعلى بألفات، ولم تكتب بالياء؛ وذلك لأنّ كتابتها بالياء إنّما كانت لانقلاب ألف (إلى وعلى) ياء مع الضمير، نحو: «عليك وإليه، ومع (ما) الاستفهامية التي هي كالجزء صارتا نحو: غلام وكلام».

وخلا، وعدا، وحاشا، غير أربعة منها تكتب بالياء، وهي: إلى، وعلى، وحتى، وبلى، لإمالة الأخير وانقلاب الألف ياء عند الاتصال بالضمير في الثلاثة قبله[٨٤].

٢ ـ أو كانت في الأسماء المبنية، نحو: أنا، وذا، ومهما، وهنا، غير خمسة تكتب بالياء، وهي: أنّى، ومتى، ولدى، وأولى (اسم إشارة)، والأولى (اسم موصول).

٣ ـ أو كانت ألف العوض المبدلة من ياء المتكلم في المنادى، وألف المندوب والمستغاث به، نحو: يا غلاماً، واولدا، يا ربا(١).

٤ ـ أو كانت منقلبة عن الواو في الاسم والفعل الثلاثيين، نحو: عصا، وذرا(٢)، وسما، ودعا.

٥ ـ أو كانت في الأسماء الأعجمية مطلقاً سواء أكانت ثلاثية أو غير ثلاثية، وسواء أكانت أسماء أشخاص أو بلاد أو طيور أو فنون أو غير ذلك، نحو: أغا، ويهوذا، وزليخا، وطنطا، وشبرا، وطهطا، وبنها، وألمانيا، وروسيا، وببغا، وموسيقا. ويستثنى من ذلك أربعة أسماء تكتب بالياء، وهي: موسى، وعيسى، وكسرى، وبخارى[٨٥].

---

(١) ومثلها ألف الإطلاق والإشباع والمبدلة من نون التوكيد والمبدلة من التنوين وقفاً حال النصب، والمبدلة من نون إذاً الواقعة في المجازاة والجواب. وكذا المبدلة من هاء التأنيث[٨٦].

(٢) وخالف الكوفيون فكتبوا مضموم الأولى ومكسوره بالياء[٨٧].

---

[٨٤] ـ قال الفاكهي في شرحه على القطر ٢/ ٢٧٩ «وأمّا الحروف فلم تكتب منها بالياء غير (بلى) لإمالة ألفه، و(إلى وعلى) لانقلاب ألفهما ياء مع الضمير في (إليك وعليك) و(حتّى) حملاً على إلى لأنّها بمعناها».

[٨٥] ـ أمّا متّى فمنهم من كتبه بالألف (متّا)، ومنهم من كتبه بالياء والأكثر كتبه بالياء. وكتبوا الكُمثرى بالياء مع أنّها أعجميّة.

[٨٦] ـ ومنها ألف الإطلاق في الشعر، نحو: وقولي إن أصبت لقد أصابا وهي أيضاً ألف إشباع حركة الفتح على الباء.

ـ الألف المبدلة من نون التوكيد الخفيفة، نحو: لنَسْفعاً بالناصية.

ـ الألف المبدلة من نون إذن، نحو: إذا.

ـ ألف تنوين النّصب، نحو: اشتريت كتاباً.

ـ كل ما كان ممدوداً فقصرته، نحو: حمراء حمرا.

ـ كل ما كان مهموزاً فسهّلته، نحو: ملجأ ملجا.

الألف الواقعة بعد واو الجماعة في الفعل الماضي، نحو: ذهبوا، أكلوا، وفي الأفعال الخمسة المجزومة، نحو: لم يذهبوا، لم يأكلوا، والمنصوبة، نحو: لن يذهبوا، لن يأكلوا.

[٨٧] ـ طريقة البصريين كتابة الألف التي أصلها واو ألفا، أمّا التي أصلها ياء فتكتب ياء.

لكنّ الكوفيين كتبوا ما كُسِرَ أوّله أو ضُمّ بالياء سواء أكان أصله واوا أم ياء، نحو: العلا كتبها الكوفيون بالياء، مع أنّها من العلو وأصل الألف واو. والحِجا كتبها الكوفيون (الحجى) بالياء، مع أنّها من الحجو وأصل الألف واو.

٦ ـ كل ما ختم بألف قبلها ياء، وهو غير علم، مثل: ستحيا، أحيا، سجايا، ريا، يحيا، زوايا، تزيا.

والعلم يكتب بالياء، مثل: يحيى، ريى.

المبحث الثالث

الألف التي في الآخر تكتب ياء في موضعين:

١ ـ إذا كانت منقلبة عن الياء في الاسم والفعل الثلاثيين، نحو: سعى، الفتى.

٢ ـ أو كانت في الأسماء والأفعال الرباعية فما فوقها، نحو: صغرى، كبرى، سلمى، عذارى، أغنى، زكّى، آوى، اهتدى، استعفى(١).

المبحث الرابع

تعرف الألف المنقلبة عن واو أو عن ياء أو عنهما من كتب اللغة، وأفواه العلماء، غير أنه يمكن معرفة ذلك تقريباً (في الأسماء) بتثنيتها أو جمعها جمع مؤنث سالماً، فإن جاءت الواو فيهما عُلِمَ أن الألف في المفرد منقلبة عن واو

(١) ما لم يكن قبل الياء مثلها، وإلّا كتبت ألفاً، نحو: دنيا ويحيا، إلّا إذا كان علماً، فيكتب بالياء لخفته، نحو: يحيى ـ كما تقدم[٨٨].

[٨٨] ـ تكتب الألف في الأفعال ما فوق الثلاثية ياء مطلقاً، نحو:
أعطى، أمسى، أهوى: رباعي بحسب الأصل.
دوّى، دلّى، سوّى: رباعيّ بالتضعيف.
آتى، آخى، آوى: رباعي بالمدّ.
افتدى، اهتدى، اعتدى: خماسي.
استعلى، استقوى، استعفى: سداسي.
أما في الأسماء فتكتب الألف مقصورة مطلقاً في ما زاد على الثلاثة أحرف:
ـ أوفى، أزكى، أسمى: على وزن أفعل.
ـ مَغزى، مأوى، مهوى: على وزن مَفْعل.
ـ سَكرَى، غضبى، عطشى: على وزن فَعْلى.
ـ ذكرى: على وزن فِعْلى.
ـ أنثى: على وزن فُعْلى.
ـ حُبارى، جُمادى: على وزن فُعالى.
ـ يَتامى، صحارى: على وزن فَعالى.

فتكتب فيه ألفاً وجوباً، نحو: عصا وقطا. تقول في تثنيته: عصوان وقطوان، وفي جمعه: عصوات وقطوات.

وإن جاءت الياء فيهما عُلِمَ أن الألف في المفرد منقلبة عن ياء فتكتب فيه ياء وجوباً، نحو: فتى، ورحى، وحصى. فنقول في تثنيته: فتيان، ورحيان، وحصيان. وفي جمعه: فتيات، ورحيات، وحصيات[٨٩].

وفي الأفعال بمصادرها أو إسنادها إلى ضمير الرفع المتحرك(١)، أو إسنادها إلى ألف الاثنين[٩٠]، فإن جاءت الواو في هذه الأمور الثلاثة عُلِمَ أن الألف في الفعل منقلبة عن واو، فتكتب ألفاً وجوباً، نحو: (دعا) فنقول: دعوت، ودعوا، وإن جاءت الياء في الثلاثة السابقة عُلِمَ أنّ الألف في الفعل منقلبة عن ياء، فتكتب فيه ياء وجوباً، نحو: (رمى): فنقول: رميت رمياً ورميا.

وإن جاءت الثلاثة بالواو والياء، علم أن الألف في الفعل منقلبة عنهما، نحو: عزا، فنقول: عزوت، وعزيت، وعزوا، وعزيا. ومثله: كنا، وصغا، ومحا، وجثى، وطلى، ونما، وجلا، وطحا، ودها.

المبحث الخامس

يوجد في الاسم والفعل الثلاثيين خمسة أمور يستدل بها على أن الألف منقلبة عن ياء، وهي:

١ ـ الإمالة[٩١]: وهي حركة بين الفتحة والكسرة، نحو: كفى، الندى(٢).

٢ ـ وافتتاح الكلمة بواو، نحو: وعى، الورى.

٣ ـ وتوسط الواو في الكلمة، نحو: عوى، الهوى.

---

(١) التاء والنون ونا، نحو: دعوت، دعون، دعونا.

(٢) بمعنى المطر والجود والبلل.

---

[٨٩] ـ يضاف إلى ذلك:

ـ ردّ الجمع إلى المفرد، نحو: قُرى، قَرْيَة فأصل الألف ياء، ذرا، ذروة أصل الألف واو.

[٩٠] ـ يضاف إلى ذلك:

ـ تحويل الفعل الماضي الثلاثي إلى المضارع، نحو: سما، يسمو، رمى، يرمي. دنا، يدنو، روى يروي.

[٩١] ـ الإمالة هي إضجاع فتحة ما قبل الألف إلى الكسرة، فتوجد حركة بين الفتحة والكسرة، نحو: والضُحِى، النّدِى.

٤ ـ وافتتاح الكلمة بهمزة، نحو: أبى فعل الأذى.

٥ ـ وتوسط الهمز في الكلمة[١]، نحو: رأى اللأى[٢].

(١) إلا ستة أفعال وهي: بأى، ودأى، وسأى، وشأى، ومأى، وفأى، فإنها جاءت بالواو والياء، لكن يمتنع أن تكتب ألفاً كراهة اجتماع المثلين. ولا يصح أن يستغنى عن رسم الياء بمدة توضع فوق الألف إلا في حالة ما إذا اتصل بها ضمير المفعول، نحو: مآه[٩٢].

(٢) الثور الوحشي.

[٩٢] ـ بأى: فَخَر، دأى: راوغ. سأى الثوب: مَدَّه فانشقّ. شأى: سبق. فأى: فلقه بالسّيف. مأى: اتّسع.

الباب الثالث

في تقسيم الكلام
إلى ما يجب فصله وما يجب وصله

١ ـ الفصل هو كتابة الكلمة على انفرادها منقطعة عمّا قبلها، وعمّا بعدها[٩٣].

٢ ـ والوصل هو جعل الكلمتين فأكثر بمنزلة كلمة واحدة.

٣ ـ وكل كلمة يصح تقدير الابتداء بها، والوقف عليها، يجب كتابتها منفصلة عن مثلها. وذلك كالأسماء الظاهرة، والضمائر المنفصلة مطلقاً سواء أكانت للرفع أو للنصب، فكل منهما لا يتّصل بشيء من الأسماء، ولا من الأفعال، ولا من الحروف التي تزيد على حرف[٩٤] بخلاف التي تكون على حرف واحد، فيجب وصلها بها(١).

٤ ـ وكل كلمة يبتدأ بها، ولا يوقف عليها، أو يوقف عليها، ولا يبتدأ بها، يجب وصلها بغيرها، والوصل يصيرها كجزء مما تتصل به، وفي هذا الباب خمسة مباحث.

المبحث الأول

الكلمات التي يبتدأ بها، ولا يوقف عليها، توصل بما بعدها، وهي:

١ ـ الحروف المفردة وضعاً كالباء والتّاء والّلام والكاف والفاء والسِّين، نحو: علم بلا عمل كشجرة بلا ثمر.

٢ ـ وأل نحو: الكتاب، المدينة، العلم، الفضل، الوطن.

(١) ومن ذلك يعلم أن من الخطأ ما يفعله بعض الكتاب، وهو وصل الكلمات الآتية ببعضها نحو: يومتاريخه، فيتاريخه، إنشاء الله. وغير ذلك. والصواب فصلها عن بعضها لأن كلاً منها يبتدأ به ويوقف عليه.

[٩٣] ـ قال الرّضي (شرح الشافية (٣/ ٣١٥): «أصل كل كلمة في الكتابة أن يُنْظَرَ إليها مفردة، مستقلّة عمّا قبلها وما بعدها، فلا جرم تكتب بصورتها مُبتدأً بها، وموقوفاً عليها».

[٩٤] ـ أي: أن الحروف الموضوعة على حرفين فأكثرها تكتب منفصلة، نحو: في، عن، لكنْ، ليت، لعلّ...

٣ ـ والظروف المضافة إلى إذ المنوّنة تنوين عوض، نحو: وقَتئذٍ، يومَئِذٍ، ليلَتَئِذٍ، صبيحَتَئِذٍ، ساعَتَئِذٍ[٩٥].

٤ ـ وأول المركب المزجي نحو: بعلبَكّ، معديكرب، إلّا أحد عشر وأخواته.

٥ ـ وما رُكِّب مع كلمة (مائة) من الآحاد المضافة إليها(١)، نحو: ثلثمائة، وأربعمائة، وخمسمائة، وستمائة، وسبعمائة، وثمانمائة، وتسعمائة[٩٦].

المبحث الثاني

الكلمات التي يوقف عليها، ولا يبتدأ بها توصل بما قبلها وهي:

١ ـ الضمائر المتصلة(٢) بأقسامها نحو: كتبتُ، كتبْنَا، كتبْتَ، أكرمني، أكرَمنا، أكرمَك، إنّنا، إنّك، غلامي، غلامُنا غلامُك الخ(٣).

٢ ـ وعلامة التأنيث، نحو: المرأة كَتَبَتْ.

٣ ـ وعلامة التثنية، نحو: إنّ الرَّجُلينِ لقائمانِ.

٤ ـ وعلامة الجمع السالم للمذكّر والمؤنّث نحو: إنّ المؤمنينَ لناجونَ، إنَّ المؤمناتِ لناجياتٌ.

٥ ـ ونونا التوكيد وغيرهما من الحروف المفردة وضعاً، نحو: ليحفظَنَّ محمّدٌ درسَه، لنسفعَنْ بالنَّاصية، ذلكم بما كنتم تستكبرون في الأرض.

المبحث الثالث

من الكلام الذي يجب فصله بعض كلمات توصل بأخرى في أحوال خاصة بها وهي لفظة ما، ومن، وأن، وإن.

---

(١) وصلوا ذلك للتخفيف. واعلم أنه إذا أضيفت الكسور إلى المائة فلا توصل بها، نحو: ثلث مائة، وربع مائة، وخمس مائة مضمومة الأوائل. فتفصل المتميز بين الآحاد والكسور.

(٢) هذا إذا لم يقصد لفظها. فإن قصد لفظها صارت كالأسماء الظاهرة فلا توصل بها إلا بالحروف المفردة كقولهم. تكتب ها موصولة بذا الإشارة لحذف ألف ما لم تكن بعد ذا كاف، وإلا فصلت ذا من ها.

(٣) ومجموع الضمائر المتصلة ستة وثلاثون ضميراً اثنا عشر متّصلا بالفعل. واثنا عشر متّصلا بالاسم. واثنا عشر متّصلا بالحرف.

---

[٩٥] ـ إذا ذكرت الجملة المحذوفة المعوَّض عنها بالتنوين وجب الفصل، نحو: رأيتك حين إذ كنت تعاتب صديقك.

[٩٦] ـ يستثنى من ذلك ما رُكّب معها من الكسور، نحو: ثُلْثُ مئة، خُمْسُ مئة...

فالأولى: (ما) وتنقسم إلى اسمية وحرفية. وأنواع الاسمية خمسة: استفهامية، وشرطية، وتعجبية، وموصولة، وموصوفة.

فأولاً: الاستفهامية وهي توصل ببعض حروف الجر، وهي: مِنْ، وإلى، وعنْ، وعلى، وفي، وحتّى، والباء، واللام، نحو: ممّ تشكو؟ إلامَ هذا الكسل؟ عَمَّ يتساءلون؟ علامَ تستند؟ فيمَ تذاكر؟ حتّامَ تتهاون؟ بمَ أكافئُك؟ لمَ لا تحترم إخوانك؟[١]

وتوصل أيضاً بالاسم المضاف إليها، نحو: بمقتضامَ فعلت كذا: وإذا لحقت هاء السكت ما الاستفهامية فصلت، نحو: إلى مَهْ تتكاسل؟ ونحو: على مَهْ تعتمد؟ ونحو: بمقتضى مَهْ تضربه؟

ثانياً: الشرطية نحو: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٩٧]، فلا توصل بشيء لأن لها الصدارة. هي نوعان:

زمانية نحو: ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٧].

وغير زمانية نحو: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٩٧].

ثالثاً: التعجبية نحو: ما أجمل هذا الخط! وهي لا توصل بشيء أيضاً لأن لها الصدارة.

رابعاً: الموصولة[٢] ومعناها الذي، نحو: إن ما قلته مليح، فتفصل عمّا قبلها إن لم يكن كلمة من أو عن أو في أو سيّ فتتصل بها كما تتصل بالحروف المفردة نحو: لا سيما.

خامساً: النكرة الموصوفة بمفرد أو بجملة ومعناها شيء، نحو: رُبَّ ما حسن

---

(١) ولأجل الاتصال تحذف ألف (ما) فيما ذكر، وتحذف أيضاً نون من وعن لادغامها في كلمة (ما) وتكتب الياء ألفاً في: إلى وعلى وحتّى وبمقتضى لتوسطها، وإذا ركّبت ما مع ذا لا توصل بما قبلها نحو: ماذا.

تنبيه: إذا وقعت ما بين فعلين سبقهما علم، أو دراية أو نظر، احتملت الموصولية والاستفهامية والمصدرية نحو: الله يعلم ما تبدون وما تكتمون ولا أدري ما يفعل بي ولا بكم، ولتنظر نفس ما قدمت لغد.

(٢) قال أبو البقاء: إذا وقعت «ما» قبل ليس أو لا أو إلا فهي موصولة نحو: قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق، إن كنت قلته فقد علمته. ونحو: وأعلم من الله ما لا تعلمون، قالوا لا علم لنا إلا ما علمتنا.

تنبيه: لا تصل ما بلفظه متى «١» وأيان وشتان. «١» كذا بالأصل والظاهر في صحته هكذا: لا تتصل ما بلفظين هما أيان وشتان فليحرر اهـ.

لديك قبيح عند غيرك، ونحو: ربّ ما هو محمود عندك مذموم عند غيرك، وحكمها حكم الموصولة.

بخلاف ما إذا وقعت ما صفة لما قبلها فتفصل وفائدتها التحقير، نحو: أعطيته عطية ما. والتعظيم نحو: لأمر ما جدع قصير أنفه. والتنويع: نحو: اِبرِ القلم برياً ما، أي نوعاً من أنواع البري.

وتوصل أيضاً ما بنعم إذا كسرت عينها وأدغمت إحدى الميمين في الأخرى نحو: ﴿نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ [النساء: ٥٨]. وإذا لم تكسر عينها لا توصل نحو: نعمَ ما يقول الأديب.

المبحث الرابع

أنواع (ما) الحرفية خمسة أيضاً: نافية، وكافة، وزائدة، ومهيئة، ومصدرية.

فأولاً: النافية نحو: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. وحكمها أن تنفصل عمّا قبلها إذا كان غيرالحروف المفردة.

وثانياً: الكافة عن عمل الرفع، وتوصل بطال، وقلّ، وَكثُر، وجلَّ، نحو: طالما نصحتك، وقلّما انتصحت[٩٧].

والكافّة عن عمل النصب والرفع، وتوصل بإنّ وأخواتها، نحو: ﴿إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ [الأنبياء: ١٠٨]. كأنما يساقون إلى الموت. لكنما أسعى لمجد مؤثل.

والكافة عن عمل الجر، وتوصل بربّ[٩٨] نحو: ربّما إشارة أبلغ من عبارة، وتوصل بالظروف مثل حين، وبَيْنَ، وقبل، نحو: ناداني حينما رآني، بينما أنا مار بشارع كذا، وقبلما أجتاز منزل فلان قابلني أخي.

وثالثاً: الزائدة غير الكافة، وهي التي تقع بين بعض العوامل ومعمولها. فالواقعة بين الجار والمجرور وتوصل بمن وعن، وتحذف نونهما[٩٩]، نحو: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ [المؤمنون: ٤٠] ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ﴾ [نوح: ٢٥] والواقعة بين المتضايفين توصل بما قبلها، نحو: ﴿أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ﴾ [القصص: ٢٨]، والواقعة بعد كي وبعد أداة

---

[٩٧] ـ وذهب ابن هشام في المغني إلى أنّ علّة الاتصال بهذه الأفعال شبهها بـ(رُبّ). راجع: همع الهوامع ٦/ ٣٢٠.

[٩٨] ـ وأكثر ما تدخل حينئذٍ على الماضي. راجع: شرح المفصل ٨/ ٣٠ كما توصل بالكاف، نحو: كن كما أنت، وباللام، وبـ(مِنْ).

[٩٩] ـ راجع: درّة الغوّاص ص٢٠٣.

الشرط (إن، وأين، وأي، وحيثما، وكيفما) توصل بها نحو: اجتهد كيما تفوز بالتقدم، أينما يتوجّهِ العالم يلق إكراماً، كيفما تكن يكن قرينك. وإذا وصلت بإن الشرطية تحذف نونها، نحو قوله تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: ٢٣].

ورابعاً: المهيئة[١٠٠]، وهي التي تهيئ رُبَّ للدخول على الفعل فتوصل بها، نحو: ربما يؤذي الذين كفروا.

وخامساً: المصدرية، وهي التي تسبق[١٠١] مع ما بعدها بمصدر نحو: اجلس كما جلس الأمير، أي: كجلوسه.

وهي توصل بكلمة كل المنصوبة على الظرفية بمعنى كل وقت، أو كل مرة، نحو: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢٠] كلّما زرتني أكرمتك.

وتوصل بمثل، نحو: ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٣] كوفئنا مثلما كوفئتم.

وتوصل بـ(ريث)؛ بمعنى مدة أو مقدار نحو: ما وقفت عندهُ إلّا ريثما كتب الجواب.

وتوصل مطلقاً سواء أجعلت موصولة أو موصوفة أو زائدة بكلمة سيّ بمعنى مثل نحو: كوفئ المجتهدون لا سيما(١) محمود.

المبحث الخامس

الثانية: (من) سواء أكانت استفهامية أو موصولة، أو موصوفة أو شرطية توصل

(١) تستعمل سيما المنفية بلا في الاستثناء بترجيح ما بعدها على ما قبلها، فقولك: لا سيما محمود في جملة «كوفئ المجتهدون لا سيّما محمود» يفيد أن مكافأة محمود أعظم من غيره، وتستعمل بغير نفي للتسوية أو التشبيه، نحو: كوفئ المجتهدون سيما محمود، أي: مثل محمود.
تنبيه: إذا استعملت الكلمة في غير موضعها بأن قصد لفظها، نحو قولك: تحذف الألف من ما المجرورة، فيجب فصلها عما قبلها، أي: لا يصح في مثل هذه الحالة وصل ما بمن، وقس على ذلك ما يوصل من الكلام بغيره.

[١٠٠] ـ راجع: درّة الغوّاص ص ٢٠٣.
[١٠١] ـ هكذا وردت في عدد من الطبعات والأرجح وقوع تصحيف إذ الصواب: (تسبك) بالكاف لا بالقاف.

بمن وعن الجارتين، وتحذف نونهما للادغام، نحو: ممن اشتريت هذا؟ وقد أخذت ممن أخذت منه، ممن تأخذ، عمّن يسأل، وتوصل الاستفهامية بكلمة (في) أيضاً، نحو: فيمن ترغب؟ وإذا جاءت إحدى هذه الكلمات بعد (من) وجب الفصل نحو: مَنْ مِنْ هؤلاء ترغب؟ ولا توصل بمع، ولا بكل، ولا بأيّ، ولا بضمير، ولا باسم إشارة[١٠٢].

الثالثة: إن الشرطية، وهي توصل بكلمة (لا) وتحذف نونها للادغام نحو: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٤٠] ـ ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٧٣]. بخلاف لم ولن فلا توصل بهما إن المكسورة ولا المفتوحة نحو: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧]. ونحو: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ [البلد: ٥].

الرابعة: أن المصدرية الناصبة للفعل، وتوصل بكلمة (لا). وتحذف نونها سواء تقدمت عليها اللام التعليلية نحو: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الحديد: ٢٩]. أم لم تتقدم نحو: يجب ألّا تهمل في الواجب عليك. ويجب الفصل بإثبات النون إذا كانت (أن) ليست مصدرية ناصبة بأن كانت مخففة من الثقيلة نحو: أشهد أن لا إله إلا الله. علمت أن لا خوف عليه. أو كانت مفسرة نحو: بشر نفسك أن لا تخافي ولا تحزني. وكذا لا توصل لا (بكي) ولا (ببل) ولا (بهل)[١٠٣] نحو: كي لا يكون عليك حرج، ونحو: كلا بل لا تكرمون اليتيم، ونحو: هل لا يقال كذا. وأما كلمة هلا في نحو: هلا كتبت لأخيك، فهي كلمة بسيطة موضوعة للتخصيص ليست مركبة من هل ولا.

---

[١٠٢] ـ قال ابن درستويه (الكتّاب ص٥٨): «مَنْ لا توصل بشيء إلاّ أن يكون قبلها شيء من الحروف على حرفين يدغم فيها، مثل: مِمَّنْ، عَمَّنْ، أمّنْ، وأنّ ذلك للإدغام لا لغيره».
وجاء في الهمع ٦/ ٣٢٢ ما يأتي: في مَنْ سواء كانت استفهامية أو موصولة، أو شرطية مع عن رأيان:
الأوّل: رواه ابن قتيبة في أنّها تكتب متّصلة على كل حال لأصل الإدغام.
الثاني: ذكره أبو حيان أن غيره زعم أنّ الإدغام لا يؤثّر في ذلك لأنّهما كلمتان، وعليه ابن عصفور، وأمّا ابن مالك فقد ذهب إلى أن الغالب الوصل، ويجوز الفصل.
وفي كتاب الكتّاب لابن درستويه ص٥٨: «ومن زعم أنّه يصل بـ(من) في الاستفهام شيئاً من ذلك كقولك: في من ترغب؟ على قياس فيم أنت، فقد أخطأ، لأنّ النون لا تحذف في (من) للاستفهام كما تحذف ألف (ما) وليس يشبه هذا ذاك، ويلزمه أن يفعل ذلك في (إلى) و(على)ونحوهما في الاستفهام مع (من) ولا يكتب هذا أحد».

[١٠٣] ـ قال الحريري (درّة الغوّاص ص٢٠٤) «وكذلك لا يفرقون في الكتابة بين موطني (لا) الداخلة على (هل) و(بل) وقد فرّق بينهما العلماء بأصول الهجاء، فقالوا: تكتب (هلاّ) موصولة، وبل لا مفصولة، وعللوا ذلك بأنّ (لا) لم تغير معنى، بل لمّا دخلت عليها، وغيّرت معنى (هل) فنقلتها من أدوات الاستفهام إلى حيّز التخصيص، فلذلك ركّبت معها، وجُعِلَتا بمنزلة الكلمة الواحدة».

الباب الرابع

في الحروف التي تزاد في الكلمات

وفيه ثلاثة مباحث

المبحث الأول

تزاد همزة الوصل سماعاً في أل وفي الأسماء العشرة (ابن، وابنة، وابنم، واسم، وامرؤ، وامرأة، واست، واثنان، واثنتان، وايمن)، وتزاد قياساً في المصادر التسعة وما تصرف منها من فعلي الأمر والماضي، وهي الثلاثة الخماسية: (افتعال وانفعال وافعلا)، والستة السداسية: (استفعال، افعنلال، افعيلال، افعوال، افعيلالاً، افعلالاً)[١٠٤].

وتزاد الألف في الوسط أو في الطرف، ولا ينطق بها أصلاً، فتزاد في الوسط في كلمة (مائة)[١٠٥] وتطّرد الزيادة في حالة التثنية نحو: مائتان، وفي حالة التركيب مع الآحاد نحو: ثلثمائة، وأربعمائة، وخمسمائة، وستمائة، وسبعمائة، وثمانمائة، وتسعمائة[١٠٦]، ولا تزاد في الجمع نحو: مئون ومئات. ولا في النسبة إلى مائة، نحو: مئتي.

وتزاد في الطرف بعد واو الضمير المتطرفة(١) في الفعل الماضي نحو: كتبوا،

(١) بعض الكتاب يزيد ألفاً بعد كل واو متطرفة سواء كانت في فعل أو اسم وهذا من الخطأ المحض إذ إن زيادة الألف مختصة بواو الضمير المتطرفة في الفعل بخلاف واو العلة فلا تزاد بعدها ألف نحو: يدعو محمد، واعلم أنك إذا قلت: العلماء علموا هم غيرهم، =

[١٠٤] ـ تزاد همزة الوصل سماعاً في الأسماء العشرة. وقياساً في:
ـ أوّل فعل الأمر غير الرّباعي، إذهب واذرس.
ـ أوّل الأفعال الماضية الخماسية والسداسية ومصادرها.

[١٠٥] ـ هي: ألف تكتب ولا تلفظ، وسبب هذه الزيادة هو التفريق بين (مئة) و(منه) و(فيه) وذلك قبل نقط الحروف نقط إعجام.

[١٠٦] ـ كتبها أبو حيان في هذه الأحوال بلا زيادة ألف، نحو: مئة، مئتان، ثلاثمئة. . . ويستحسن حذف الألف منها اليوم بعد نقط الإعجام وزوال خطر اللبس الذي كان قائماً قبله.

أكلوا، اجتهدوا، وفي الأمر نحو: اكتبوا، كلوا، وفي المضارع المحذوف النون لناصب أو جازم نحو: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ [البقرة: ٢٤] بخلاف جمع المذكر السالم[١٠٧]، والملحق به نحو: مهندسو المدينة على ضفتي النّيل، ونحو: هم أولو الفضل وذوو السبق، فلا تكتب ألف بعد الواو، كما لا يكتب أيضاً بعد واو الأسماء الخمسة نحو: جاء أبو منصور. وكذا بعد واو الإشباع نحو: همو حضروا.

ويزاد في الشعر ألف لينة يقال لها: ألف الإطلاق، وهذه ينطق بها وتكون في آخر البيت لضرورة القافية كالألف التي في كلمة «شهدا» في البيت الآتي: **[البسيط]**

وكَمْ لَكُمْ يا بني الزّهراءِ مِنْ شَرَفٍ … عالٍ بهِ اللّـهُ في القرآنِ قد شَهِدا

وتزاد الألف في آخر المنصوب المنون نحو: قرأت كتاباً[١٠٨]، بشرط ألّا يكون منتهياً بتاء التأنيث المربوطة، أو بهمزة مكتوبة فوق ألف، أو بهمزة قبلها ألف، وألّا يكون مقصوراً.

المبحث الثاني

تزاد هاء ساكنة في الطرف تسمى هاء السكت بعد كل متحرك الآخر بحركة غير إعرابية لأجل الوقف عليها، وتسقط لفظاً في حالة الدرج، وزيادتها إمّا واجبة أو جائزة، فتجب زيادتها في الكلمات الآتية:

١ ـ في الأمر من اللفيف المفروق[١] لكونه يصير على حرف واحد، بشرط أن يكون مسبوقاً بفاء أو واو، وألّا يكون وقى، ووفى.

= وجعلت هم ضمير رفع مؤكد للواو، فاكتب الألف بعد الواو، وإن قلت: ربّوا الأحداث وعلموهم الواجب عليهم، فلا تكتب الألف لأن هم مفعول فلا يفصل بينه وبين ما قبله.

(١) اللفيف المفروق: هو ما فاؤه ولامه من حروف العلة نحو: وقى، وفى.

---

[١٠٧] ـ تسمّى هذه الألف ألف الفصل، أو الفارقة. ولا تزاد بعد الواوات الآتية:
- الواو التي من أصل الفعل: يعدو.
- واو الأسماء الخمسة، نحو: أخو عزم.
- واو جمع المذكر السالم المضاف: معلمو المدرسة نشيطون.
- واو الإشباع: همو ملكوا الدّيار، وتكون في الشعر بعامّة.

[١٠٨] ـ تسمّى هذه الألف ألف تنوين النّصب ويشترط لكتابتها أربعة شروط هي:
١ ـ ألّا يكون الاسم منتهياً بتاء التأنيث المربوطة، نحو: رأيت فتاةً.
٢ ـ ألّا يكون الاسم منتهياً بهمزة مرسومة فوق ألف، نحو: بنت البلدية ملجأً.
٣ ـ ألّا يكون الاسم منتهياً بهمزة قبلها ألف، نحو: كأنّ سماءً ركبّت فيها.
٤ ـ ألّا يكون الاسم مقصوراً، نحو: رأيت فتًى.

وكذا في الأمر من رأى نحو: ره نفسك ولا تره عدوك.

٢ ـ في كلمة (ما) الاستفهامية المجرورة بالإضافة إذا وقف عليها نحو: بمقتضى مه فعلت كذا، ويجوز زيادة الهاء أو تركها في الكلمات الآتية:

١ ـ في الأمر من اللفيف المفروق إذا أكد بالنون أو سبقته فاء أو واو، نحو: قِ نفسَك، أو قِهْ نفسَك، أو قِنْ نفسك، أو قنه نفسك، وكذا مضارعه المجزوم، نحو: لم يف كامل بوعده أو لم يفه بوعده.

٢ ـ في الأمر من الناقص(١) ومضارعه المجزوم نحو: اسعَهْ في طلب المعالي، وإن لم تسْعَهْ فقد أخطأت.

٣ ـ في كلمة (ما) الاستفهامية المجرورة بأحد حروف الجر نحو: لمه أضعت وقتك سدى؟ عَمَّهْ تسأل؟

٤ ـ في الاسم المنتهي بحرف علة مثل: هو، هي، نحو: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ﴾ [القارعة: ١٠].

٥ ـ فيما آخره ياء المتكلم مثل: مالي وسلطاني، نحو: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ * هَلَكَ عَنِّى سُلْطَـٰنِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٨، ٢٩].

٦ ـ في الاستغاثة والندبة، نحو: يا ربّاه، يا غوثاه، يا أبتاه، يا ويلتاه، واولداه، واحَرَّ قلباه.

المبحث الثالث

تزاد الواو في الوسط أو الطرف، ولا ينطق بها أصلاً، فتزاد في الوسط في الكلمات الآتية:

١ ـ في أولاء (بالمد) وأولى (بالقصر) اسما إشارة مطلقاً نحو: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥].

٢ ـ في أولو (المرفوعة)[١٠٩] أو أولي (المنصوبة أو المجرورة) بمعنى أصحاب نحو: أولئك هم أولو الألباب، إن في ذلك لآيات لأولي النهى.

---

(١) الناقص ما لامه حرف علة نحو: غزا، رمى، سعى.

---

[١٠٩] ـ قال السيوطي (الهمع ٦/٣٢٨) «وأما أولو فلم أظفر في تعليله بنص، ويمكن عندي أن يكونوا زادوا الواو للفرق بين (أولي) في حالة النصب والجرّ، وبين (إلى) الجارّة، وحُمِلَتْ حالة الرفع على حالة النصّب والجر».

٣ ـ في أولات بمعنى صاحبات[١١٠]، نحو: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ﴾ [الطلاق: ٤].

وتزاد في الطرف في اسم (عمرو)[١١١] بشرط أن يكون علماً لم يضف لضمير، ولم يقع في قافية ولم يصغّر، ولا محلى بأل، ولا منسوباً، ولا منصوباً منوناً، فإن كان منصوباً غير منون فتزاد الواو منعاً من التباسه بعمر الممنوع من الصرف، نحو: إن عَمْرَو بن العاص هو الذي فتح مصر في عهد عُمَرَ بن الخطاب.

وتزاد واو ينطق بها بعد ميم الجمع لتدل على إشباع ضمتها، ويقال لها: واو الصلة، نحو قول الشاعر: [الوافر]

وإخوانٍ تَخِذْتُهُمُو دروعاً فكانوها ولكنْ للأعادي
وخلتهمو سهاما صائباتٍ فكانوها ولكن في فؤادي

[الطويل]

تخذتكمو درعاً حصيناً لتدفعوا نبال العدا عنّي فكنتم نصالها
وقد كنت أرجو منكمو خير ناصر على حين خذلان اليمين شمالها
فإن كنتمو لم تحفظوا لمودتي ذماماً فكونوا لا عليها ولا لها

---

[١١٠] ـ في الهمع ٦/٣٢٨ «وقد زيدت الواو حملاً للتأنيث على التذكير في أولى».
وقد تزاد الواو في ألفاظ دخيلة، نحو: أوقيانوس، أوكسجين...

[١١١] ـ وذلك للفرق بينها وبين (عُمَر) الممنوع من الصّرف، وهذه الزّيادة في حالتي الرفع والجرّ، وأمّا في حالة النصب فإنه يكتب بألف دون (عُمَر) وهكذا يظهر الفرق نحو:

جاء عَمْرٌو جاء عُمَرُ رأيت عَمْراً رأيت عُمَرَ

وقال السّيوطي (الهمع ٦/٣٢٨) وجعل التنوين في عَمْرو لأنّه أخف من عُمَر لأنّه بني على فَعْل ولأنه منصرف.

الباب الخامس

في الحروف التي تحذف من الكلمات

يحذف من الكتابة غالباً للتخفيف تسعة حروف، وهي: همزة الوصل، وهمزة القطع، والألف اللينة، والواو، والياء، والتاء، واللام، والميم، والنون.

وفي هذا الباب ثمانية مباحث.

المبحث الأول

تحذف همزة الوصل في الكلمات الآتية، وهي:

١ ـ من كلمة (أل) في حالتين:

أولاً: إذا دخلت عليها همزة الاستفهام لأن تلك تقلب مدًّا بعد هذه، وتكتب على همزة الاستفهام علامة تسمى مدة وصورتها هكذا (آ)، نحو: آلعلم أم المال؟ آلجهل شر من الفقر؟

ثانياً: إذا دخلت عليها اللام المفتوحة أو المكسورة(١) نحو: العلم مع الفقر خير من الجهل مع الغنى. ونحو: حضرت المدرسة. والحذف هنا هو خطاً ولفظاً.

٢ ـ من المصادر وأفعالها الماضية، خطاً ولفظاً إذا دخلت عليها همزة الاستفهام، نحو: ﴿أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [المنافقون: ٦] ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ﴾ [الصافات: ١٥٣] أستكباراً على من هو أعلم منك؟ أضطراراً فعلت كذا أم اختياراً؟

٣ ـ من كلمة (اسم) خطاً ولفظاً في حالتين:

أولاً: إذا دخلت عليها همزة الاستفهام، نحو: أسمك علي أم خالد؟ أَسم أخيك محمود؟

ثانياً: إذا كانت كلمة (اسم) في البسملة الكريمة[١١٢] بشرط ذكرها كاملة بلا

---

(١) لا تحذف الهمزة «من أل» التي هي جزء من الكلمة عند دخول الألف واللام عليها نحو: التقاء الثقات التماس. تقول قصدتك لالتماس معروفك.

---

[١١٢] ـ أثيرت هذه المسألة في تفاسير القرآن الكريم وقيل فيها أقوال شتّى. راجع للتوسّع:
ـ البحر المحيط ١/١٦. =

متعلق قبلها أو بعدها، فإن ذكر المتعلق، أو لم تذكر البسملة بتمامها فلا حذف، نحو: أتبرك باسم الله الرحمن الرحيم، باسم الله الرحمن الرحيم افتتح، باسم الله.

المبحث الثاني

تحذف همزة الوصل من كلمة (ابن) خطاً ولفظاً في ثلاثة أحوال وهي:

أولاً: إذا دخلت عليها همزة الاستفهام، نحو: أبنك هذا؟

ثانياً: إذا دخلت عليها (ياء) الندائية، نحو: يا بن آدم[١١٣].

ثالثاً: إذا وقعت كلمة (ابن) بين علمين(١) اشتهر أولهما بالانتساب إلى الثاني، نحو: عمر بن الخطاب، علي بن أبي طالب، محمد بن الحنفية[١١٤]، ويشترط في العلم الأول ألّا ينوَّن، وفي ابن أن يكون مفرداً ونعتاً للأول وغير منفصل عنه بفاصل، ولم يكن مقطوع الهمزة لضرورة وزن الشعر، وليس أول سطر، فإن خولف شرط من ذلك، فلا حذف[١١٥].

(١) لا فرق في العلمين بين أن يكونا اسمين أو كنيتين أو لقبين، أو مختلفين، ولا فرق في العلم الثاني بين أن يكون اسم أبي الأول، أو اسم جده أو يكون اسم أمه. واعلم أن علة الحذف اعتبار الاسمية اسماً واحداً.

تنبيه: لا يجوز وضع القطعة على همزة الوصل، وأما همزة القطع فإذا أريد الشكل تكتب على الألف لأنها شكلة تكتب عند إرادته وتحذف عند حذفه، وبعضهم اختار في همزة القطع المكسورة أن توضع الكسرة تحت الألف والقطعة فوقها.

= ـ مشكل إعراب القرآن ١/ ٥.
ـ تفسير القرطبي ١/ ٩٩.
ـ البيان في غريب إعراب القرآن ١/ ٣١.
ـ الكشّاف ١/ ٢٩.
ـ معاني القرآن ١/ ٢.
ـ إعراب القرآن للنحّاس ١/ ١١٦.

[١١٣] ـ ذهب بعض النحاة إلى أن المحذوف ألف (يا) وليس همزة الوصل. راجع هذا الخلاف في الهمع ٦/ ٣٣٤.

[١١٤] ـ راجع في ذلك:
ـ شرح الشافية ٣/ ٣٣١.
ـ كتاب الكتّاب ص٧٦.
ـ درّة الغوّاص ص٢٠٠.

[١١٥] ـ جمعت كتب الخطّ (الإملاء) الحديثة هذه الشروط كما يأتي:
١ ـ إذا وقع بعد علمين، فإن لم يكن ذلك فلا تحذف الألف، نحو: أنا ابن جلا... =

وكذلك تحذف الهمزة من كلمة (ابنة) ويشترط لحذفها ما اشترط في همزة (ابن)، نحو: هذه فاطمة بنت عبد الله.

أو تحذف همزة القطع من الأول أو من الوسط أو من الطرف فتحذف من الأول خطاً ولفظاً من فعل الأمر المتصرف من أخذ وأكل وأمر، نحو: خذ، وكل، ومر.

وتحذف من الوسط من كل كلمة تقع فيها ساكنة بعد همزة أخرى مفتوحة لانقلاب الساكنة مداً بعد المفتوحة. ويكتب على الهمزة الأولى علامة المد، نحو: سوف آخذ حقي منك، سآكل مع أخي. وتحذف من الوسط ومن الطرف وتكتب القطعة موضعها في أحوال تقدم بيانها.

المبحث الثالث

تحذف الألف اللينة التي في وسط الكلمات الآتية، سواء أكان توسطاً أصلياً أم عارضاً:

١ ـ من كل كلمة تقع فيها الألف بعد همزة ترسم ألفاً على مقتضى القواعد ويكتب فوق الهمزة علامة، نحو: الآن، آمن، آثر، آدم، مآدب، مآثر، مآرب، مآل، تآلف(١).

٢ ـ من كلمتي: رحمان[١١٦]، وحارث[١١٧]، إذا عرفتا بأل، نحو: عبد الرحمن، وحكى الحرث بن همام.

(١) ومن ذلك الألف في الاسم المثنى نحو: هذان ملجآن ونآن وخطآن، وكذلك الألف في =

= ٢ ـ أن يكون مفرداً، فإن كان مثنى أو جمعاً، فلا تحذف همزة الوصل، نحو: زيد وعمرو ابنا سعيد.
٣ ـ أن يكون لفظ (ابن) نعتاً للأول من العلمين، فإن لم يكن كذلك وكان خبراً فلا تحذف همزته، نحو: خالدٌ ابن يزيد.
٤ ـ ألّا يقع لفظ (ابن) في أوّل السطر، فإن كان كذلك ثبتت الهمزة.
٥ ـ ألّا تقطع همزته لوزن الشعر، فإن قطعت همزته ثبتت.
٦ ـ ألّا يُفصل لفظ (ابن) عن العلم الأوّل، فإن فصل كتبت همزته، نحو: زيد الشاعر ابن علي.
٧ ـ ألّا ينوّن أوّل العلمين، فإنْ نوّن ثبتت، نحو: جاريةٌ من قيسٍ ابن ثعلبة.
٨ ـ ألّا يكون لفظ (ابن) مُضافاً إلى ضمير، نحو: هذا وليدٌ ابنكَ.

[١١٦] ـ في درّة الغوّاص ص٢٠١: «وكذلك يكتبون (الرحمن) بحذف الألف في كلّ موطن، وإنّما تحذف الألف منه عند دخول لام التّعريف عليه، فإن تعرّى منها كقولك: يا رحمان الدنيا ورحيم الآخرة، أثبتت الألف فيه».

[١١٧] ـ حذفت الألف من (الحارث) علماً لكثرة الاستعمال كما في الهمع ٦/ ٣٣٠ وشرطه ألاّ يجرّد من الألف واللام، فإن جرّد منها كتب بالألف (حارث).

٣ ـ من كلمة «لكن» سواء أكانت نونها مخففة أو مشددة، نحو: زيد كريم لكنه جبان.

٤ ـ من كلمة «أولاء» إذا جاءت بعدها الكاف، نحو: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

٥ ـ على لفظ «الجلالة»، نحو: الله[١١٨] ربي، وذلك لكثرة الاستعمال.

٦ ـ من كلمة «إله» سواء كانت معرفة أو نكرة، نحو: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [البقرة: ١٦٣] الإله تجب طاعته، ولا تحذف من كلمة «الآلهة» سواء أكانت بمعنى العبادة، أو غير ذلك.

٧ ـ من كلمة «سماء»[١١٩] إذا جمعت بالألف والتاء، نحو: الله خالق السموات والأرض(١).

المبحث الرابع

تحذف الألف اللينة أيضاً من الكلمات الآتية:

١ ـ من كلمة «ثلاث» إذا ركبت مع المائة[١٢٠]، نحو: هؤلاء ثلثمائة.

٢ ـ من الأعلام المشتهرة في الاستعمال الزائدة على ثلاثة أحرف بشرط عدم

= جمع المؤنث السالم نحو: مكافآت، مفاجآت، أما الألف ضمير المثنى فلا تحذف نحو: الرجلان قرأا. ويقرأان. القاضيان برّأا زيداً. وقد سبق الكلام على ذلك فراجعه في أحوال الهمزة السابقة.

(١) لا تحذف الألف مطلقاً إذا وقعت بعد همزة ترسم واواً نحو: لا تؤاخذني. أو ترسم ياء نحو: هذان قارئان. وهن قارئات. أو بعد همزة تحذف بمقتضى القواعد المتقدمة نحو: =

(*) هذه متابعة للأقدمين لا بأس عليها لكنّ التسهيل يقبل بكتابة اللفظ كما يصوّت به فما ثبت تصويتاً وجب ثبوته خطًا. واتّباع هذه القاعدة يخفّف من تعقيدات قواعد الخطّ العربي ويجاري منطق اللغة ولا يخالفه.

[١١٨] ـ قال أبو حيان: (البحر المحيط ١/ ١٥): «وحذفت الألف الأخيرة من (الله) لئلا يشكل بخطّ (اللاه) اسم الفاعل من (لها يلهو)، وقيل: طُرِحَتْ تخفيفاً، وقيل هي لغة، فاستعملت في الخط».

[١١٩] ـ في كتاب الكُتَّاب ص٧٣: تحذف الألف منها إذا جمعت بالألف والتّاء، نحو: السموات، فإن لم تجمع بالألف والتاء، فلا تحذف ألفها، نحو: سماوي في النسبة إلى سماء.

[١٢٠] ـ في كتاب الكُتّاب ص٧٤: تحذف الألف من لفظ العدد ثلاث إذا لم يلتبس بالثُلث، وإذا ركّب مع المئة، نحو: ثلثمائة، أو ذكر معه المعدود، نحو: ثلث نسوة، أو عطف عليه، نحو: ثلث وثلاثون. والشائع اليوم إثبات الألف لا حذفها.

التباس الكلمة بغيرها بعد الحذف، نحو: إسحق، هارون، إسماعيل، إبراهيم[١٢١].

وقد يكتب «طاها» هكذا: «طه» بحذف ألفين منه، ويكتب «ياسين» هكذا: «يس»[١٢٢] بحذف ألف وياء ونون منه.

٣ ـ من «ها» حرف التنبيه، وتوصل الهاء بما بعدها، وذلك في ثلاثة أحوال:

أولاً: إذا وقع بعده اسم إشارة غير مبدوء بتاء ولا هاء، وليس بعده كاف، نحو: هذا، هذه، هؤلاء، هكذا[١٢٣].

ثانياً: إذا وقع بعده اسم الجلالة في القسم، نحو: ها الله لأفعلن كذا.

ثالثاً: إذا وقع بعده ضمير مبدوء بهمزة، نحو: هأنا، هأنتم، والحذف في هذه الحالة قليل الاستعمال[١٢٤].

٤ ـ من «ذا» أحد أسماء الإشارة، وذلك إذا اتصلت به لام البعد المكسورة، نحو: ذلك، ذلكما، ذلكم، ذلكن[١٢٥].

أما إذا وقع بعده لام مفتوحة فلا حذف، نحو: ذا لَك فخذه.

المبحث الخامس

تحذف الألف اللينة أيضاً من الكلمات الآتية:

١ ـ من «ياء» أحد حروف النداء، وتوصل الياء بما بعدها وذلك في ثلاثة أحوال:

أولاً: إذا وقعت بعده كلمة «أيها»، نحو: يأيها المرء المؤدب.

= شيئاً. جزاءان. جزاءات. عطاءات، وقد سبق الكلام على ذلك في مباحث الهمزة.

[١٢١] ـ في كتاب الكُتّاب ص٨٠: ألف إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، وهارون حذفت لأنها أسماء أنبياء مشهورة، كرّرت في القرآن وكثر استعمالها فوجب تخفيفها، ولا يجوز ذلك في ما كان من الأسماء على أبنيتها كإسرائيل، وميكائيل، وإلياس ونعمان وقارون، لقلّة الاستعمال.
والحجة التي لجأ إليها ابن درستويه غير مقنعة لأن التخفيف في الرسم لا يتبعه تخفيف في النّطق وقواعد الإملاء قائمة على رسم ما يصوّت به، ثم إنّ الرسم القرآني لا يقاس عليه في نظر العلماء فلماذا نعقّد الأمور على طلّابنا ونثقل عليهم بكثرة الاستثناء والشّاذ؟ ولهذا لا نرى مانعاً من إثبات الألف في هذه الأسماء جميعها.

[١٢٢] ـ راجع في سبب الحذف: تفسير القرطبي ١٥/ ٤ والبحر المحيط ٧/ ٣٧٣.

[١٢٣] ـ والعلّة في هذا الحذف كثرة الاستعمال، فإن بدأ اسم الإشارة بتاء أو بهاء، أو بعده كاف فلا تحذف ألف ها، نحو: هاتانِ، ها هنا، ها ذاك.

[١٢٤] ـ راجع: الهمع ٦/ ٣٣٣.

[١٢٥] ـ راجع: شرح الشافية ٣/ ٣٣١.

ثانياً: إذا وقعت بعده كلمة «أهل»، نحو: يأهل البلد.

ثالثاً: إذا وقع بعده علم مبدوء بهمزة من الأعلام التي لم يحذف منها شيء، نحو: يإبراهيم، يإسمعيل، يإسحق، وحذف ألف «يا» في هذه الأحوال قليل الاستعمال[١٢٦].

٢ ـ من «أنا» ضمير المتكلم، فتحذف ألفها إذا وقعت بين هاء التنبيه وذا الإشارية، نحو: هأنذا[١٢٧].

والتي في الطرف من الكلمات الآتية:

١ ـ من كلمة «أما» المخفّفة الميم التي بمعنى حقاً، إذا اقترنت بالقسم، نحو: أَمَ والله إن الظلم شؤم[١٢٨].

المبحث السادس

قد يجتمع في بعض الكلمات واوان، مثل: ناووس.

فتارة يقتصر على إحداهما وتحذف الأخرى، وتارة تكتبان معاً، والمختار هو:

١ ـ حذف إحدى الواوين من داود وطاوس، وحذفها أو إثباتها في هارون، وراووق[١٢٩]، وطاووس(١).

---

(١) واعلم أنها تحذف في أمر المنتهي بها نحو: ادع، وفي مضارعه المجزوم نحو: لم يدع، أو إذا اتصل به واو الجماعة نحو: الرجال يدعون، أو إذا اتصل به ياء المخاطبة نحو: يا هند تدعين. وتحذف في جمع المذكر السالم المرفوع المضاف إلى ياء المتكلم نحو: جاء مسلميَّ.

---

[١٢٦] ـ في الهمع ٦/ ٣٣٤ «وأمّا نحو آدم فلم تحذف ألف (يا) معه، لأنّه حذف منه الألف المبدلة من فاء أفعل، فلم يجمعوا عليه حذف ألفين».
ولهذا فإنّ الألف تثبت إذا كان بعد الهمزة ألف، نحو: يا آدم.

[١٢٧] ـ في أمالي السهيلي ص١٠٥: «وقول الرجل ها أنا ذا فصل بين هاء التنبيه وذا وإنّما كان القياس: أنا هذا، وهذا أنا».

[١٢٨] ـ راجع المقرّب ٢/ ٢٠٠.

[١٢٩] ـ قال الحريري (درّة الغوّاص ص٢٠٥) «والاختيار عند أهل العلم أن يكتب داود وطاوس وناوس بواو واحدة للتخفيف». وفي الهمع ٦/ ٣٣٤ «قال أبو حيّان: وجوّز بعضهم كتابة الواوين على الأصل، واختاره ابن الصائغ، والقياس خلافه كراهة اجتماع مثلين».
والواقع أنّ ما ذهب إليه ابن الصائغ أسلم لأنّه يجاري قاعدة الإملاء ويخفّف الشاذ والتعليل غير المنطقي.

٢ ـ إثبات الواوين معاً في ذوو إذا كانت مرفوعة جمع ذو بمعنى أصحاب، وفي كل اسم منقوص واوي العين جمع مذكر سالم وكان مرفوعاً، نحو: الراوون، العاوون، الناوون. وفي نحو: قؤول، صؤول، كؤوس، سؤول، شؤون، وكذا في اللفيف المقرون إذا أسند لواو ضمير الجمع، نحو: لووا، طووا، غووا، رووا، يلوون، يطوون، يروون، يعوون، اطووا، اغووا.

أما الواو التي ترسم بدل الهمزة إذا تلتها واو، نحو: يؤوب، يؤول، لؤوم، وغير ذلك فقد تقدمت، فراجعه.

المبحث السابع

تحذف الياء من الكلمات الآتية:

١ ـ من الاسم المنقوص في حالتين:

أولاً: إذا أضيف إلى ياء المتكلم سواء أكان مفرداً أو جمعاً لإدغام الياء الأولى في الثانية، نحو: هذا مفتيَّ، هؤلاء جواريّ، ومواليَّ[١٣٠].

ثانياً: إذا نوِّن وكان مرفوعاً أو مجروراً للوقف على ما قبل الياء، نحو: هذا قاضٍ عادل، ذاك محامٍ بارع، وإنما البيع عن تراضٍ، ومن ذلك المنقوص المهموز ما قبلَ الآخر تحذف ياؤه الأخيرة ويكتب بياء واحدة وهي المبدلة من المبدلة من الهمزة، نحو: جاءي(١)، راءي، مراءي، ناءي. والحذف في هذه الحالة هو خطاً ولفظاً. وتثبت ياء المنقوص إذا كان منوناً منصوباً، نحو: كن قاضياً عادلاً. أو معرفاً، نحو: المفتي. أو مضافاً لغير ياء المتكلم، نحو: وادي النيل وطني.

٢ ـ من المثنى المنصوب أو المجرور إذا أضيف إلى ياء المتكلم لإدغام الياء، نحو: أكرمت والديَّ، وكذا من جمع المذكر السالم المنصوب أو المجرور إذا أضيف إلى ياء المتكلم أيضاً، نحو: إن معلميَّ حضروا.

٣ ـ من أمر المنتهي بها خطاً مطلقاً سواء أنطق بها ألفاً أو ياء، نحو: اسعَ وارمِ.

٤ ـ من مضارعه المجزوم، نحو: لم يسعَ، ولم يرمِ[١٣١].

(١) والأصل جائي، رائي، الخ فلما نون حذفت الياء الأخيرة. =

[١٣٠] ـ راجع: شرح الشافية ٣/ ٣٢٩.

[١٣١] ـ تحذف من المضارع المعتلّ بالياء إذا اتصل به واو الجماعة من الذكور، نحو: يرمون وأصله يرميون. =

المبحث الثامن

تحذف التاء من كل فعل آخره تاء أسند إلى تاء الفاعل لإدغام الأولى في الثانية مثل: فات، وبات، نحو: فت، وبت.

تحذف اللام من كل اسم أوله لام وعرف بأل ثم دخلت عليها اللام لإدغام أل في لام الكلمة مثل: اللبن واللهو واللعب، نحو: اللبن أخفّ طعام للمريض، لم يُخْلَقِ الإنسان للّهو ولا للعب، ومثل ذلك الأسماء الموصولة التي تكتب بلامين وهي: اللَّذَيا، واللّتيا، واللذان أو اللذين، واللتان أو اللتين، واللاتي، واللواتي، واللائي، فإذا دخلت عليها لام تحذف إحدى اللامات، نحو: الفضل للَّذَيْنِ يسعيان في طلب المعالي، وكذا تحذف إحدى لامي الذي، والتي، والذين، وتكتب بلام واحدة كما هي مرسومة.

وتحذف الميم من «نعم» إذا اتصلت بكلمة «ما» النكرة، نحو: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾ [البقرة: ٢٧١] وقد تقدمت.

وتحذف النون من كل فعل آخره نون إذا أسند إلى النون أو نا، نحو: النساء ظعنَّ وآمنَّا. وكذا مع نون الوقاية لإدغام الأولى في الثانية، نحو: آمنّي، وأعنّي. وقد تحذف من آخر الحروف المنتهية بها مع نون الوقاية للإدغام أيضاً، نحو: إني، كأني، ولكني. وتحذف من الكلمتين (من وعن) إذا دخلتا على ما أو من، نحو: مما وعمن.

ومن المنون المرفوع أو المجرور، ومن أن الناصبة وإن الشرطية، وقد تقدم ذلك مستوفياً في مواضعه فراجعه.

= **تنبيه**: تحذف الياء المحدثة من إشباع حركة الحرف الذي قبلها نحو: [البسيط]

أمن تذكر جيران بذي سلم مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم

= ومن المضارع المعتل بالياء إذا اتّصل به ياء المخاطبة، نحو: أنتِ ترمين والأصل ترميين.
ومن الماضي المعتلّ بالياء إذا أسند إلى واو الجماعة، نحو: رَضُوا والأصل رَضِيُوا.
كما تحذف الياء من منادى الأبوين: يا أبتِ ويا أمتِ وفي المنادى المضاف إلى ياء المتكلّم: يا قومِ.

الباب السادس

تاء التأنيث

تاء التأنيث إذا كانت متطرفة تكتب إما مربوطة كالهاء، وإما مفتوحة كأصلها.

فتكتب **مربوطة** وتنقط إذا كانت في اسم مفرد غير مضافة لضمير وكان ما قبلها متحركاً ولو تقديراً لانقلابها هاء ساكنة في الوقف، ولذلك تسمى هاء التأنيث، نحو: فاطمة، طلحة، فتاة، مائة، صلة، ابنة، ا مرأة، خاطئة، ناشئة، عائلة، ولا تنقط إذا وقعت في قافية سجع أو شعر[١٣٢].

وتكتب تاء **مفتوحة** إذا أضيفت لضمير، نحو: البخيل حارس لنعمته خازن لورثته، ومن طابت سريرته حمدت سيرته.

١ ـ في الأسماء مطلقاً مفردة أو مجموعة، نحو: بنت، أخت، زينبات، مسلمات، قارئات، كاتبات، أوقات، أموات، بنات.

٢ ـ وفي الأفعال نحو: كتبَتْ، أكلَتْ، سَعَتْ.

٣ ـ وفي الحروف، وتتصل بأربعة أحرف فقط، وهي: ثم العاطفة(١) المضمومة

(١) بخلاف ثَمّة الظرفية المفتوحة الأول، فتكتب تاؤها مربوطة.

[١٣٢] ـ تكتب التاء مربوطة في المواضع الآتية:

١ ـ تلحق بعض الأسماء للتفرقة بين المذكر والمؤنث في الصّفات وغيرها، نحو: جالس ـ جالسة، فاضل ـ فاضلة.

٢ ـ تلحق بعض الكلمات للتأنيث بغير فرق، نحو: قرية، غرفة، فالتاء لتأنيث الكلمة وليست للفرق بين المذكّر والمؤنث.

٣ ـ تلحق بعض الأسماء لتمييز الواحد من الجنس، نحو: تمر: تمرة، بقر: بقرة.

٤ ـ تلحق بعض الأسماء لبيان عدد المرّات فتكون في اسم المرّة، نحو: ضحك ضُحكة، وقف وَقْفَة.

٥ ـ تكتب مربوطة في جمع التكسير، نحو: حُفاة، عُراة، قُضاة.

٦ ـ تكتب مربوطة في بعض صيغ المبالغة، نحو: لحّانة، علّامة، راوية، طُلَعَة.

٧ ـ تلحق الجموع التي على وزن مفاعل دلالة على النّسب، نحو: مهالبة، أزارقة، مرازبة، مناذرة، . . .

٨ ـ تزاد في بعض الأسماء المؤنّثة لفظاً والمذكّرة معنى، نحو: زِيادة، معاوية، عنترة، أسامة. . .

٩ ـ تكتب مربوطة في (ثَمّة) الظرفية، تمييزاً لها عن (ثُمَّتَ) العاطفة.

الأول، ورُبَّ، ولَعَلَّ، ولا، نحو: ثُمَّتَ، رُبَّتَ، لَعَلَّتَ، لاتَ.

أَمثلة

النعت، الصفة، البخت، الثبات، الثبوت، العظمة، السكوت، الصَّمت، الفرات، الحمرة، الجهات، الوفاة، الصلاة.

نتيجة التفريط الندامة، ونتيجة التأني السلامة. [الرّجز]

إنّ الـشَّـبـاب والـفـراغَ والـجِـدَهْ مـفـسـدةٌ لـلـمـرءِ أيّ مـفـسـده

غش القلوب يظهر في فلتات الألسن، وصفحات الوجوه، الشبهة أخت الحرام، وبكثرة الصمت تكون الهيبة.

إذا فقدت العقول الحكمة ماتت. رُبَّ صداقة ظاهرة، باطنها عداوة كامنة. لا خيرَ في القول إلّا مع العمل، ولا في الثقة إلّا مَعَ الورع، ولا في الصَّدقة إلّا مع النِّيَّة، ولا في المال إلّا مع الزكاة، ولا في الصدق إلّا مع إنجاز الوعد، ولا في الحياة إلّا مع الصحة.

الباب السابع

في نقط الياء وإِهمالها

الياء إما أن يجب نقطها، وإما أن يجب إهمالها، وإما أن يجوز فيها الأمران.

فيجب نقط الياء الواقعة في أوّل الكلمة، أو في وسطها إذا كانت غير مبدلة من همزة، نحو: يعيش الخليفة. ومن ذلك الواقعة في المجموع الذي على وزن مفاعل أو أفاعل المعتلة العين، نحو: مَغايِر. مَضايِق. مَشايِخ. مَكايد. معايش. أَطايب. ذَخاير. والواقعة في المفاعلة، نحو: ساير، يساير، مُسايرة. فهو مسايِر. عاين. يعاين. معاينة. فهو مُعاين.

ويجب إهمال المتطرفة سواء أكانت أصليّة أو مرسومة بدلاً من ألف لينة أو بدلاً من همزة، نحو: يهتدي. يرتقي. رضي. يرى. سعى. وفى. نهى. بلى. إلى. على. حتّى. عيسى. موسى. لدى. متى. برئ. فتئ. ينشئ. ينبئ. مبتدئ. وكذا المتوسطة المرسومة بدلاً من الهمزة التي لا يجوز إبدالها ياء محضة كالتي في جمع على وزن فعائل، نحو: شمائل، قصائد، قلائد، والتي في جمع على وزن مفاعل إن كانت العين همزة كمسائل جمع مسألة، والتي في اسم فاعل الثلاثي الأجوف، نحو: جائز، بائع، قائل، ما لم تكن قبل الألف همزة فإن الياء حينئذٍ تنقط وينطق بها ياء محضة، نحو: آيل، آيب.

والمختار أيضاً إهمال المتوسطة المرسومة بدلاً من همزة إذا كانت ساكنة أو مفتوحة أو مضمومة بعد كسر، نحو: ذئب، رئة، يستهزئون. أو مكسورة بعد فتحة، نحو: أئمة، لجواز قلبها ياء محضة أو مكسورة بعد كسرة، نحو: مئين وفئين.

الباب الثامن

فيما يكتب واواً أو ياء ويتلفظ به في الوصل

همزة، وما يكتب ياء ويتلفظ به في الوصل واواً

١ ـ من المقرر كون الكتابة تابعة للابتداء والوقف، فالهمزة الساكنة بعد همزة وصل مضمومة تكتب واواً وبعد المكسورة تكتب ياء لأنه في الابتداء ينطق بها كذلك، وإن كانت في الوصل ينطق بها همزة، نحو: فليؤد الذي أؤتمن أمانته، ونحو: ائتمن الأمين. هذا مما يتقدم الهمزة الأولى واو أو فاءٌ في الماضي والأمر من باب الافتعال المهموز الفاء، أو في الأمر في مثل أتى وإلا حذفت الهمزة الأولى، ورسمت الثانية ألفاً إذا أمن اللبس، نحو: فأتمن الأمين، فأتوا بكتاب، وأتمنك عليَّ، وأتمر بأمرك، وإذا لم يؤمن اللبس فلا حذف، نحو: ائتم، وائتلف، فإنه عند حذف ألفه يشتبه بأتم، وأتلف، كما إذا تقدم على ما ذكر غير الحرفين المذكورين لأن الفاء والواو كجزء من الكلمة، ولذا لم يصح الوقف عليهما ووصلت الفاء بما بعدها خطأً، ولولا المانع الطبيعي للواو من وصلها لوصلت، ولذلك استقبح وضعها آخر السطر.

٢ ـ وكذا أول فعل الأمر من المثال (والمراد به هنا الفعل الذي أوله واو بشرط أن يكون من باب علم يعلم) نحو: وجل، يوجل، وود، يود. يكتب ياء نظراً للابتداء بهمزة الوصل مكسورة وينطق به واواً عند ضم ما قبله في الوصل، نحو: يا مؤمن اخجل من هيبة الله، ويا علي أيّد إخوانك.

خاتمة

لما كان اللفظ يحذف فيه بعض الكلمة اتكالاً على فهم السامع أو توقيف المعلم، وبنحت الكلمتين كلمة كالحَسْبَلة[١٣٣] والبسملة[١٣٤] والحمدلة[١٣٥]، وكان الخطّ نائباً عنه استعمل الكتّاب ما يشبه ذلك في الكتابة، وسمّوه الرمز كأن يؤخذ من اسم الشهر حرف أو أكثر، نحو: (م) محرّم، (ص) صَفَرْ، (را) ربيع الأول، (ر) الثاني، (جا) جمادى الأولى، (ج) الثانية، (ب) رجب، (ش) شعبان، (ن) رمضان، (ل) شوال، (ذا) ذو القعدة، (ذو) ذو الحجة، وكأن يؤخذ من الاسم العلم حرف أو حرفان، أو منه أول حرف، ومن لقبه أو بلده حرف آخر، نحو: (س) لسيبويه، و(سم) لابن قاسم العبادي، و(م ر) للإمام الشيخ محمد الرملي، و(ح لي) للحلبي، و(ق ل) للقليوبي، و(خ ش) للشيخ الشبراملسي، و(ض) للحديث الضعيف، و(م) للحديث المعتمد، و(ص) للمصنَّف بفتح النون: أي المتن، و(المص) للمصنِّف بكسر النون، و(الش) للشّارح، و(ش) للشرح، و(ثنا وثني، وأنا ونا) في الصحيحين: البخاري ومسلم منقطعة من حدثنا، حدثني، أنبأنا، أخبرنا، و(الخ) إلى آخره و(اهـ) انتهى و(مم) ممنوع و(لايخ) لا يخفى و(ع م) عليه السلام. وكذا (صلعم) أو (ص م) وهذه الأربعة الأخيرة من اصطلاحات العجم. ولكل من علماء المذاهب الأربعة والفنون الأخرى رموز نحو ذلك ينبهون على مدلولاتها في أوائل كتبهم وفي جميع ذلك ينطق بالأسماء المتعارفة دون أسماء حروف الهجاء. وقد نهى علماء الدين الأفاضل عن كتابة الرمز بدل الصلاة عليه ﷺ، لأن فيه إعراضاً عن اكتساب الثواب العظيم الوارد في حديث: «من صلّى عليّ في كتاب لم تزل الملائكة تستغفر له ما دام اسمي في ذلك الكتاب».

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

يقول مؤلفه السّيد أحمد الهاشمي: «قد فرغت من تأليفه في غرفة[١٣٦] ألف وثلثمائة وتسع عشرة هجرية»، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية.

---

[١٣٣] ـ كلمة منحوتة من جملة: حسبي الله ونعم الوكيل.

[١٣٤] ـ كلمة منحوتة من جملة: بسم الله الرحمن الرحيم.

[١٣٥] ـ كلمة منحوتة من جملة: الحمد لله ربّ العالمين.

[١٣٦] ـ في اكثر من طبعة ورد اللفظ مصحّفاً وصوابه (غرّة) أي مستهلّ ولا معنى للفظ المثبت (غرفة).

١

أمثلة
على القواعد السابقة

الصحة تاج على رؤوس الأصحاء، لا يراه إلّا المرضى. الحريّة أفضل سعادات الدنيا. اليد العليا خيرٌ من اليدِ السفلى. كفى بالقناعة ملكاً، وبحسن الأخلاق نعيماً. إنّ ما عند الله هو خير لكم. ما كلُّ ما يتمنَّى المرءُ يدركه. لن يبلغ المرء حقيقة الإيمان حتى يعلمَ أنّ ما أصابه لم يكن ليخطِئَه، وأنَّ ما أخطأه لم يكن ليصيبَهُ.

[الكامل]

لمنافعٍ يَسْعى اللّبيب فلا تكن ... لشيءٍ بعيدٍ نفعُه الدَّهْرَ ساعيا

[الخفيف]

رُبَّ ما تكرهُ النُّفوسُ من الأمْـ ... ـرِ له فرجة كحَلِّ العقال

[الطويل]

فتلك ولاةُ السوء قد طال مَكْثُهم ... فحتّامَ حتَّامَ العناءُ المطوَّلُ

[الطويل]

إلامَ تقولُ الناعياتُ إلى مَهْ ... ألا فاندبا أهلَ النَّدى والكرامه

إن تُبدوا الصَّدقاتِ فنعمَّا هي. لأمْرٍ ما جَدَعَ قصير أنفه.

﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٣].

[الطويل]

ولكنّ نفساً حُرَّةً لا تقيم بي ... على الضَّيْمِ إلّا ريثما أتحوَّل

[الخفيف]

قلما يبرحُ اللّبيبُ إلى ما ... يورثُ المجد داعياً أو مجيباً

[الطويل]

ولكنما أسعى لمجدٍ مُؤَثَّلٍ ... وقد يدرك المجدَ المؤَثَّلَ أمثالي

[الطويل]

إذا أنت لم تنفعْ فَضُرَّ فإنَّما ... يُرَجَّى الفتى كي ما يَضُرُّ وينفعُ

[البسيط]

وربّما ضرَّ خِلٌّ نافعٌ أبداً كالرِّيقِ يحدث منه عارضُ الشَّرَقِ

[م الرّمل]

احفظ الإخوان كيما يحفظوا منك المغيبا

٢ ـ أمثلة أخرى على القواعد السابقة

قيل لامرأة: ما الجرح الذي لا يندمل؟

قالت: حاجة الكريم إلى اللئيم ثم يَرُدُّه.

قيل لها: فما الذُّلُ؟

قالت: وقوف الشريف بباب الدَّنيء ثم لا يُؤْذَنُ له.

قيل لها: فما الشَّرف؟

قالت: اتخاذ المِنَن فِي رقاب الرجال. [الكامل]

ما ماتَ من كَرَمِ الزَّمان فإنّه يحيا لدى يحيى بن عبد الله

الاستشارة يفتقر إليها الرئيس والمرؤوس، فإذا تراءى لك أن تعمل عملاً، فاستشر ذوي الآراء الصائبة قبل أن تبتدئ فيه.

قال عمر بن الخطاب: «الرأي الفَرْدُ كالخيط السَّحيل[١٣٧]، والرأيان كالخيطين، وثلاثة الآراء لا تكاد تنقطع». [الطويل]

إذا شئت أن تحيا سليماً من الأذى ودِيْنُك موفورٌ وعِرْضُكَ صَيِّنُ

فلا يَنْطَلِقْ مِنْكَ اللِّسانُ بسوءة[١٣٨] فَكُلُّكَ عوراتٌ وللنَّاسِ أَلْسُنُ

وعينُك إنْ أبْدَتْ إليك معايباً لقومٍ فَقُلْ يا عينُ للنَّاسِ أعين

٣ ـ العلوم عند العرب

١ ـ في عهدِ هارون الرشيد اختُرِعَتِ السّاعة الدقّاقة والمتحرّكة بالماء وقد أهداها الرّشيد «الشرلمان» ملكِ فرنسا، ولما رآها الإفرنج ذُعِروا منها لزعمهم أنّها آلة سحرية اختبأت فيها الشياطين وأرسلت إليهم للإيقاع بهم.

وابن يونس المصري، هو الذي اخترع بندول الساعات، وهم الذين اخترعوا بيت الإبرة، وبوصلة البحرية، وقد أخذ الإفرنج عنهم الأرقامَ الحسابية، وعلمَ الجبر والمقابلة، وقواعد ثقل الأجسام وعلم الكيمياء، واستخرجوا المياه والزيوت بواسطة التّقطير والتصعيد. وقد برعوا في الجراحة، حتى إن نساءهم كُنَّ يعملن العملياتِ الجراحية لبناتِ جنسِهن، وقد كُنَّ يشاركن الرجل آونةً في عملها، وقد ساحوا في قارة آسيا وأوربا وأفريقيا.

---

[١٣٧] ـ الخيط السَّحيل: المفتول على قوّة واحدة.

[١٣٨] ـ السَّوْءة: الخَلَّة القبيحة، وكل أمر شائن.

٢ ـ وفي مدّة المأمون حُسِبَ الخسوفُ والكسوف، وذواتُ الأذناب، وقيست الدَّرجة الأرضية، ورُصِدَ الاعتدالان: الربيعي والخريفي، وقدّر ميل منطقة فلك البروج، وبرعوا في الرصد، حتى فاقوا علماء اليونان، وكان لهم كثير من المراصد الفلكية، منها مرصد إشبيلية، وهو أوّل مرصد ظهر في أوروبا، ومرصد بغداد، ومرصد سمرقند، ومرصد دمشق، ومرصد جبل المقطّم في القاهرة.

٣ ـ وفي مدنهم انتشرت المدارس، فقد كان في مدينة قرطبة ببلاد الأندلس ثمانون مدرسةً في عهد ابن عبد الرحمن الناصر المتوفى سنة ثلثمائة وست وستين. وكان في مدينة القاهرة عشرون مدرسة. وكان بها مكتبة فيها نحو مائة ألف مجلد. وكان ببلاد الأندلس نحو سبعين مكتبةً عمومية، عدا مكتبة الخلفاء التي بلغ مجموع ما بها من المجلدات نحو ستمائة ألف مجلد. وقد أحرق الإسبانيون بعد فتح الأندلس نحو مليون وخمسة آلاف مجلد، كلّها من وضع العرب.

٤ ـ وقد أنفق الوزير نظام الملك مائتي ألف دينار على مدرسة في بغداد. ورتّب لها نحو خمسةَ عشرَ ألفَ دينارٍ تنفقُ في شؤونها سنوياً، وكان بها نحو ستة آلاف تلميذ. وكان الفقراء يتعلّمون فيها مجاناً. وقد أنشأ العرب مدرسة في إيطاليا، وهي المسماة مدرسة سالبرن.

٤ ـ لقمان

١ ـ عاش ألف سنة، وأدرك داود عليه السلام، وأخذ عنه العلم. وكان يفتي قبل مبعث داود. فلمّا بُعِثَ قطع الفتيا. وكان حكيماً لا نبياً، وكان عبداً أسود فرزقه الله العتق، ورضي قوله.

وقد دخل على داود يوماً، وهو يسرد الدروع. وقد ألانَ الله له الحديد. فأراد أن يسأله، فأدركته الحكمة فسكت. فلمّا أتمّها لبسها، وقال: نِعْمَ لبوسُ الحربِ أنت. فقال لقمان: الصمت حكمة، وقليلٌ فاعله. فقال له داود: بحقٍّ ما قد سُمِّيتَ حكيماً.

٢ ـ وقد أوصى ابنه فقال: «يا بُنَيَّ لا تشرك بالله، إنّ الشرك لَظُلْمٌ عظيم. يا بُنَيَّ أقم الصلاة، وأمر بالمعروف، وانهَ عن المنكر، واصبرْ على ما أصابك، إنّ ذلك من عزَم الأمور، ولا تصعِّر خدَّك للناس، ولا تمشِ في الأرض مرحاً، إنّ الله لا يحبُّ كلَّ مختالٍ فخور، واقصد في مشيِكَ، واغضُضْ من صوتك، إنّ أنكرَ الأصواتِ لصوتُ الحمير».

٣ ـ وقد روي أنّ مولاه أمرَه بذبح شاة، وبأن يخرج منها أطيبَ مضغتين، فأخرَجَ اللِّسانَ والقلبَ، ثم أمره بمثل ما أمره به أوّلاً بعد عدّة أيام، وبأن يخرِجَ له

أخبَثَ مضغتينِ، فأخرج اللّسانَ والقلبَ أيضاً، فسأله عن سبب تقديم الجزءَين في كلتا المرّتين، فقال: هما أطيب ما فيها إذا طابا، وأخبثُ ما فيها إذا خبُثا.

٥ ـ وصف علي بن أبي طالب

سأل معاوية بن أبي سفيان عبد الله بن عباس عن علي بن أبي طالب، فقال له: كان والله علم الهدى، وكهفَ التُّقى، ومجمل الحِجى، وبحرَ النَّدى، وطَوْدَ النُّهى، وبيتَ العلا داعياً الورى إلى المحجّة العظمى متمسّكاً بالعروة الوثقى، خيرُ من آمن واتقى وأفضل من تقمّص وارتدى وأبرّ من انتقل وسعى، وأفصح من تنفّس وقرأ، وأكثر من شَهِدَ النجوى سوى الأنبياء والنبي المصطفى.

٦ ـ خطبة لسيدنا عيسى بن مريم

قام عيسى بنُ مريمَ عليهما السلام، خطيباً في بني إسرائيل فقال: يا بني إسرائيل، لا تتكلموا بالحكمة عند الجهلة فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم، ولا تكافئوا ظالماً فيبطل فضلكم. يا بني إسرائيل الأمور ثلاثة: أمرٌ تَبَيَّن رشدُه فاتبعوه، وأمر تَبَيَّن غَيُّه فاجتنبوه، وأمر اختلفتم فيه فرُدُّوه إلى الله.

٧ ـ قسّ بنُ ساعدةَ الإيادي

أشهر قضاة العرب وفصحائهم وشعرائهم، وأوّل من استهلَّ خِطابَتَه «بأمّا بعد» وأوّل من علا على شَرَفٍ[١٣٩] فخطب، وأوّل من اتكأ في خطبته على سيفٍ وعصا، وأوّل من أقرَّ بالبعث على غير علم، وأول من قال: «البيّنة على المدَّعي واليمين على من أنكر». وفي الحديث: يرحم الله قسًّا، إنّي لأرجو أنْ يُبْعَثَ يومَ القيامة أمّةً وحدَه. فقيل له: لِمَ يا رسولَ الله؟ فقال بقوله: أيّها الناس انظروا واذكروا، من عاش مات، ومن مات فات، ليلٌ داجٍ، وسماء ذات أبراج، وبحار تزخر، ونجوم تزهر، وضوء وظلام، وشهور وأيام، ومطعم ومشرب، ولبس ومركب. ما لي أرى الناس يذهبون ثم لا يرجعون، أرضُوا بالمقام فأقاموا، أم تُرِكوا فناموا؟

٨ ـ العمل

العمل يَنْسِجُ الحديد خيوطاً، يمدّها من بلد إلى بلد، ومن قطر إلى قطر، فوق الجبال الشامخات، وتحت البحار الجاريات. فيأتي بما لا يخطر على قلب بشر، يهيئ للكلام مطيّة يعتليها، فيسبق بها الريح الزَّرود. وما رسالة البرق إلّا كسنحات الخاطر، أو مسارح الخيال. العمل ساحر قادر، يجول في البرية القاحلة غير المأهولة بالسكان. ثم يُنْعِمُ النظر في تلكَ الحال الموحشةِ ويهزّ لها مِخْصَرتَه عجيبة الفعال، فإذا تلك

[١٣٩] ـ الشَّرَف: الموضع العالي يشرف على ما حوله.

البيد القفراء تبسم عن خيرات وزروع، تحاكي الذّهب في فاقع صفرته. حتى إذا سُعِّرَ التنّور، ودُقَّت السَّنْدانات، ودارت رحى العملِ تكدح كدحاً انبثقت المدنيّة، وتفتحت الأسواق، وازدهت ساحات العلوم، وأقيمت معالم الدين كلُّها، مشرئِبَّةَ الشُرُفاتِ إلى عَنَانِ السَّماء، وكذلك يلوح منِ المرفإ غابةٌ من الصَّواري[١٤٠] تَخْفِق فوق أسنمتها الأعلامُ فيأوي إليها الناس من كلِّ صَوْبٍ وَحَدَب[١٤١].

٩ ـ الأمة والحاكم

إذا كان الحاكم عالماً حازماً، أصيل الرأي عاليَ الهِمَّة، رفيعَ المقصد، قويمَ الطبْع، ساسَ الأُمَّة بسياسة العدل، ورفع منار العلم، ومهّد لها طريقَ اليسار والثروة، وفتح لها أبواباً للتفنّن في الصنائع وبعث في أفرادها المحكومين روحَ الشَّرَف والنخوة وحملهم على التّحلّي بالمزايا الشريفة من الشجاعة والشهامة وإباء الضيم، والأنفة من الذلِّ، ورفعهم إلى مكانة عليا من العزّة ووطّأ لهم سبل الراحة، وتقدّمهم إلى أوجه البر، وإن كان الحاكم جاهلاً دنيء الطبع، عديمَ الهمّة، شَرِهاً جباناً، ضعيفَ الرأي، أحمقَ الجَنان، خسيسَ النفس، أسقط الأمّة بتصرّفه وضرب على نواظرها غشاواتِ الجهل، وجلب عليها غائِلةَ الفاقة، وحاد في سلطته عن جادَّة الحق، وفتح أبوابَ العدوان، فيتغلّب القوي على حقّ الضعيف، ويختلّ النظام، وتفسد الأخلاق ويُغْلَبُ الناس على أمرهم، فتمتدّ إليها أنظار الطامعين، وتضربُ الدُّولُ الفاتحة بمخالبها في أحشائها.

١٠ ـ الأغنياء والفقراء

ينسى الإنسان وهو في نعيم الحياة ما فيه غيرُه من بؤس وشقاء، فكأن السعادة عند قوم ألّا يفكروا في مصائب الآخرين ولا يهتمّوا بمتاعب الآدميين، حتى لا يؤلموا أنفسَهمً الرقيقة بهذه المؤثرات. ولذلك ترى صلاتِ الرحمة والحنان بين الأغنياء والفقراء مقطوعةً إلّا بين القليل منهم. وإنّا لنرى في مصر من أرباب الثراء، من إذا عمل بدينه وأخرج من ماله الزكاة المفروضة لا تنقص بها خزائنه. وهل يؤدّي إلّا تافهاً أو يتصدّق إلّا بيسير؟ ولكن أنّى ذلك وهم يمرحون في مراتع القَصْفِ والتَّرف غيرَ عالمين أن كثيراً يشكون ألم الضَّنْكِ[١٤٢]، ويئنون تحت أعباء الأمراض ولا من يرعاهم أو يحزن من أجلهم. ولولا بَرُّ الفقير بالفقير على خصاصته[١٤٣] لفتك الموت فتكاً ذريعاً بعد أن تأكلَ الأمراضُ أجسامَهم كما تأكل النّار الهشيم.

---

[١٤٠] ـ الصّواري: جمع الصارية وهي عمود يقام في السفينة يشدّ عليه الشّراع.
[١٤١] ـ الحَدَب: ما ارتفع وغلظ من الأرض. والصَّوْب: الجهة.
[١٤٢] ـ الضَّنك: الضَّيق من كل شيء.
[١٤٣] ـ الخصاصة: الفقر والحاجة وسوء الحال.

١١ ـ تعاقب الصَّحْوِ والغيث

مِنْ تمام النعمة وعظيم الحكمة، أن جعل الله الصحو يتخلّل نزول الغيث، فصارا يتعاقبان لما فيه صلاحُ هذا العالم، ولو دام واحد منهما عليه لكان فساداً، ألا ترى إلى الأمطار إذا توالت وكثرت، عفنت البقول والخَضْروات، وهدمت المساكن والبيوت، وقطعت السُّبل ومنعت من الأسفار، وكثير من الحرف والصناعات. ولو دام الصحو لجفّت الأبدان والنبات وعفن الماء الذي في العيون والأودية، فأضرّ ذلك بالعباد، وغلب اليبس على الهواء فأحدث ضرراً آخر من الأمراض، وغلت بسببه الأسعار من الأقوات، وبطل المرعى، وتعذر على النحل ما يجده من الرطوبة التي يرعاها على الأزهار، وإذا تعاقبا على العالم، اعتدل الهواء، ودفع كل واحد منهما ضرر الآخر، فصلحت الأشياء واستقامت.

١٢ ـ مصر

مصر كالدُّرَّة اليتيمة أو اللؤلؤة الثمينة يتوارثها ملوك الدول، فكأنّها الجوهرة النفيسة استخرجها أوّلُ فاتح من معدنها، ثم وضعها وسط لآلِئ تاجِه الفخيم ثم جاء من بعده آخر اختلعها بقوَّتَه أو بخدعته، ونزعها من ذلك التاج، وصاغها في تاجه الحديث الزاهي، وهكذا فعل بها غيره. وهي في كلِّ تلك الأدوارِ تقاسي نتائج النقل وتعاني مشقة الصياغة الحامية والقارصة، تارة بالنار وأخرى بالضغط دون أن تستفيد شيئاً غير حظوتها بشرف الوضع فوق رأس عزيز حكيم أو قاهر جبار.

١٣ ـ الفقر

الفقر رأسُ كلِّ بلاء، يجلُب إلى صاحبه كل مقت؛ فهو معدن النميمة، والرجل إذا افتقر، اتهمه من كان له مؤتمناً، وأساء به الظن، من كان يظن فيه حسناً، فإن أذنب غيره، كان هو للتهمة موضعاً، وليس من خَلَّةٍ هي للغني مدح، إلّا وهي للفقير ذم. فإن كان شجاعاً قيل أهوج، وإن كان جواداً سمّي مبذراً، وإن كان حليماً سمّي ضعيفاً، وإن كان وقوراً سمّي بليداً. فالموت أهون من الحاجة التي تُحْوِجُ صاحبها إلى المسألة، ولا سيّما مسألة الأشحّاء اللئام، فإنَّ الكريم لو كُلِّفَ أن يدخل يده في فم الأفعى فيخرج منه سماً فيبتلعه، كان ذلك أهون عليه، وأحبّ إليه من مسألة البخيل اللئيم.

١٤ ـ الغد

الغد: شبح يتراءى لناظره من بعيد. فربما كان مَلَكاً رحيماً، وربما كان شيطاناً رجيماً، بل ربما كان سحابة سوداء، إن هبَّت عليها ريح باردة، حلّلت أجزاءها، وفرّقت ذرّاتها، فأصبحت كأنما هي عدم من الأعدام، الذي لم يسبقه وجود.

الغد: بحر خِضَمّ زاخر، يعب عبابه وتصطخب أمواجه، فما يدريك إن كان يحمل في جوفه الدر والجوهر، أو الموت الأحمر. لقد غمض الغد على العقول، ودَقّ شخصُه عن الأنظار، حتى إن الإنسان ليرفعُ قدمَه ليضعَها فلا يدري أيضعُها على عتبة القصر، أم على حافة القبر.

الغد: صدر مملوء بالأسرار الغزار، تحوم حوله البصائر، وتتسقّطه العقول، وتستدرجه الأنظار، فلا يبوح بسرّ من أسراره، إلّا إذا جادت الصخرة بالماء الزلال.

كأني بالغد وهو كامن في مكمنه، رابض في محبسه، ينظر إلى آمالنا وأمانينا نظراتِ الهزءِ والسُّخرية، ويبتسم ابتسامات الاستخفاف والازدراء.

١٥ ـ الملائكة

الملائكة: جواهر مقدسة عن ظلمة الشهوة، وكُدورَة الغضب «لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون» طعامهم التسبيح وشرابهم التّقديس، وأنسهم بذكر الله تعالى، وفرحهم بعبادته. قال بعض الحكماء: إن لم يكن في فضاء الأفلاك وسعة السموات حلائق فكيف يليق بحكمة البارئ تعالى تركها فارغة خاوية، مع شرف جوهرها، وأنّه لم يترك قعر البحار المالحة المظلمة فارغاً، حتى خلق فيها أجناس الحيوانات وغيرِها، ولم يترك جو الهواء الرقيق، حتى خلق له أنواع الطير تسبح فيه كما يسبح السمك في الماء، ولم يترك البراري اليابسة، والآجام الوحلة، والجبال الراسية الصلبة، حتى خلق فيها أجناس السباع والوحوش، ولم يترك ظلمات التراب، حتى خلق فيه أجناس الهوام والحشرات؟!

١٦ ـ صغار الأمور تولد كبارها

على العاقل ألّا يستصغر شيئاً من الخطإ في الرأي، والزلل في العلم، والإغفال في الأمور. فإن استصغر الصغير أوشك أن يجمع إليه صغيراً وصغيراً، فإذا الصغير كبير؛ وإنما هي ثلم يثلمها العجز والتضييع فإذا لم تسد أوشكت أن تنفجر بما لا يطاق.

ولم نر شيئاً قطُّ إلا أتى من قِبَلِ الصَّغير المتهاوَنِ به. وقد رأينا الملك يؤتى من العدو المحتقر به. ورأينا الصحة تؤتى من الداء الذي لا يحفل به. ورأينا الأنهار تنبثق من الجدول الذي يستخف به. [البسيط]

كل الحوادث مبدؤها من النظر ومعظم النّار من مستصغر الشرر

١٧ ـ الروح

الروح: هي أصل الحياة والحركة. وأصل الإحساسات والإدراكات والشهوات. تهدي الإنسان في حركاته وسكناته، وأفعاله وأقواله، بما يمتاز به عما سواه من باقي

الحيوانات، وهي من أصل الفطرة، طاهرة زكية، وإنما تولدت عنها الشهوات واللذات، لما اتصلت بالأجسام الطبيعية. ثم إن للروح استعدادات تتميز بها. إلا أن كنهها مغيّب عن البشر، لا يعرفون حقيقته، وغاية ما يقال فيها إنها جوهر متميز عن الجسم، ومباين له من حيث إن لها استعدادات لتنجيز عمليات ليس من خواص المادة تنجيزها. فهي التي تدرك الأشياء بما فيها من المشابهة والمشاكلة، والمباينة والمضادة، وتجيل فيها الفكر، وتقيم عليها الدليل، وتنتج النتائج الصحيحة، وتتبصر في عواقب الأمور، وتقضي وتحكم بما يلزم. وهذا لا يوجد في المواد الجسميّة. وإن الروح سرٌّ إلهي أودعه الباري في هذا الهيكل الجسماني. قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

١٨ ـ الوقت والعامل

الإنسان مُطالَبٌ من قِبَلِ ذاته أن يعمل ليعيشَ عيشةً راضيةً، ومُطالبٌ من قبل معاصريه بمبادلة المنفعة والمشاركة في كلِّ عمل يحفظ لهم حياتَهم ووحدَتَهم، ومطالبٌ من قِبَلِ السَّلف أن ينظر فيما اعترضَهُم فيه الوقت فمنعهم من إتمامه ليهيّئوا للفائدة التي أرادوها بالشروع فيه، ومطالب من قِبَل الخلف أن يعدّ لهم ما يتّخذونه أساساً لأعمالهم، ويشيدون عليه بناء هيئتهم، فهو واقف بين أربع قوات تتجاذبه، إن أضاع طرفة عين من وقته طالبته إحدى القوات، وأقامت كلُّها في وجهه حربَ التأنيب، وبادرت إلى صحيفته فلوّثتها بسواد تقصيره، وهو ليس بشيء إذا طُوِيَ وطويت صحيفَتُه على هذا النمط، وخلت ذكراه من الأثر الحسن.

١٩ ـ الطيارات الهوائية

اهتزت الأمم بالطَّيَّارات، وأولعت بها الولوع الشّديد، فأصبحت أعجوبة العالم في العصر الحاضر، وموضعَ الغرابة والدَّهش، وميدانَ المنافسة بين الممالك الأوربية، كل منها يتطلّب قَصَبَ السَّبْقِ في هذا المخترع العجيب، الذي لا مشاحة سيقلب أطوار التاريخ ويصبُغُه صَبْغَةً جديدة فتكون أوسع الدول سلطة وأقواها شوكة، أكبَرها أسطولاً في جوِّ السماء، لأنّها تكون سيِّدَةَ الهواء ومالكةَ أعِنَّةِ الرّياح، تصبّ من نقمتها جللاً وقنابل على عدوها من تحتها، وتزجي فلك التجارة في ملكوت السموات مِنْ غير أن يعارضَها مُعارض أو يزاحمَها مُزاحم، وتكون السابقةَ إلى كشف البقاع التي لم يتغلّبْ عليها الإنسان لوعورَةِ مسالِكها الطبيعية على ظهر الكرة الأرضية. لقد نسجَ الإنسانُ على البسيطة شِباكاً من القضبان، وزَحَم الشوارعَ بالمركبات والسيّارات، ومخَرَ البحر شرقاً وغرباً بالفلك العادِياتِ، فشغل العالَمَ الدُّنيوي بجميع أسباب الجد والعمل، فلمّا أن ضاق به ذرعاً نَفَذَ إلى أقطار السموات يحلّق في فسيح الفضاء، فلِلَّهِ دَرُّه ما أقواه!

فلا القيود الوثيقة، ولا العوامل القوّية، ولا الطّبيعة بقوانينها، ولا جاذبيّة الأرض نفسُها التي يخضع لسلطانها وعليها جميع الكائنات بقادرةٍ على أن تُرْغِمَ منه تلك الروحَ العالية القوية.

٢٠ ـ الجِدّ في العمل

الجد: أي العملُ الدَّائم، هو شرط لازم للنجاح خصوصاً في هذه الأيام، فقد اشتدّت المناظرة في العلم، والتجارة والصناعة والزراعة، حتى لم يَبْقَ سبيل للنجاح إلّا للمجتهدِ فقط. ولا يقوم مقامه شيء لأنّ الذكاء الذي يحسبه قوم كافياً كافلاً للنجاح وَهْمٌ لا يخدع إلّا المعجبين بأنفسهم، وضرب القدماء لذلك حكايةً معروفة وهي حكاية أرنبٍ وسُلَحْفاةٍ تراهنا على سباق، ولمّا كان الأرنب واثقاً بسرعة جريه تقاعد ونام. وأمّا السلحفاةُ فلم يكن لها مع بطءِ حركتها إلّا الكدُّ المتَّصل وكان ذلك سببَ فوزها. ثُمَّ إنّ أحذقَ النَّاس هم الذين اشتهروا بالجدِّ العظيم والعمل الدائم، وما بلغ مقاماً رفيعاً إلّا من اعتزل القول بالسَّعْدِ والنَّحس، وقاوم المشاقَّ التي عارضته، واخترق صفوف ما عاداه من صروف الدهر، إلى أن نالَ المطلوب. فكان (لنيوس) واضعُ النظام النباتي المعروفُ باسمه، فقيراً جداً، يرقع حذاءه بالورق، ويسأل أصدقاءه الطعام. و(مللر) الجيولوجي الشهير صانعاً في قطع الحجارة. و(ستيفنسن) مخترع القطار البخاري أجيراً لاستخراج الفحم الحجري من الأرض. وكثيرون غيرهم جَدُّوا ووَجَدُوا.

٢١ ـ محبة النفس

محبّة الإنسان لنفسه، هي إحساس فيه يبعثه على أن يجلب جميع ما يقدر عليه لرضاها وشفاء غليلها وقضاء شهوتها.

فالمتَّصف بهذه الصفة يجعل نفسَه محبوبه، وبغيته من الدنيا، ومركز دائرة مرغوبة، فلا تنبعث أشعة فكره إليها، وكل ما يتمناه وتشتهيه نفسه من الغنى والزينة والفخار يجعلها عائداً عليها.

وكذلك يقصّر بحبه عن إزالة الشرِّ عنها. فلا رغبةَ له في نفع الإخوان ولا الأوطان. فجميع ما يجلبه من خيرٍ أو يدفعه من شر فمتولِّدٌ من هذه المحبة، فهي بالنسبة إليه سببُ اللذات والآلام، ومجلبة الشهوات الجسمية والعقلية. وهذه الخصلة في الحقيقة خارجة عن حد الإنصاف والاعتدال، لا يُعَدُّ صاحبُها إلّا ظالماً لنفسه، طائعاً لهواه، جائراً، جباراً، متملّقاً، حسوداً لمن سواه. فحبُّ النفس خَصْلَةٌ جامعة لجميع العيوب والذنوب، مخلّة بالجنس البشري، دالَّةٌ على دناءة النفس، لأنَّ صاحبَها مقصورُ الهِمَّةِ على منفعةِ نفسِه لا يعود نفعُه في شيء ما على إخوانِه وأبناء جنسه. وهي منبع الحرص والطمع.

٢٢ ـ الناس رجلان

قال بعض الحكماء: الأعمال والمآثر التي تخلّدها التواريخ لرجال الأمم، لو لم يكن فيها من اللّذة والحبورِ إلّا أنْ يعرفَ صاحبُها أنَّ له حياةً أخرى في صدور قومه، لن تموتَ بموتهم، ولن تفنى بفنائهم، لكفى بها لذة ونعيماً. وفي الحقيقة شتّانَ ما بين جمالٍ طبيعي تسلبه العوارض وتطمس معالمه، وبين جمال أدبي يَرْتسم في صفحاتِ الدهور يزيدُ بكرورها، ويعظم بمرورها، وشتّانَ بين من يعمل ليخدمَ نفسه، وبين من يعمل ليخدمَ قومه ووطنه. ومن هنا كان الناس رجلين: رجلاً عورَةً على نفسه، وعاراً على قومه، ورجلاً تجمل به الأمة ويجمل بها.

٢٣ ـ الوافد

لا بُدَّ للوافد عن قومِهِ أنْ يكونَ عميدَهم، وزعيمَهم الذي عن قوسه ينزعون، وعن رأيه يصدرون، فهو واحد يعدل قبيلة، ولسان يُعْرِبُ عن ألسنة، وما ظنُّك بوافد قوم يتكلّم بين يدي ملك جبّار في رغبة أو رهبة، فهو يوطِّدُ لقومه مرَّة، ويتحفَّظ من غريبة من غرائب الفطنة، أم تظنُّ القومَ قدّموه لفضل هذه الخُطَّةِ، إلّا وهو عندهم في غاية الحذلقة واللسانة ومجمع الشعر والخطابة.

٢٤ ـ الإنسانية

ما ألطَفَ كلمةَ الإنسانيةِ في الدّنيا! وما أشرَحَها لصدورِ سامعيها؛ وما أسكنَ الخواطرَ إليها! كان ينبغي أن يكون موضوعُ الإنسانية أهمَّ درسٍ يُعَوَّلُ عليه في التعليم، ويلقَّنه الطلبة منذ الحداثةِ تقويماً لأخلاق الأمم، وتلطيفاً من شرِّ النوع البشري الذي يكاد متمدينوه يبتلعون أبناءَ طينتِهم طمعاً وشراهة، فما ظنُّك بغير المتمدينين. لقد كان البحث في الإنسانية، وواجباتِ الإنسانِ أجدرَ بعناية المتمدينة من البحث عن تركيب المواد المستأصلة للنوع، واختراع المهلكات الجارفة لبني الإنسان، ومن الافتخار بإتقان فنِّ الطيران للقذف بالموت من فوق رؤوس الناس.

٢٥ ـ الفقر ألدُّ الخصام

ركب خالد في يوم شديد البرد كثير الغيم، فتعرّض له رجل في الطريق، فقال له: ناشدتك اللَّهَ أن تضربَ عنقي. قال: أكَفَرْتَ بعد إيمان؟ قال: لا. قال: أفنزعت يداً من طاعة الرحمن؟ قال: لا. قال: أقَتَلْتَ من غير تبيان؟ قال: لا. قال: فما سببُ ذلك؟ قال: خَصْمٌ لجوج قد عَلِقَ بي، ولزمني وقهرني. قال: من هو؟ قال: الفقر. قال: فكم يكفيك؟ قال: أربعةُ آلاف درهم. فالتفت خالد إلى رفقائه، ثم قال لهم: هل ربح أحد التجار كربحي اليوم؟ قالوا: وكيف ذلك؟ قال: عزمت أن أعطي هذا الرجلَ ثلاثينَ ألفَ درهمٍ، فلمّا طلب أربعة آلاف درهم، توفّر ستَّةٌ وعشرون ألفاً.

فقال الرجل: حاشاك وأعيذك بالله أن تربح على مؤملك. فقال: يا غلام أعطِه ثلاثينَ ألفاً. ثم قال للرجل: اقبض المال آمناً من خصمك. ومتى عاد يعانِدُك، فاستنجد عليه بنا. «قاتلَ اللّهُ الفقرَ، ولو كان الفقر رجلاً لقتلته».

٢٦ ـ العرب

العرب جيل ساميّ سكنوا الجزيرة التي سُمِّيَتْ باسمهم. فاضطروا بطبيعتها في أكثر مواطنها إلى أن يكونوا رُحَّلاً نزلاً ينتجعون مواقع المطر، يسيمون فيها أنعامهم التي عليها أكثرُ اعتمادهم، يشربون ألبانَها، ويأكلون لحومَها، ويتّخذون من أصوافِها وأوبارِها وأشعارِها أثاثاً وملابسَ وبيوتاً. فهي جل ما بأيديهم من متاع الحياة الدنيا، يحفظونها لتحفظهم، ويحيونها ليحيوا بها. فأوغلوا لذلك في البوادي، حيث البعد عن العفونات التي تضر بنتاج إبلهم، فتولد فيهم أخلاق وعادات امتازوا بها بين الأمم، لأن الظَّعنَ وكثرةَ الترحال والتعرُّضَ للمؤثرات الجوية تعوّد الجسم الخشونة، والتقشّف، وشظف العيش، وتحمّل المشاق، ويتبع هذا أنَّ النفسَ تُراضُ على ما يشابهها من الأخلاق والعادات إذ الجسم وعاء الروح والظاهر كما يقولون عنوان الباطن. فكان لهم من ذلك أخلاقٌ تأصّلت فيهم، منها الحرية والكرم، والشجاعة والوفاء.

٢٧ ـ نصيحة

أوصيك ألّا تأخذَ العلومَ من الكتب، وإن وثقت من نفسك بقوّة الفهم. وعليك بالأستاذِ في كلِّ علم تطلب اكتسابَه، ولو كان الأستاذُ ناقصاً، فخذْ عنه ما عنده، حتى تجدَ أكملَ منه. وعليك بتعظيمه وترحيبه، وإن قدرت أن تفيده من دنياك فافعل، وإلّا فبلسانك وثنائك. وإذا قرأت كتاباً، فاحرص كلَّ الحرص على أن تستظهره، وتملك معناه. ثم توهم أن الكتاب قد عدم، وأنك مستغنٍ عنه لا تحزن لفقده، وإذا كنت مكباً على دراسة كتاب وتفهّمه، فإياكَ أن تشغلَ بآخرَ معه، واصرف الزمان الذي تريد صرفه في غيره إليه.

٢٨ ـ النشأة الحربيّة

ليس من بين الأمم الأوربية أُمَّةٌ إلا وتنشِّئ أبناءها نشأة حربية حرة، حتى الأمم الضعيفة التي مهما استكثرت من وسائل العدة والقوة فلا طاقة لها بمقاومة دولة كبرى ينفقن في هذا السبيل أموالاً طائلة استعداداً للطوارئ المدلهمّة، والظاهر أن للنشأة الحربية تأثيراً كبيراً في رقي الأمّة في الصِّناعة والتجارة، لأنَّ الرجل إذا نشأ نشأة حربية، أكسبته أخلاقاً شريفة وجعلته رجلاً شهماً مقداماً يعتمد على قواه وجهوده، ولا يخشى الخطر إذا اقترب منه، بل يقتحم بقلب ثابت، وعزيمة ماضية، ولذلك نرى

أبناءَ الأمم الحربيَّةِ من أكبرِ الناس آمالاً وأشدِّهم ثقة بأنفسهم، يقدمون على المشروعاتَ الكبرى في الأقطار النائية، ويعرضون أنفسهم لخطر الخسارة وبإقدامهم ينجحون ويفوزون.

٢٩ ـ المرأة في الجاهلية

من أكبر الأدلة على رقيّ العرب في جاهليتهم، ارتقاء نسائهم، فقد كان للمرأة عندهم رأي وإرادة، وكانت صاحبةَ أَنفَةٍ ورفعة وحزم، فنبغ غير واحدة منهنَّ في السياسة، والحرب، والأدب، والشعر، والتجارة، والصناعة، لا سيّما في أوائل الإسلام على أثر ما حصل من النهضة في النفوس والعقول، فاشتهرت جماعة منهن بمناقبَ رفيعةٍ، تُضْرَبُ بها الأمثال، وأكثرها في المدينة مقرُّ الخلافة الإسلامية في ذلك العهد. فاللواتي اشتهرن في الجاهلية بالشجاعة وشدّة البطش، وكبر النفس منهن: سلمى بنت عمر إحدى نساء ابن عدي، وعمرة بنت علقمة الحارثية، وهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان. ونبغ في الرأي والحزم غير واحدة، أشهرهن: خديجة بنت خويلد، والخنساء، وقد حرّضت أولادها على الثبات في واقعة القادسية. فلمّا بلغها أنهم قتلوا في سبيل الجهاد، قالت: «الحمد لله الذي شرّفني بقتلهم». وكان لها شأن في الشعر والأدب.

٣٠ ـ التدخين

منذ شاعت عادة تدخين التبغ، بعد كشف القارة الأمريكية، وضربت في أنحاء الأرض مشارقها ومغاربها، كان ولا يزال الناس على اختلافٍ في فائدة التدخين وضررِه. فمنهم من تعصّب له، وغيرهم تعصّب عليه. وكان بين آراء الفريقين تضاربٌ شديد وبَوْنٌ[١٤٤] بعيد يقف بينهما المتجرّد حائراً، لا يهتدي من أمره إلى صواب، ولا يقدر على الترجيح، إلّا أن يكون ذلك اتباعاً للميل لا اقتناعاً بالدليل.

وليس هذا شأن العامة فقط، بل هو شأن الأطباء المختصين، وقد اجتمع منهم منذ عهد غير بعيد في مدينة واشنطن عدد كبير في مؤتمر، تبادلوا فيه الآراء في شؤون علمهم وجاؤوا على ذكر أثر التدخين في حركة القلب، فمنهم من أثبت أن للتدخين تأثيراً مضراً على القلب قد يؤدي إلى الموت الفجائي.

ومنهم من أنكر هذا المذهب وبرهن على العكس حتى إذا انفضّ المؤتمر، كان الخصيصون على نفس الانشقاق في الرأي، والبعد عن النتيجة كما كانوا قبل اجتماعاتهم.

---

[١٤٤] ـ البَوْنُ: مسافة ما بين الشيئين.

ولكن جميع العلماء متفقون على أن تدخين التبغ بين القُصَّرِ والمراهقين مضرٌّ للغاية، وأنَّ حَلْقَ المفرِطِ في التدخين، يتأثر تأثيراً شديداً، فيضعف الصوت ويجعل صاحبه مُعَرَّضاً للنزلة الوافدة. وأشد وطأته على القلب، فإنه يبطئ حركته، ويقلل نبضاته، حتى إنه في فترة كل خمس نبضات، يتوقف القلب مدة نبضة.

٣١ ـ الأَهرام

كان ملوك مصر القدماء كَلِفينَ ببناءِ القبور العظيمة لأنفسهم مدة حياتهم على شكلٍ هرمي قاعدته رباعية. وقد وقف الباحثون في هذا الزمن على أطلالِ نحوَ ستّين هرماً تتقاطر بعضها وراء بعض في مصر الوسطى من أرباض القاهرة حتى مدخل الفيّوم، وأشهرها هي المعروفة بالأهرام الكبرى. وهي قائمة على سفح سلسلة جبال لوبيا إلى الغرب قريباً من المدينة المستحدثة المعروفة بالجيزة، وكل واحد من هذه الأهرام حجرة واحدة أو أكثر لدفن الموتى، يدخل إليها الإنسان من دهاليزَ منحدرة، منحوتة في نفس البناء، وكانوا متى وضعوا جثّة الملك أقفلوا الحجرات بصخور من الصوان، ثم يردمون الجزء من دهليز الدخول القريب من الخارج ردماً تاماً، وبعد ذلك يَطلون جميع سطوح الهرم بطبقة كلسيّة جميلة مبهجة، فيختفي الباب ولا يبقى له أثر يدل عليه.

٣٢ ـ مراسلات العرب

إن المراسلات والمكاتبات من ضروريات المجتمعات الإنسانية التي لا يستغنى عنها، فحاجة الناس إلى استعانة بعضهم ببعض ماسّة إذ الدنيا دار أعمال مشتركة المنفعة، ولما كانت البداوة سابقة الحضارة، والكتابة كغيرها من الصناعات، من لوازم التمدينِ والتمصرِ، والحاجة إلى تبادل الآراء في الشؤون الهامة قائمة والشمل ليس مجتمعاً في كل زمان ومكان، التجئ إلى الترسّل الشفهي، فكانوا يَصْطَفون لتحمّل رسائلهم من يثقون بصدقه وصداقته، وحكمته وأمانته، وقد كثر كلامهم فيما ينبغي أن يكون عليه الرّسول، حتى يصلح لتحمل رسائلهم، ويكون أميناً على وحيهم.

٣٣ ـ الهيئة الاجتماعية

كيفما يكن المجتمع، تكن حالة مجرميه وأشراره، فإن البيئة الاجتماعية هي المغرس الذي تنبت فيه شجرة الشر والإجرام، فإذا كان الوسط فاسداً، ونظام المجتمع منحطاً، تكونت فيه جراثيم الجرائم كما تتكون جراثيم الوباء في الأوساط المستعدة لإيوائها وتكوينها، وقد أيّدت المشاهدات صحة هذا المذهب، لأننا لو نظرنا إلى حالة الإجرام في سويسرة مثلاً، وفي غيرها من البلاد المشهورة بقلّة الجرائم فيها، وقارنا بينها وبين حالة الإجرام في بلادنا، لوجدنا فرقاً كبيراً بين الحالتين، فلم ذلك؟

ألأن هناك محاكم تستعمل منتهى القسوة والصرامة في توقيع العقوبات، أم لأن الحكومة السويسرية قد تفنّنت في تعذيب المجرمين في السجون؟ كلا، لا هذا ولا ذاك، فإن نظام محاربة الجرائم في سويسرة هو أخفّ النظامات وطأة على المجرمين.

وإنما السبب الحقيقي في تلك البلاد السعيدة تربيةُ الأمّة وغرسُ حبّ الفضيلة واستنكار الرذيلة في نفوسهم وانتشار المدارس في كل قرية، فتؤلف هذه بين قلوب الناس وهم صغار، وتنشئهم نشأة صالحة طيّبة، فيقل بطبيعة الحال ميل الناس إلى ارتكاب الجرائم والمنكرات.

٣٤ ـ ضحية النيل

كان من عادة المصريين قبل الفتح الإسلامي أنه إذا مضى اثنا عشر يوماً من شهر (بؤونة) يعمدون إلى جارية بكر فيرضونها ويحملون عليها من الحلى أفضلها ثم يلقونها في النيل ضحية، فأبطل عمرو هذه العادة وعوّض الجارية بتمثال من طين. والسبب في تلك العادة الشنعاء أن المصريين كانوا ألّهوا النيل وعبدوه، وأقاموا له التماثيل والرموز مما يستلزم السجودَ لاسمه، وقد كان لهم في جزيرة (فيلي) بقرب أسوان هيكل لا تزال آثاره ظاهرة إلى الآن تعرف بآثار أنس الوجود، وفي هذا الهيكل كان يجتمع جماهير الكهنة، ولم يُؤْذَنْ لأحدٍ غير الكهنة بوطء تلك الجزيرة، ومن أهم واجباتهم في ذلك الهيكل أن يلقوا حلياً أو قطعاً من الذهب مرة كل سنة، ثمناً لما يجود به عليهم بفيضانه، وكان الحلي أكثره على شكل الخواتم، والمَظْنونُ أن البندقيين اقتبسوا عادة زفاف البحر الأدرياتيكي، من هذه العادة المصرية.

٣٥ ـ تأثير البشر بعضهم في بعض

لمّا كان الإنسان عضواً في الأسرة وفي المجتمع الإنساني، كانت له علاقة شديدة بإخوانه البشر، فينتشر من كل إنسان شيء من التأثير في الذين حوله، كثر أو قل، ظهر أو خفي، صلح أو فسد، فيكون كل فرد من أفراد الناس: إما من العاملين الصالحين الذين يبثّون الخير في الأرض، أو من المفسدين الذين يعيثون فيها فساداً ويملأونها بالقبائح، وكثيراً ما يكون هذا التأثير على سبيل المثال الذي لا يسمع له صوت، ولكنه يعمل في النفس خفية ويكسبها الأخلاق الكريمة إذا رأى الصدق والاستقامة والنزاهة والعفّة والاجتهاد ظاهرة في صفات الذين ينظر إليهم، والتاريخ مشحون بأسماء الأبطال والقواد والعلماء والصالحين الذين لم يقتصر عملهم على أهل زمانهم، بل امتدت شهرتهم مدى الأجيال، وكانت سيرتهم مثالاً وقدوة لخلق عظيم.

٣٦ ـ العلم وقف لا يتحرك

أين الجماعات المشتغلة بالعلوم الإلهية؟ أين منشئو المذاهب والآراء؟ أين

المحامون عن العقائد؟ أين المؤلفون في الرياضيات؟ أين المخترعون علوماً لم تكن كالجبر والكيمياء؟ أين من نقل فلسفة أوروبا كما نقل أولئك فلسفة اليونان؟ أين من شرح كتب «كانت» و«ديكارت» كما شرح ابن رشد كتب أرسطو؟ أين من كتب كتب أفلاطون؟ أين من جمع علوم الأوائل في سِفْرٍ[١٤٥] شامل، كما فعل الفارابي في كتاب التعليم الثاني؟ أين من ألّف فوق مائةِ مُؤَلَّفٍ في الطب، كابن سيناء والرازي؟ أين من سافر لجمع غريب النبات وتدوينه، كما سافر ابن البيطار إلى بلاد الأغارقة؟ أين من جرّب في الحراثة ودوّن كأبي زكريا الإشبيلي، الذي رقّت تجاربه زراعة الأندلس؟ أين من ساح آسيا وأفريقيا والجزر، وكشف البقاع، ووصف المواطن، كالحسن بن القرطبي؟ أين من طلب العلم وأراد به أن يعرف حقيقة يجهلها، ولذّةً عقلية يحصلها؟

٣٧ ـ ذوات الذنب

من الكواكب ما لها ذنب عظيم ملازم لها ما شاء الله؛ وهو كما يرى بالنظر، شعاع من نور ينبعث من الكواكب في الفضاء على هيئة قوس يبتدئ من الكواكب، كلّما امتدّ اتسع وضعف نوره، حتى يتلاشى عند نهاية قوته، وسواء كان الذنب من نور أو أبخرة، فهو ليس بجسم صلب يخشى من تصادمه مع الأرض، إذا حصل وهو من الممكنات الجائزات والذي دل على كونه كذلك، هو إمكان رؤية الكواكب الأخرى المستورة وراءه. وإلى اليوم لا تزال أسراره غامضة عنا، فلا يَغُرَّنَّ أحدَنا قولُ البعض عن هذه الأذناب: إنها أبخرة سامة أو غير ذلك من المفروضات الوهمية التي تكثر عادة حول كل عجيبة مجهولة. ففي سنة ١٨٦١ قد صادم الأرض أحدُ هذه الأذناب، ولم يحدث من ذلك أمر غير عادي، اللهم إلا لمعان غريب. هذا، وأشهر الكواكب ذات الذنب هو الكوكب (هالي) الذي سمي كما هي العادة باسم كاشف حركته.

٣٨ ـ تطهير النفس من الأَوهام

إن الأوهام الفاسدة، والأباطيل الكاذبة، هي للنفس مثل الأقذار للجسم، فيجب الاهتمام بإزالتها بالوسائل الفعالة قبل أن تتراكم على النفس فتمرضها، وتجعلها غير صالحة لتأدية وظيفتها. فقد شوهد أن خرافة واحدة قد تلم بالنفس وتمنعها من التمتع بمزايا كثيرة أخرى، وتحرمها من لوازمها، فتقع في أمراض يعبر عنها بمثل الجبن والحقد والبغض، وهي الأمراض التي يضحّي فلاسفة الأخلاق كلَّ أوقاتهم للسعي في إزالتها حتى إنك لتراهم يحذرون عامة الناس من الوقوع في أشراك الخرافات كما يحذّرونهم من أنياب الأراقم ومخالب الضراغم.

---

[١٤٥] ـ السِّفرُ: الكتاب الكبير.

٣٩ ـ المرأة في الهيئة الاجتماعية

المرأة شريكةُ الرجل في الحياة، ولكل منهما وظيفة مخصوصة أوجدتها وحتّمتها قوانينُ طبيعية، لا مناصَ من اتباعها والسَّير على اقتضائها. أهمها أن المرأة أمٌّ يجب عليها أولاً وقبل كل شيء، أن تسوس منزلها وتراقب خدامَها وتربّي أولادها وتقوم بواجبات زوجها، كما أن الرجل عليه أن يكد ويجتهد في الحصول على ما يلزم لزوجه وولده من الحاجات أوّلاً؛ والكماليات إذا استطاع إلى ذلك سبيلاً. وليس الغرض من تربية البنت أن تكون فيلسوفة أو مهندسة أو شاعرة أو... الخ اللهُمَّ إلّا عدد قليل منهن يُخَصَّصْنَ لأنْ يكنَّ معلمات أو ممرضات أو طبيبات وهؤلاء لهن مميزات طبيعية تبدو دلائلها من الصغر؛ وإنما الغرض أن تكون البنت عالمة بوظيفتها في هذه الحياة ودائرة اختصاصها وما هو مركزها الاجتماعي. أما وظيفتها فهي وظيفة الأم الرشيدة التي تقوم بها في كل الأمم الراقية. وأما دائرة اختصاصها فهي المنزل ومصادر حاجاته من الحوانيت وما ماثلها. وأما مركزها الاجتماعي فهو أنها مدبرة «لمستعمرة» صغيرة هي المنزل ورئيسة «لجمهورية» بسيطة هي ذريّتها: [الكامل]

الأمّ مدرسةٌ إذا أعددتها ... أعددت شعباً طيّبَ الأعراق
الأمّ روض إنْ تعهَّدَه الحيا ... بالري أورقَ أيمّا إيراق

٤٠ ـ حلم مَعْنِ بنِ زائدة

لما تولى مَعْنُ بنُ زائدةَ إمارَة العراق، وكان قد اشتهر بالحلم والكرم، أتاه أعرابي يختبر حلمه. فدخل عليه دون أنْ يُؤْذَن له. فلمّا مثل بين يديهِ قال له: [الوافر]

أتذكر إذ لحافُك جلدُ شاةٍ ... وإذ نعلاكَ من جلدِ البعير

قال: نعم أذكر ذلك ولا أنساه.

قال الأعرابي:

فسبحان الذي أعطاك ملكاً ... وعلّمك الجلوسَ على السَّرير

قال معن: سبحانَه على كلِّ حال.

قال الأعرابي:

فلست مسلِّماً ما عشت دهراً ... على مَعْنٍ بتسليم الأمير

قال معن: إنّ السلامَ سُنَّة يا أخا العرب، تأتي به كيف شئت.

قال الأعرابي:

سأرحل عن بلاد أنت فيها ... ولو جار الزمان على الفقير

قال معن: إن أقمت فينا فمرحباً بالإقامة، وإن رحلت عنّا فمصحوب بالسلامة.

قال الأعرابي:

فَجُدْ لي يا ابنَ ناقصةٍ بشيءٍ ... فإنّي قد عَزَمْتُ على المسيرِ

قال معن: يا غلام أعطِه ألفَ دينار. فأخذها الأعرابي وقال:

قليلٌ ما أتيتَ به وإنّي ... لأطمعُ فيك بالمال الكثير

قال معن: يا غلام أعطِه ألفَ دينار أخرى.

فأخذها الأعرابي وقال:

سألتُ اللَّهَ أن يبقيكَ ذخراً ... فما لك في البريَّةِ من نظير

قال معن لغلامه: أعطه ألف دينار أخرى.

فأخذها الأعرابي وقال: أيّها الأمير، إنّما جئت مختبِراً حِلْمَك لما بلغني عنه. فلقد جمع الله فيك من الحلم ما لو قسم على أهل الأرض لكفاهم.

قال معن: يا غلام، كم أعطيته على نظمه؟

قال: ثلاثة آلاف دينار. قال: أعطه في نثره مثلها.

فأخذها الأعرابي وذهب في طريقه شاكراً.

٤١ ـ المَشُورَة والسخاء

قال رجل من أهل المدينة: لحقني دين عجزت عن دفعه فشكوت أمري إلى بعض أصحابي، فأشار إلي بقصد المهلَّبِ أميرِ العراق، فذهبت إليه وذكرت له حاجتي. فقال لحاجبه: ادفع له ألفَ دينار. ففعل، ولما عدت إليه، قال لي: هل ما وصلك يكفي لقضاء حاجتك؟ قلت: نعم وزيادة، أصلح الله الأمير. فقال: الحمدُ للَّهِ على نجاح سعيك، واجتنائِك ثمرَةَ مشورتك، فأنشدته: [البسيط]

يا من على الجودِ صاغَ اللَّهُ راحته ... فليس يحسن غير البذل والجود
عمَّت عطاياك من في الأرض قاطبة ... فأنتَ والجودُ مخلوقان من عود
من استشار فبابُ النجح منفتح ... لديه فيما ابتغاه غير مردود

وعدت من عنده فرحاً مسروراً بحسن كرمه وعطائه الوافر على غير سابق معرفة.

٤٢ ـ المشورة

قيل لرجل من بني عبس: ما أكثرَ صوابَكم في مباشرة ما تأتون ومجانبة ما تعرضون عنه! قال: نحن ألف رجل وفينا رجل واحد حازم ذو رأي ومعرفة، فنحن نشاورُه في الجليل والحقير، ونعمل برأيه، فكأنّما إذا عملنا برأيه ومشورته، قد عملنا برأي ألف حازم. وجدير بألف حازم أن يصيبوا.

٤٣ ـ حسن الآداب

أملى مؤدب «الراضي» عليه يوماً قول الحكيم قتيبة بن مسلم:

«من تكبَّر أعجبَ برأيه، وَمَنْ أعجب برأيه لم يسمعْ قولَ نصحائه، ومن اتَّصفَ بالإعجاب، وتخلّق بالاستبداد، كان من الرشد بعيداً ومن الخذلان قريباً، ومن تكبّر على عدوّه احتقره، ومن احتقر عدوَّه قلَّ احتراسُه منه، ومن قلَّ احتراسُه منه كثر عِثارُه، ولا يسلم من عدوّه إلّا من كان أحذرَ من غراب، وقد قيل ليس لمعجب رأي صائب، ولا لمتكبر صديق، ومن أحب أن يحبه الناس يحببهم إليه، ويقربهم منه». ولمّا حفظها الراضي، وفهم معناها ارتاح إليها قلبه، وقال لمؤدبه: لعلّ الزمانَ يبلغني أن أتأدب بهذه الخصال الحميدة، وأحلّي نفسي بهذه الآداب الكريمة. فكان كما تمنى.

٤٤ ـ الإسكندرية

بناها اسكندر الأكبر ملك مقدونيا في سنة ٩٥٤ قبل الهجرة وجعلها مقرًّا لحكومته لحسن موقعها، وجودة موضعها. ولذا رغب الناس في سكناها، وصارت مركزاً للتجارة بين أهل المشرق والمغرب. وقد كانت هذه المدينة في عهد ملوك البطالسة، داراً للعلم والحكمة حيث أسس بها أول هؤلاء الملوك المدعو (بطليموس ابن لاغوس) مدرسة شهيرة، أحضر إليها كبار العلماء من اليونان وغيرهم لتعليم العلوم الإلهية، والفلسفية، والرياضية، والطبيعية. فنبغ منها عدد عظيم من أكابر الحكماء وفحول العلماء. وأنشأ بها أيضاً مكتبة جمع فيها الكتب التي كانت تعد من كنوز علوم القدماء. وجلب إليها كثيراً من النسّاخين والمصحّحين والمجلّدين والمذهّبين ثم احترقت عن آخرها في زمن (جول قيصر) أحد أباطرة الرومان، لا في أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كما زعم بعض المؤرخين افتراء.

٤٥ ـ صديقك

إنّ صديقك الذي يبتسم لك في حال رضاك وغضبِك وحِلْمِك وجهلِك وصوابِك وسقَطك ليس ممن يغتبط بمودته، أو يوثق بصداقته، لأنه لا يصلح أن يكون مرآتَك التي تكشف لك عن نفسك فتصدقك عن زينِك وشَيْنِك، وحلوِك ومرِّك، وهو إما جاهل متهوِّرٌ في ميوله وأهوائه فلا يرى غير ما يريد أن يرى نفسه لا كما يجب أن تراه، وإمّا منافق مخادع، علم أن هواك في الصمت عن عيوبك وتجرير الذيول عليها، فجاراك فيما تريد ليبلغَ ما يريده.

٤٦ ـ أخذ الرومانيين الأيمان من الوطني

كان الرومانيون في قديم الزمان، يجبرون الوطني الذي بلغ من العمر عشرين سنة أن يحلف يميناً أن يحامي عن وطنه وعن حكومته فيأخذون عليه عهداً بذلك، وصيغة اليمين (أُشهد الله على أنّي أحمل سلاح الشرف، لأدافعَ به عن وطني وأهله،

كلّما لاحت فرصة أتمكن فيها من مساعدته، وأُشهِدُ الله على أني لا أكدّر صفوَ وطني، ولا أخونُه، ولا أغدرُ به، وأنّي أركب البحار أياماً إذا لزم ذلك في جميع الغزوات التي تأمر بها الحكومة، وعلى أن أحافظَ على امتثال القوانين، والعاداتِ المقبولة في بلادي الموجودة في الحال وما يتجدّد منها. وأشهدُ الله أن لا أتحمَّلَ أحداً يجسر أن يخلّ بها أو ينقص انتظامها). هكذا كانت الأمة الرومانية متشبّثة بحبّ وطنها، ولهذا تسلّطت على بلاد الدنيا بأسرها، ولما انسلخت عنها صفة الوطنية حصل الفشل بين أعضائها، ففسد حالها، وانحلّ عقد نظامها.

٤٧ ـ الحسد

يراد بالحسد معنيان: أحدهما لغوي وهو الحسد المذكور في الأخلاق، وذلك أن يتمنّى الإنسان لغيره زوالَ النِّعمة، وهذا شرّ ذمّه القرآن الكريم، ومَقَتَتْهُ الحكمة، لأنّه ينهى عن العمل وينتج في المجتمع الإنساني نتائج سيِّئة، والثاني ما يعرفه العامة (بالعين) وهو أن يؤثِّرَ الإنسان في إنسانٍ مثلِه تأثيراً سيئاً بالنظر إليه والتّحديق فيه، وهذا النوع موجود لا تمنعه أصول العلم والدِّين، فإنَّ ممّا قرره أهلُ العلم، أنَّ للقويِّ في هذا العلم تأثيراً في الضعيف، وعلى هذه القاعدة ينطبق ما يسمّونه (بالتنويم المغناطيسي) والحسد بهذا المعنى لا يبعد أن يكون شيئاً من هذا، وقد ورد في الحديث قوله ﷺ: «إنَّ العينَ لتدني الرجالَ من أكفانها، والإبِلَ من أوضاعها» غير أنّ أكثر ما يذهب إليه العامة من الغلوِّ والمبالغة في تكبير أمرِ العين وتهويلِه مبنيٌّ على الأوهام والأباطيل.

٤٨ ـ الشراهة المفرطة في الأكل
مضعفة لأعضاء الهضم ومتلفة لصحة الجسم

من المعلوم أن الشَّرِهَ المفرِطَ في الأكل، لا يكون صحيحَ البنية، بل يكونُ ضعيفَها، وعرضَةً لأمراضٍ قاتلة، لأنه بإفراطه في الأكل، يكلّف معدته من الأطعمة ما ليست مكلَّفةً به، فيؤديها ذلك إلى عجزها عن هضم جميع ما كلّفها به، فيفسد إذ ذاك وينتج من فساده أمراض المعدة والتهاب القناة الهضمية، فيقع في دائها العضال الذي ينتج عنه كثير من الأمراض التي تؤدي إلى الحتف، والهلاك بعد أن يكابدَ مشاقَّ عظيمةً، وأهوالاً جسيمة، ينشأ عنها اضمحلال الجسم وسقمه، وحرمانه من الصحّة التي هي لنوع الإنسان أعظم منحة. فالحذَرَ الحذَرَ من شراهةِ النفس، وتمكينِها من إفراطِ شهوتِها في الأطعمة والأشربة حفظاً لصحّته، وحذراً من أن يكون قتيلَ بطنه، وعملاً بقول الحكيم. «البِطْنَةُ أصل الداء، والحِمْيَةُ أصل الدّواء». وقوله ﷺ: «ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطنه. حسب ابن آدمَ لقيماتٌ يُقِمْنَ صلبه، فإن كان ولا بد فثُلُثٌ

للطّعام، وثلثٌ للماء، وثلث للتنفّس». وقول بعض الحكماء: «البِطنة تُذْهِبُ الفطنة». وقال أفلاطون: «راحة الجسم في قلّة الطعام، وراحة اللّسان في قلّةِ الكلام، وراحة الروح في قلّة النوم، وراحة القلب في قلّة الانتقام».

٤٩ ـ في الامتحان

يذهب بعض الناس إلى أنّ الامتحانَ قد يأتي ببعض نتائجَ تخالف الواقع، منها أنّه قد ينجح في آرائه شخصٌ ناقص الكفاءة، ويخفِقُ آخَرُ كُفْءٌ. ولكنّ هذا من قبيل المصادفة إذ قد يصيب الأول شيئاً من القليل الذي يعرفه فيجيد الإجابة وينجح، ويصيب الثاني شيئاً من القليل الذي لا يعرفه فيسيء الإجابة ويخفق، وهذه المصادفات نادرة الوقوع، ولا يصح أن تُجْعَلَ حجة تقلّل من أهمية الامتحان. ومنها أن كثيراً ما يكون لهيئة الامتحان العام في نفوس بعض الطلاب إذا دخلوه لأوّل مرّة من الهيبة ما يأتي من ورائه اضطراب في الأعصاب، أو ذهول لا يتمكّن الممتحن بسببه من إظهار كفاءته، وينشأ عن ذلك تأخّره، ومثل هذا الاعتراض لا يصحّ أن يُعَدَّ من مثالب الامتحان، بل هو دليل على أن التلميذ ناقص التربية لم يألف كمالَ النظام، ولم يُعَوَّدِ الشجاعة القلبية، وعدم التهيب مما لا شَرَّ فيه. والامتحان يكشف هذه الصفات بما يقضي به من السكون العام، والعزلة التامة لكلّ فرد واستحالة الحصول على مساعدة طالب آخر أو على كلمة تشجيع من ممتحن، أي: أنه يتطلب من التلميذ أن يتحلّى بفضيلة ملكِ النَّفْسِ وضبطها ولا يخفى ما لهاتين الصفتين من عظيم القيمة في التربية العملية.

٥٠ ـ غرض الحياة

يجب أن يكونَ لكم غرضٌ من أغراض الحياة تجعلونه أبداً نصب العين، سواء أكان ذلك صناعة، أو تجارة، أو علماً، لأنّ من الواضح البيّن أنّكم إذا فرّقتم قوّتكم في أشياءَ كثيرةٍ، كنتم ضعفاءَ فيها جميعِها، وإذا جمعتموها في شيء واحد، كنتم أقوياءَ فيه. نعم، لا بُدَّ من الدرس الواسع، وتحصيل المعارف العامة، لأن هذا يشحذ عقولكم ويزيدكم قوّة في مباشرة الأعمال ولكن لا بُدَّ من صرفِ قواكم إلى غرضٍ واحدٍ تختارونه وتتوقون إليه. غير أن هذا الاختيار لا يكون دائماً في طاقة الإنسان، بل كثيراً ما يندفع إليه باتفاق الأحوال. ولكن عليه أن يتقن مهنته مهما كانت، فلا ترضوا إلّا بما يمكن من أفضل وسائل العلم للقيام بها حقّ القيام لأنّه إذا حدث نقص من هذا القبيل عارضكم الدهر، وأوجب لكم الفشل والأسف. ومن أقوال الحكماء: لا تدخُلَنَّ أمراً لا تكون ماهراً فيه؛ وقولهم أيضاً: لا تطلب سرعة العمل واطلب تجويدَه. فإنّ الناس لا يسألون في كم فرغ وإنما ينظرون إلى إتقانه، وجودة صنعه.

٥١ ـ الرياضة البدنية

من المعلوم أنّ الحياة لا تظهر إلّا بالحركة لأنّ كل فعل ما اشتمل عليه الجسم من الأعضاء محل للفعل، وكل فعل حيوي مفتقر إلى الحركة ولذا جعلها الله عامة في الأكوان، وعلّق عليها بقاء الحياة، وبها أرزاق الحيوانات، وجعل في ارتباط الصحة بها فوائد عامة، ومنافع خاصة. فهي نعمة جليلة، وحكمة بالغة، والحركة في علم الصحة هي الرياضة البدنية التي هي كما عرّفها الأستاذ «ابن سيناء». عبارة عن حركة إرادية يضطر فيها إلى التنفّس القوي المتواتر، ولذا كانت أمراً مهماً في حفظ الصحّة وبرء المرض، فإنّ المداومةَ بالرّياضة الصحية، أعظمُ سبب لزيادة قوّة المريض، وانتظام حركته، لأنَّ البدنَ يكتسب حالة أصلح لسهولة التنقية وجودة التغذية، إذ الحركة البدنية مُعَدَّة لتقوية التنفس وموازنته. ولا يخفى أن التنفس هو الميزان به تنتظم أعمال أعضاء الجسم وأجهزته، ويحفظ تركيب الدَّم ويجدّد قوّته ونشاطه.

٥٢ ـ عظماء الرجال

إنّ الخالق سبحانه وتعالى وضع في أفرادٍ من كلِّ أمّة خاصيات وملكات، قلّما يشاركهم فيها أحد، وآتاهم هبات يستخدمونها في نفع البشر، ونفوساً لا تعرف الملل لدرك مقاصدهم الشريفة، وكلّما ارتقت الحضارة في شعب، نبغ فيه رجال يصرفون على الإفادة والاستفادة معظم أعمارهم ويتمحّضون لإحسان الخدمة حتى لا يكادون يرون السعادة والملاذ والخير، وكل ما تطمح إليه نفوس بني الإنسان من المعالي إلّا فيما هم بسبيله. ومَنْ أنعمَ النظر في تراجم نوابغِ العلماء، ودرسَ حياتَهم حقَّ دراستِها، لا يلبث أن يزولَ عجبُه إذا شاهد كيف يستغرقون في أعمالهم ويتفانون فيما أخذوا به نفوسَهم فيزهدون في المال والبنين ويفطمون أنفسهم عن حبِّ المناصب والمراتب والزخارف والسفاسف.

٥٣ ـ شرب الخمر

[الرّمل]

واهجرِ الخمرَ إذا كنت فتى ... كيف يسعى في جنونٍ من عَقِلْ

يشرب بعضُ الناس الخمرَ فراراً من الهَمِّ وحذراً من مؤلمات الحياة، وهذا هو الحمق دون ريب، لأنه عوضاً عن أن يفكر في إصلاح شأنه بما يزيل مؤلماته ومسبّبات همِّه وغمِّه، يسطو على أعظم مواهبه النورانية التي تمكّنه من أن يسمع ويرى ويحسّ فيقتلها قتلاً، فيزداد همًّا على همّ، ويسهّل للمصائِب أن تتراكم عليه لأنّه ألقى بسلاحه مستسلماً لمهاجمتها، وهو فاقدُ عُدَّةَ الدِّفاع، فَمَثَلُ هذا مَثَلُ رجل مشى في طريق فقيل له: يا هذا، انتبه، فإنّ أمامك بئراً بعيدةَ العمق، فبدلاً من أن يأخذَ الحَيْطَةَ

لنفسه من السقوط فيها، أغمض عينيه لكيلا يراها، وسقط فيها مطمئناً، حاسباً أنّ في إغماض عينيه نجاةً له.

٥٤ ـ التاريخ

لا يستطيع امرؤ أن ينكر ما لدراسة التاريخ من الفضل العظيم على المشتغلين بتحصيله، فزيادةً على ما يستفيدونه منه، على أنّه فرع من فروع الدراسة التي من شأنها أن تزيد في معلوماتهم، يجدون في دراسته لذَّةً وانشراحاً من عدّة أمور، منها الاطلاعُ على عِدَّةٍ من مشاهيرِ الرجال، وعلى حياتهم الجيّدة وما أتوه من أعمال الشجاعة والإقدام، ومن الثمرات الجليلة لبلادهم فتتربى عندهم ملكتا الملاحظةِ والنَّقد، وتتبعهما بلا ريب قوّةُ الحكم، فيفرّقون بين الغَثِّ والسَّمين، ويمقتون الرذيلة ويحاربونها، ويعجبون بالفضيلة ويجعلونها شعارهم اقتداء بمن أعجبوا بأعمالهم من أبطال الأمم. وبذلك ينشأون على حبّ الوطن وبذلِ كلِّ نفيسٍ في نفعِه، ويزدادُ هذا الحبُّ عندهم كلّما رأوا ما يَدُلُّ على عظمةِ أسلافِهم مما يقرأُون أو يسمعون، أو مما يشاهدون في دور آثار بلادهم من الآثار النافعة.

٥٥ ـ حياة كلها تمويه

إنَّ جُلَّ من نراهم من المنعّمين المترفين والأغنياء الموسرين، لو كشف عن باطن أمرهم وحقيقة حالهم وخبايا معيشتهم من وراء الجدران لوقفت على ما يوجب الأسى والأسف، ويدعو إلى الرَّحمة والشفقة، لا ما يدفع إلى الحسد والغبطة، ولأيقنت أنّ الرجل الأخير الذي يستخرج قوتَ يومه منغمساً بعرق جبينه هو أسعد منهم حالاً وأنعم بالاً، والغالب أنّه كلّما كان مظهر العيش زاهياً زاهراً كانَ باطنُه قاتماً مظلماً. فلا تغرّنكم الظواهر: [الطويل]

ألا إنّما الدّنيا كأحلامِ نائمٍ ... وما خير عيشٍ لا يكونُ بدائمِ
تأمَّلْ إذا ما نِلْتَ بالأمرِ لذَّةً ... فأفنيتها هل أنت إلّا كحالِمِ

٥٦ ـ الذكاء غير العقل

لا تعجب إنْ قلتُ لك إنّ الذكاءَ غيرُ العقل. فاللصوص والمحتالون، والمزوِّرون، والكاذبون، والفاسقون، والمنافقون أذكياء، وليس بينهم عاقل واحد، لأنّهم يوردون أنفسَهم مواردَ التَّلف والهلاك، من حيث لا يغني عنهم ذكاؤهم شيئاً. وكثيراً ما يكون الذكاء الشديد داعياً للجنون، حتى إنّك لا تكاد ترى ذكياً من الأذكياء إلّا وتَبيَّن لك من شؤونه وأطواره أحوال شاذة، لا تنطبق على قانون من قوانين العقل، ولا قاعدة من قواعد الطبيعة. وعندي أنّ أكثرَ ما يصيب النوابغ الأذكياء من بؤسِ العيشِ وسوءِ الحال عائدٌ إلى ضُعْفٍ في عقولهم ونَقْصٍ في تدبيرهم.

وبعدُ فالذَّكاءُ في رأس الإنسان كالسَّيْفِ في يدِ الشجاع، وكثيراً ما يضربُ الشجاع رأسَه إذا كان طائشاً أهوجَ، ولا يملك نفسَه في مواقف الحزن والغضب.

٥٧ ـ اختيار الكتاب

كما تنتخبون الأصدقاء ولا توالونهم إلّا إذا رأيتم فيهم الفضل، وحسنَ الأخلاق، هكذا اختاروا الكتبَ التي تقرأونها، فهي خير الجلساء إذا كانت ممّا تَتَضَمَّنُ حكمةَ الأزمنة السالفة والحاضرة لأنها تزيدكم علماً وتهديكم صراط الحياة المستقيم، وتفعل فيكم فعل قدوة الصديق إذا كان عاقلاً كريماً، وكما تحذرونَ جليس السوء ومعاشرة اللئيم ابعدوا عن الكتب التي تفسد النفس، أو التي لا خير في قراءتها لما فيها من ركاكة العبارة ورداءة المعنى، وقد كثرت في هذه الأيام ترجمة الروايات وعَمَدَ إليها الأحداث فلا بُدَّ من التمييز بينها واختيار الأدب المفيد منها، ونبذ ما كان مضراً بالأخلاق. وإني لأجفل متى دخلت بعض بيوت هذه المدينة، ورأيت بجانب الأسرة الروايات في لغاتٍ شتى، مع أني أعلم حق العلم أنّ الكثيرَ منها لا يستحق القراءة، وبعضها يجب لها الطرد كما يطرد السفهاء في الحال، إذا رأيناهم مع أبنائنا وبناتِنا.

٥٨ ـ الإقدام

[الطويل]

إذا كنتَ ذا رأي فكنْ ذا عزيمةٍ فإنَّ فسادَ الرَّأْيِ أنْ تَتَرَدَّدا

لا بُدَّ من الإقدام في العمل بحيث يبادرُ الإنسان إليه بالهمّة، بدون بطء أو تردُّدٍ أو تَقَلُّب، لئلا تُفَوِّتَ الفرصة أو يسأم من الأمر قبل الشروع فيه، قال القائل: [الخفيف]

غفلةُ المرءِ عن دواعي المعالي من دواعي تخلّفِ الآمال

فكما أنّك لا تقف في يوم بارد تقشعر أمام الماء الذي تستحم به، بل تغطس فيه في الحال، كذلك لا تصرف زمانك في الكلام وعقد النية والمماطلة، بل اذهب واعمل حالاً ما أنت عامله، وليس الممنوع هنا التروِّي والتأني والمشورة، بل الكسل والتردّد، لأن الذين يتقلّبون في نيّاتهم ومقصدهم هم الضعفاء الذين لا يفلحون في الدنيا المشار إليهم في المثل السائر: «يوم العاجز غد». وقال بعضهم: لا تَدَفَعَنَّ عملاً عن وقته، فإن للوقت الذي تدفعه إليه عملاً آخر. ولست تطيق ازدحام الأعمال، لأنها إذا ازدحمت دخلها الخلل.

٥٩ ـ الجامعة

الجامعة هي الاستمساك بسنّة أو اعتقاد أو غرض يجتمع حوله فئة من الناس يشتركون في الأخذ والدِّفاع عنه، والاجتماعُ فطريٌّ في الإنسان لكثرة حاجاته وعجزه عن القيام بها وحده، فاضطر إلى الاستعانة على قضائها بالاجتماع مع أبناء بلدته، للتعاون وتبادل النفع فهو يتذرّع إلى الاجتماع بأسباب تجمعه مع الآخرين، أقدمها

القرابة أو جامعة النسب وتعرف بالعصبية. ويدانيها في القدم جامعة اللغة والتفاهم يقرّب القلوب ويوحّد الأغراض. فإذا تكاثرت الأقرباء وتشعّبت القبيلة إلى فروع، أقام كلٌّ منها في بلدة واشترك أبناؤه في الدفاع عنه. وهي جامعة الوطن مع بقائهم مشتركين بجامعة اللغة أو النسب، لأنّهم من أصل واحد؛ وأهل البلد الواحد يقسمون إلى جماعات يجتمع بعضهم بجامعة المهنة، وآخرون بجامعة الجنس أو اللون أو الزواج أو العزوبة مع اشتراك كل فرد من إحدى تلك الجامعات بصفة أخرى مع جامعة أخرى، فيكون شريكاً مع بعض الناس في جامعة النسب، ومع غيرهم بجامعة الدّين، ومع غيرهم بجامعة اللغة، فتضارب الجامعات وتقاطعها عجيب.

٦٠ ـ الشعر قبل الإسلام

قد تقرأ من شعر العرب قبل الإسلام فلا تفهمه، وإن فهمته فلا ترى نفسك مرتاحةً إليه راغبةً في الازدياد منه. وإذا سألك سائل عن السَّبب قلت: إنّ فيه ألفاظاً غريبة وتراكيبَ غيرَ مألوفة يعسر استخراج المعنى منها. فما تشعر به صحيح، ومعك بعض الحق فيما تقول إن لم يكن كلّه، ولكنّ الذنب ليس على الشعر نفسِه، وليس التقصيرُ من أولئك الشعراء أنفسهم. وإنّما الذنب علينا لضعف ملكتنا اللغوية وعدم ممارستنا فهمَ شعر الجاهلية.

٦١ ـ أصل الطاعون

كانت الناس في قديم الزمان تعتقد أنّ الطاعون من وخزات الجن برماحها، وأنْ لا شيءَ يقوى على ردِّ تلك الرماح القوية الخفية عن العيون. ولكنّ البحثَ أوصلهم اليومَ إلى اليقين بأنَّ الطاعونَ جراثيمُ قتّالة، لا تدركها العيون المجرَّدة، وأنّ لها وخزاً خفياً دونه وخز الرماح. إلّا أنّهم استعانوا بالعلم فصنعوا آلةً تجسِّمُ الأشياءَ الدَّقيقة وتعظِّمها وتبرزها مرئية للعين، فوقفوا بها على حقيقة ذلك الوباء واستنتجوا طرق الوقاية منه فتذرّعوا لدفع أذاه وردِّ غائلته.

٦٢ ـ سيل العرم

إنَّ اليمنَ وسائرَ جزيرة العرب أرضٌ تقلُّ فيها الأنهار والينابيع واعتماد الناس في ريِّ مغارسهم إنّما هو على مياه الأمطار، فإنها تجتمع في مجاري الأودية وتسيل كالأنهار، فإذا انقضى الشِّتاء جفَّ معظمها. وملافاةً لذلك كانوا يجعلون في عرض الأودية سدًّا من الحجر يعترض مسيرَ الماء، فيجتمع فيه ويرتفع حتى يسقي أعالي الأراضي. وكان من جملة تلك السدودِ في اليمن سَدٌّ كبيرٌ يقال له العَرِمُ، بناه ملوك اليمن القدماء من حجارة ضخمة، وجعلوا فيها خروقاً يصرفون منها الماء على مقدار ما يحتاجون إليه، وكانت له حفظة يقومون بتعهُّدِه وتوزيع مياهه، فتقادم عهده حتى

تصدَّع، وأُهْمِلَ أمرُه حتى تهدَّم، وصعدت المياهُ فأغرقت الحَرْث[١٤٦] والنَّسل، وسُمِّيَ ذلك السَّيْلُ سيلَ العَرِم.

٦٣ ـ تربية الأطفال

لقد أثبت أساتذة التعليم حقائقَ لم يَبْقَ فيها ريب ولا شبهُ ريب ومن أهمّها حقيقة تنطبق على المثل البسيط المشهور وهو «العلم في الصِّغَر كالنَّقش على الحجر»، فإنّ هذا المثل الذي نكاد نراه مبتذلاً لكثرة شيوعه يحوي معنى كبيراً جليلاً، إذ ليس هناك شكٌّ في أنّ إعداد الصغير وهو في غضاضة الإهاب يكون له أثر كبير في زمن الشباب، فإنّ أفكار الشابّ أو الكهل إذا تغيّرت وتبدّلت بالاختبار والدرس أو لأنه يتبع في سنّ الرشد خُطَّة لا تنطبق على خُطَّته الصبيانية، فإنَّ أثرَ التربية الأولى لا يزولُ بل يبقى أساساً. ولقد دَلَّ اختبارُ الأساتذة أيضاً، أنَّ العادةَ تكاد تصبح خلقاً بقوّة الاستمرار. فإذا عوَّدْت الطفل مثلاً أن يكون ضعيفَ الإرادة، أو سفيهَ اللّسان، أو قليلَ التَّرتيبِ، رسخت فيه عادته وصعب تغييرها. فكم من ذكيٍّ يرى عيبَه، ويذكره على مسمع من الناس، ثم تجده عاجزاً عن إصلاح نفسه.

أليس هذا من نقص التربية النفسية؟

٦٤ ـ لكل حاسّة لذة

إن الخالقَ جلَّت عظمته قد جعل، من فضله ونعمته على الإنسان، لكلِّ حاسَّةٍ لذّة، فلذّة النظر في تناسق المرئيات وترتيب أجزائها وذلك هو الجمال. ولذّة الذوق في ائتلاف الطعوم، وذلك هو العذوبة. ولذّة الشَّمِّ في لطف الرائحة، وذلك هو الشمم. ولذة اللمس في تناسب أجزاء الملموس، وذلك هو النعمة. ولذّة السمع في انتقال الصوت وحركة توقيعه، وذلك هو الغناء.

٦٥ ـ الغلبة للأقوى

كما أنّ السمك الكبير يأكل الصغير، والوحشَ الضاري يفترس الضعيفَ الصَّاغر، والنباتَ القويَّ يقتل الضئيل النحيل في مملكتي الحيوان والنبات، كذلك الحيوان النّاطق تسري عليه هذه القاعدة. وإذا كنا لا نرى بني آدم يأكل بعضهم أجسام بعض في أوروبا فإنّ منهم من أكل مريئاً في أيّام المجاعات القديمة، ومنهم من لا يزال يأكلها في البلدان الهمجيّة، على أنَّ الإنسان المتحضر آخِذٌ الآنَ بأكلِ البلدان بدلاً من أكل جسم الإنسان، فكم من أمَّةٍ قويَّةٍ أغارت على جارتها الضعيفة فسحقتها وابتلعتها لا لشيء سوى الطمعِ الأشعبيّ، وحبّ الأثرة، والانفراد

[١٤٦] ـ الحَرْث: الزّرْع.

بالسلطة. وهكذا يبقى ذلك الناموس الطبيعي ما دامت الأرض والسماء. [الرّجز]

قَتْلُ امرئٍ في غابةٍ جريمةٌ لا تُغْتَفَرْ
وقتلُ شعبٍ آمِنٍ مسألةٌ فيها نَظَرْ

٦٦ ـ الاقتصاد في الزَّمان

الاقتصاد في الزَّمان واجب، كالاقتصاد في المال، لأنّ من يشغل زمانَه بالعمل، يشغله بالربح، ومن يشغله بالكسل واللّهو لم يخسرْ ما يمكنُ ربحُه فقط، ولكنّه يخسر أيضاً شيئاً كبيراً من حسن الأخلاق، فإنّ الإنسان يكون على حسب ما يتصرف في الزمان. قال «سنكاء» الفيلسوف الروماني: إننا نشكو قِصَرَ الزمن ونحن لا نعرف كيف نشغل ما عندنا منه. وإنّنا نصرف حياتَنا في البِطالة أو بعملٍ ما لا فائدةَ منه أو بإهمال ما يجب علينا. نشكو أبداً قصرَ العمر، ونتصرّف كأنّنا خالدون في الدّنيا، ومما يعين على هذا الاقتصادِ النظامُ في العمل، بحيث يكون لكلِّ ساعةٍ من ساعاتِ النَّهار والليل ما هو خاص بها. فإنّ الذين اشتهروا بكثرة الأعمال وإتقانِها وجودتِها من رجال العلم والسِّياسة والتجارة والصناعة، هم الذين جعلوا لكلِّ أمرٍ وقتاً، فرتّبوا زمانَهم ونسقوه استدراكاً للمهامِّ التي كان قضاؤها مستحيلاً لولا نظام العمل الذي نهجوه.

٦٧ ـ لا خير في علم بدون عمل

إنّ العاقلَ إذا فهم كتاباً وبلغَ نهاية علمه فيه، ينبغي له أن يعمل بما علم منه لينتفعَ به، ويجعله مثلاً لا يحيد عنه. فإذا لم يفعل ذلك كان مَثَلُه كالرّجل الذي زعموا أنّ سارقاً تسور عليه وهو نائم في منزله، فعلم به فقال: والله لأسكُتَنَّ حتى أنظر ماذا يصنع، ولا أذعره ولا أعلمه أني قد علمت به. فإذا بلغ مراده قمت إليه فنغّصت ذلك عليه. ثم إنه سكت عنه، وجعل السارق يتردد وطال تردده في جمع ما يجده، فغلب الرَّجلَ النعاسُ فنام. وفرغ اللصُّ ممّا أراد وأمكنه الذهاب. واستيقظ الرجل فوجد اللصَّ قد أخذ المتاع وفاز به، فأقبل على نفسه يلومها وعرف أنه لم ينتفع بعلمه باللصِّ إذ لم يستعمل في أمره ما يجب. فالعلم لا يتم إلّا بالعمل، وهو كالشجرة، والعمل به كالثمرة.

٦٨ ـ فضائل الأمانة

كان لأعرابيّ جوادٌ يعزّه كثيراً، والناس يبذلون له في ثمنه أموالاً طائلة، فلم يقبل أن يبيعه، مهما عظمت قيمته. ففكّر رجل في الاحتيال على أخذه منه. وقد اعتاد صاحبُه السَّيْرَ به في طريق معهود، فجلس المحتال في ذلك الطريقِ وأظهرَ أنّ الأعداءَ خلفَه يطالبونه بثأر، واستغاث بصاحب الجواد لينقذه منهم. فنزل، وأذن له بالركوب أوّلاً، ليركب هو خلفه ويفرّا من الأعداء فينجو صاحبه. ولما ركب المستغيث أطلق

للجواد عِنَانَه، ولم ينتظر الأعرابيَّ ليركبَ معه، فناداه قائلاً: إني أريد أن أقول لك كلمة واحدة. فوقف على بعد وقال له: قل كلمتك، قال: إني وهبت لك الجواد ولا أرجع في هبتي، ولكنْ أخاف أن يسمَعَ النَّاسُ بفعلتِك فلا يأمن بعضُهم بعضاً. فنزل الرجل عن الجواد وقال لصاحبه: تفضَّلْ خذ جوادَك، فنفسي لا ترضى أن أكونَ سبباً في رَفْعِ ثقةِ الناس بعضِهم من بعض. فسلّمه الجواد.

٦٩ ـ العدل أساس الملك

غصب أحد الولاة ضيعةً لرجل فشكا أمرَه إلى الخليفة العباسي (المنصور) وقال له: أصلحك الله يا أميرَ المؤمنين، أأذكر حاجتي أم أضرب لك قبلها مثلاً؟

قال: اضرب لي قبلها مثلاً. قال: إنّ الطفل إذا أصابه ما يكره يشكو إلى أمِّه، ظناً منه أنّه لا ناصرَ له غيرها، فإذا ترعرع شكا إلى أبيه، لاعتقاده أنّ أباه أقوى من أمِّه على نصرته، فإذا صار رجلاً ووقع به أمر، شكا إلى الوالي لعلمه أنّه أقوى من أبيه، فإن ازداد عقله شكا إلى السلطان لعلمه أنّه أقوى من جميع الناس، فإن لم يُنْصِفْه شكا إلى الله تعالى.

وقد نزلت بي نازلة، وليس فوقَك أحدٌ من الخلق أقوى منك فإنْ أنصفتني فيها، وإلّا رفَعْتُ أمري إلى الله، إذ ليس أقوى منك إلّا هو. قال: بل ننصفك، وكتب إلى واليه بأن يردَّ إليه ضيعتَه ويهيّئ له أسباب راحته ويؤمِّنَ له شؤون معيشته. [الكامل]

لا تسألَنْ بني آدم حاجةً وَسَلِ الذي أبوابُه لا تُحْجَبُ
الله يغضب إنْ تركتَ سؤالَهُ والآدميُّ حين يُسْأَلُ يَغْضَبُ

٧٠ ـ الأخلاق الكريمة ترفع شأن صاحبها

أحضرَ «الرشيد» يوماً رجلاً ليولِّيَه القضاء، فقال له الرجل: إنّي لا أحسنُ القضاءَ لأنّي غيرُ فقيه، فقال له الرشيد: فيك ثلاثُ خِصالٍ تؤهِّلك للقضاء: لك شَرَفٌ، والشَّرَفُ يمنع صاحبه من الدناءة. ولكَ حِلْمٌ، والحِلْمُ يمنعُك من العجلة، وَمَنْ لَمْ يَتَعَجَّلْ فهو قليل الخطأ.

وأنتَ رجلٌ تشاورُ النَّاس في أمورِك، ومن شاوَرَ كَثُرَ صوابه. وأمّا الفِقْهُ فنَضُمُّ إليك من تستعين به. فتولّى الرجل القضاء زمناً طويلاً لم يُعْرَفْ أثناءَه للرجل تقصيرٌ في عملٍ من أعماله. وكانت أحكامُه كلُّها دائرةً على محور السَّدادِ والحكمة.

٧١ ـ التواضع وكرم الأخلاق

قال رجل: كنا غلماناً نلتقط البلح، الذي تلقيه الريح من نخل المدينة، فَمَرَّ علينا أميرُ المؤمنين (عمر بن الخطاب) رضي الله عنه، ففرَّ الغلمان، وثبتُّ أنا مكاني. فلمّا قَرُبَ منّي قلت: يا أميرَ المؤمنينَ إنّ ما معي هو ما ألقته الرياح. قال: أرني أنظر

إليه فإنّه لا يخفى عليَّ. فنظر في حِجْري وقال: صدقت. فقلت: يا أميرَ المؤمنين، هل ترى هؤلاء الغلمانَ؟ والله لئن انطلقت وتركتني لأغاروا عليَّ وانتزعوا ما معي. فمشى معي حتّى بلّغني مأمني.

٧٢ ـ الأخلاق الفاضلة

وصف سيّدنا «معاوية بن أبي سفيان» عبدَ الملك بنَ مروان، لسيدنا «عمرو بن العاص» رضي الله عنه، فقال: ما أكرَمَ مروءة هذا الفتى! فقال له عمرو: وكيف ذلك؟ قال: أخذ بأخلاقٍ أربعةٍ، وترك أخلاقاً أربعة. أخذ بأحسنِ البِشْرِ إذا لقي، وبأحسنِ الحديث إذا حَدّث، وبأحسنِ الاستماع إذا حُدِّث، وبأيسرِ الأمور إذا عوهد، وترك مشورةَ مَنْ لا يثق بعقله، وتركَ مجالسةَ من لا يجتمع معه في دين، وتَرَكَ مخالطةَ لئامِ النّاس، وتركَ مِنَ الكلام كلَّ ما يعتذر منه.

٧٣ ـ علم السياسة

علم السياسة هو طِبُّ الاجتماع الإنساني، وطالما أدّى الجهلُ به إلى شقاء البشر، قال لوبون: إنّك لا ترى أحداً لم يقرأ الفلك أو الجبر ثم يحاول حلَّ مسائلَ فلكيةٍ، أو معضلاتٍ جبرية، ولا ترى أحداً كذلك لم يتعلّم التشريح ثم يحاول أن يخيط عرقاً مقطوعاً مثلاً، ولكنْ نرى كلَّ يوم رجالاً لا يفقهون شيئاً من علم السياسة يسوسون الأمم، ويضعون القوانين، ويسنّون النواميس، غافلين عن الأخطارِ والأزماتِ التي تنجم من عملهم هذا، مع أن خطأ الجاهل بالطِّبِّ يودي بشخصٍ واحد، وهذا الخطأُ يودي بأمّة.

[البسيط]

لا تصلح النّاس فوضى لا سراةَ لهم ... ولا سـراةَ إذا جُـهّـالُـهـم سـادوا
تهدى الأمور بأهل الرأي ما صلحت ... فـإن تـولّـت فـبـالأشـرار تـنـقـاد
إذا تـولّـى سـراة الـنـاس أمرهـمـو ... نـمـا عـلـى ذاك أمـر الـقـوم فـازدادوا
كيف الرّشاد إذا ما كنت في بقر ... لـهـم عـنِ الـرّشـدِ أغـلال وأقـيـاد
أعطوا غواتهمو جهلاً مقادتهم ... فـكـلُّـهـم فـي حِـبـال الـغَـيِّ مـنـقـاد

٧٤ ـ من ربح من عمل فليلزمه
وكل ميسر لما خلق له

إذا اخترتم صناعة وجعلتموها غرض الحياة وتعلمتموها حقَّ العلم فالزموها بلا انقطاع إلى النهاية، لأنّكم إذا قعدتم عنها، أو بدّلتموها بغيرها، كانت النتيجةُ دائماً خيبةَ الأمل، ثم إذا كان جهدُكم في العمل عظيماً، وقدرتُكم في الصِّناعة شهيرةً ومواظبتُكم على أمورِكم غيرَ منقطعة، ولم تكن صفاتُكم صفاتِ الصدق والاستقامة والطهارة لم تنالوا شيئاً، لأنه كما يُغْرِقُ السَّفينَةَ ثَقْبٌ واحد، كذاكَ فَقْدُ شيء من هذه

الأوصاف كافٍ لإسقاطكم وتعطيلِ آمالكم، ألم تروا المرَّةَ بعد المرَّةِ أنّ الكاذبَ، والخائنَ، والسِّكِّيرَ، والمقامرَ، والفاسدَ، لا يُفلحون، ومهما كان طريقُكم مظلماً، وَعْراً، طويلاً، فلا تخافوا ولا تملّوا، ولا تركَنُوا إلى نسيب أو صديق، وسواءٌ أحبَّكم الناسُ أو أبغضوكم، وسواء تملّقوكم أو احتقروكم، الزموا أبداً طريق الاستقامة والصّلاح وتوكّلوا على الله ولا تخافوا أحداً ولا تخشوا في الحقِّ لومة لائم.

٧٥ ـ صاحب الدنيا

مَثَلُ صاحبِ الدُّنيا مَثَلُ رجل نجا من خوف فيلٍ هائج إلى بئر، فتدلّى فيها وتعلّق بغُصْنين كانا على سمائها، فوقعت رجلاه على شيء في طيِّ البئر، فإذا حيَّات أربع قد أخرَجْنَ رءوسَهُنَّ عن أجحارهن. ثم نظر فإذا في قاع البئر تِنّينٌ فاتحٌ فاهُ منتظِرٌ له ليقعَ فيأخذَه. فرفع بصرَه إلى الغصنين، فإذا فِي أصلهما جرذان أسودُ وأبيضُ وهما يَقْرِضانِ الغصنين دائبينِ لا يَفْتُران. فبينما هو في النظر لأمره والاهتمام لنفسه إذ أبصرَ قريباً منه كُوَّارَةً[١٤٧] فيها عسل نحل، فذاق العسلَ فشغلته حلاوتُه وألهتهُ لذَّتُه عن الفكرة في شيء من أمره، وأن يلتمس الخلاصَ لنفسه. ولم يذكر أنّ رجليه على حيَّاتٍ أربع لا يدري متى يقع عليهن. ولم يذكر أن الجُرَذَيْنِ دائبان في قطعِ الغصنين، ومتى انقطعا وقَع على التنّين. فلم يزل لاهياً غافلاً مشغولاً بتلك الحلاوةِ حتّى سقط في فمِ التِّنّينِ فهلك.

٧٦ ـ النوم

النوم عامل من أكبر العوامل في قوى الحيوان، وهو لا يقلُّ عن التَّنَفُّسِ والهضم في أهميّته. والذين يراعون جانبَ الاعتدال في معيشتهم ينالونَ حظًّا كاملاً منه ويتمتَّعون بنتائجه الحسنة. وليس ثمة قاعدةٌ يُعْرَفُ بها ما يحتاجُ إليه كلُّ فرد منه، ولا النَّاسُ متساوون في حاجتهم إليه في كل زمان ومكان، غاية ما في الأمر أنّ كلَّ إنسان يحتاج إلى قدر معلوم منه، وملائم لحالته كل يوم لإعادة الموازنة في القوّة العصبية التي فقد منها ما فقد، على إثر أشغاله وأعماله اليومية، وإلّا اختل الجهاز العصبي بوجه من الوجوه. ولمّا كان النَّوْمُ أكملَ شَكْلٍ من أشكال الراحة، كان الصِّغارُ أكثرَ الناس حاجةً إليه من الكبار والضعفاء من الأقوياء. فمهما كان نومُ الطفلِ والرجلِ منهوك القوى كثيراً فهو لا يزيد عن الحدِّ اللازم. أمّا الرجل القوي الجسم فكثرة النوم تضرّ به غالباً.

٧٧ ـ المعتصم بالله

حدّثتنا السِّيَرُ أنّه حين أغار (تيوفل) ملكُ الروم على (عمورية) صاحت امرأة

[١٤٧] ـ الكُوَّارة: خليّة النحل الأهليّة.

هاشِمِيَّة من اللواتي وَقَعْنَ في أيدي جندِه «وامعتصماه». فأجابها الحارس متهكّماً ومستهزئاً: سيأتيك «المعتصم» على جواد أدهم. فلمّا انتهى ذلك إلى أمير المؤمنين «المعتصم بالله» أحد خلفاء الدولة العباسية، وهو في عاصمة خلافته تخلّى في الحال عمّا بين يديه من الشؤون، ونهض وهو يقول: «لبَّيْكِ لبَّيْكِ»، وما عَتَم[١٤٨] أن استنفر جيشَه الجرَّار، فساروا وهو يقودهم وكثير منهم على دُهْم الخيل. فلمّا هاجم العدوَّ وشدَّ عليه وطأته ومزّق شمله كلَّ ممزَّق، لقي تلك «الأخيذَة» فصاح قائلاً: «لبيكِ المعتصم» وهنالك أعقبه أحد جنده بتلاوة قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٢١].

٧٨ ـ المعتصم بالله أيضاً

حدّثنا التاريخ كذلك عن هذا الخليفةِ العادلِ، أنّه رأى ذات يوم، وهو على جوادِه كلباً مكسورَ السَّاقين يَلْهَثُ من شدّة العطش، فدفعه الرفق بالحيوان إلى النّزول عن جواده، فنزل وصار يغترف بيديه من النَّهر، ثم يعود إلى الكلب، وقد فعل ذلك مرّاتٍ متتالياتٍ حتّى حرَّكَ الحيوانُ ذنبه شكراً له على برِّهِ بعد أن روى ظمأه. ولمّا عاد إلى عرش الملك جمع الأمراء والأغنياء، وألّف تحتَ رعايتِه «جمعيَّة الرِّفْقِ بالحيوان» لأوَّلِ مَّرة في التّاريخ.

٧٩ ـ حياة الأمم

قالت الحكماء: إن الحياة هي مجموع الوظائف التي يقوم بها أعضاء الجسم، والموت هو بطلان تلك الوظائف، وهو أقرب التَّعاريف وأسلمها. وعليه فلا بأسَ من إطلاق الحياة على الأمَّة، فيقال: هذه الأمّة حيّة إذا كان أفرادُها الذين هم بمنزلة الأعضاء لجسمها قائمينَ بوظائفهم، ويقال: الأمّة مَيْتَةٌ إذا أخلد أفرادُها إلى النّوم، ولم يقوموا بواجباتِهم التي يفرضُها عليهم قانونُ البقاء في عالم الوجود.

٨٠ ـ علم الأَخلاق

علم الأخلاق هو طِبُّ النفس، ومن العجب أنّنا نرى الإنسانَ إذا أصابه دُمَّلٌ[١٤٩] في جسمه أسرع إلى العلاج والطبيب، وفي نفسه عشرون دُمَّلاً لا يلتفت إليها، وإن أنهكته في الحقيقة آلامها، ولا سببَ لهذا إلّا فقدان هذا الطبِّ من بينِنا الآن، مع نموِّه عند غيرِنا من الأمم، وحسبُك أنّه أُلِّف في مرض ضعف الإرادة وحدَه عند المسلمين كتبٌ ذاتُ أسفار. فيجب أن يكون هذا العلم مَلَكَةً في النفس كمَلكةِ

---

[١٤٨] ـ عَتَم: تأخّر وأبطأ. ما عَتَم: ما تأخّر ولا أبطأ.

[١٤٩] ـ الدُّمَّل: التهاب محدود في الجلد والنُّسُج التي تحته مصحوب بتقيّح.

النُّمُوِّ في الإنسان حتى تنطبق أحوال المرء على قواعده بلا تكلُّفٍ فتصيرُ الفضائل، كالوقوفِ عند الفضيلة في الأعمال والحقّ في الأقوال والاعتماد على النفس خلقاً له وسجيّة.

٨١ ـ تأثير الكواكب في النّفوس

هناك فريق من الناس يَقْفونَ[١٥٠] أثر قدماء المصريّين والبابليّين في الاعتقاد بأن للكواكب تأثيراً شديداً في أفكارِ وحالاتِ البشر الروحية، وهم يقولون: ما دمنا نجد للقمر التأثيرَ الظّاهر على(*) مياهِ البحر في المدِّ والجَزْر، وعلى نموِّ بعض الأزهار والنباتات، بل واتجاه سَمْتِ[١٥١] بعض الأشجار، وما دام له على المجموعة العصبيّة التأثيراتُ الواضحةُ التي جعلت القدماءَ تُسَمِّي الأمراض العصبية والعقلية بالأمراضِ القمرية، حتى إنّ مستشفى المجاذيب إلى اليوم يُسَمَّى في الغرب «الملجأ القمري» لشدّة الانفعالات وتنبه النفوس العصبيّة في النصف الأول من الشهر، وسكونها وانقباضها في النصف الأخير منه، فإذا كان هذا تأثير القمر وهو ذلك الكوكب الصَّغير، فكيف تنكر تأثيرَ بقيّةِ الشموس والكواكب السيّارة، والثوابت العظمى؟

٨٢ ـ النعام

غير خاف ما للنّعام من المزايا بين ذواتِ الأجنحة الضخمة التي لا تستطيع الطيران، فإنّ منافعه في عالم التجارة كبيرة من حيثُ استعمالُ ريشه الظَّريف في التحلّي والزينة، بل هو ركن عظيم من أركان الثروة الصناعية والتجارية، وقد أدرك ذلك بعضُ الأمم القديمة المتمدينة كالرومان وغيرهم، فعنوا بتربيته عناية عظمى، وأدخلوا ريشه في التجارة، فحصلوا من ورائه على أرباحٍ جزيلة. أمّا الأمم الحديثة فلم تنتبه إلى أمره الخطير إلّا في الأزمنة المتأخِّرَةِ، فاعتنَت به واتسع نطاق تجارته، فامتلأت الخزائن من ثروته.

٨٣ ـ النمل

النَّمل حيوان حريصٌ على الغذاء، وهو عظيم الحيلةِ في طلب الرِّزق، فإذا وَجد شيئاً أنذرَ رفاقَه لتأتيَ إليه، ويقال: إنّما يفعل ذلك منها رؤساؤها، ومن طبعه أن يدَّخِرَ من قوته في الصَّيف للشتاء، وله في الادّخار من الحِيَلِ أنّه إذا ادّخرَ ما يخاف إنباته قسمه نصفين ما خلا الكبيرة، فإنه يقسمها أرباعاً لما أُلهم من أن كلَّ نصفٍ منها

---

[١٥٠] ـ يقفون: يتبعون.

[١٥١] ـ السَّمْت: الهيئة.

(*) ـ يتعدّى الفعل أثّر بـ (في) لا بـ(على) وهذا الاستخدام (أثّر على) من جنايات الترجمة الحرفية influer sur.

ينبت، فإذا خاف العَفَنَ على الحبِّ أخرجَه إلى ظاهر الأرض ونشره. وإذا أحسَّ بالغيمِ ردَّه إلى مكانه خوفاً من المطر، فإنِ ابتلَّ شيء منه بسطه يوم الصَّحو في الشمسِ؛ ومن عجائبه اتخاذُ القريةِ تحت الأرض، وفيها منازلُ ودهاليزُ وغرفٌ وطبقاتٌ ومنعطفات، يملؤها حبوباً وذخائر للشتاء.

٨٤ ـ البخار

إنّ للبخارِ فوائدَ جَمّة، ومنافعَ كثيرة، ومزايا عديدة، فقد نقل الإنسان من ظلمات الوحشيّة إلى نور الحضارة والتّقدّم، وأنقذه من وهدةِ التأخّر إلى ذُروة الخير والسعادة. فإنّ الأمم كانت في تباعد وانقطاع، وتناءٍ وافتراق، لا تعرف الواحدة ما تعمله الأخرى، ولا تدري ما يكون من الحوادث. لا تبادل ولا تعارف ولا تعاون ولا تآلف، تعاني الأهوال، وتقاسي الشّدائد، وتضعف من قوّتها، وقوّة الحيوان معها، وتنفق من أموالها وتصرف من أزمانها إن أرادت حرث أرض، أو نقل متاع، أو سفراً من بلد إلى آخر، أو أحبّت اتساع ملكها، والوقوف على أحوال بلادها، إلى غير ذلك مما تحتاجه الأمة وتفتقر إليه.

فلمّا ظهرت قوّة البخار، تلك القوة التي غيّرتِ الأرض ومن عليها، ارتبطت البلاد، واتّصلت الممالك، وتقدّمت العلوم والمعارف، وتمَّ التآلف والتعارف، والتحابُب والتَّعاضد، وحصل التنافس، واستضاءت الأمم بآراء العلماء وأفكار الحكماء، وتوطّدت دعائم الأمن، وساد النظام، وتوفّرت الأزمان والأموال وقوّة الإنسان والحيوان.

عثر الإنسان على قوة البخار، فسخّرها في حرث الأرض وريِّها والانتفاع بنباتها، واستعملها في رفع المياه من مجاريها العميقة، ونقل المصنوعات من بلدانها البعيدة، كما أنه وطّد بها سلطتَه وزادَ قوَّته، وحفظ بلاده، وانتفع بها في مأكله وملبسه ومسكنه وأغلب أموره، إلى غير ذلك من الفوائد الجليلة والمنافع الكثيرة التي غيَّرت مدنيَّة الإنسان، وأكسبته مدنيَّةً وحضارةً جديدة، هي بلا ريب خَيْرٌ من الأولى وأحسن منها. فسبحانَ الذي سخّر لنا هذا وما كنّا له مقرنين.

٨٥ ـ حقّ الأمة على أبنائها

كان في إحدى الممالك امرأةٌ ثرِيَّة تملك من الذهب والفضة والقراطيس المالية، ومن العَقارِ شيئاً كثيراً. ومع هذا كانت معتدلةً في معيشتها، تأكل أكْلَ متوسِّطي الحال من الناس وتسكن سكناهم، وتنفق من دخلها في الأعمال الخيرية. واستمرّت على ذلك زمناً طويلاً فدُهِشَ الناسُ من تصرُّفها مع ما لها من الغنى والثروة.

وفي يوم سألها أحد الناس: لم لا تنفقينَ على نفسِك كثيراً شأن الأغنياء؟

فأجابته قائلة: إنما أنفق بقدر ما أستحق، وأترك الباقي حقاً لأمّتي وبلادي. وإنّي ما بلغت هذا المبلغَ، وما تمكّنْتُ من جمع هذا المالِ إلّا بحسنِ معونتهم لي، فلا يصحُّ أن أبخَسَهُم حقَّهم.

٨٦ ـ الامتحان

إنّ أغلبَ النّاس ميّالٌ إلى الراحة والكسل، بغيض إليه العمل. فهو محتاج إلى ما يبعثُ فيه النَّشاط، ويسوقُه وراء الجدّ والاجتهاد. وإنّ الامتحانَ الذي يُكْرَم به المرءُ المسؤولُ أو يهان، ويصير عزيزاً أو ذليلاً، لأعظمُ وازعٍ وأكبرُ سائق يسوق إلى اقتناء المعارف والعلوم والصنائع والفنون التي تكسبه الحمْدَ، وحسن الذِّكر، وتفيده وتعود على بلاده وأمّته بالخير والسَّعادة.

والامتحان هو السَّبب الوحيد الذي يقوِّي خلق التنافس في نفوس أفراد الأُمّة فيعملون ويجتهدون، وهم في ذلك متنافسون. فيظهر في الأمّة أناسٌ ينفعونها ويرفعون وطنها، ويكونون عوناً لها على أيّة نازلةٍ أو مُلِمَّة.

الامتحان هو الذي يرفعُ درجةَ الفقيرِ العالم، ويحُطُّ من شأن الغنيّ الجاهل، ويعطي كلَّ إنسانٍ حقَّه، فلا تُسْنَدُ المناصِبُ إلى غيرِ الأكفاءِ ولا تُعْطى للجهلاء، وذلك الأمر الذي وراءه كل خير وسعادة للأمة وللبلاد، وبه ترقى وتتقدّم، فإنّ الحاكم إذا كان عالماً عارفاً، حكم بالعدل والإنصاف، وابتعد عن الجور والإجحاف، والمعلّم إذا كان كفؤاً ربّى شباباً ناهضاً، هم لخير البلاد وسعادتها، وكذلك الجندي، والطبيب، والمهندس وغيرهم.

٨٧ ـ الكاغد (الورق)

كانَتِ الأمم في الأزمان الخالية، والعصورِ الماضية، تلاقي صعوباتٍ جمَّةً، ومشقَّات كثيرةً إذا أرادت تقييدَ عِلْم، أو حِفْظَ تاريخ، أو مخاطبةَ بعيد. فقد كانت تستعمل لذلك جِلْدَ الحيوان وعَظْمهَ، والقِحاف، والعُسُب[١]، وشظايا الحجارة[٢]، وإنّ هذا لا يقوم بالمقصود، ولا يفي بالغرض المطلوب، من تدوين العلوم والمعارف، وتقييد الأخبار، والأشعار، والكتب، والأسفار، وتواريخ الغابرين، وآثار السالفين.

ولقد كان العرب في جاهليتهم، يعتمدون على ذاكرتهم، ويتوكلون على

(١) العسب: جمع عسيب، وهو الجريدة المستقيمة من النخل يزال عنها الخوص. فإذا أريد أن يكتب عليها شقّت شقوقاً متوازية ليست سميكة، ثم جفّفت ويكتب عليها بعد ذلك.

(٢) شظايا الحجارة: ما يتطاير منها رقيقاً.

حافظتهم في صيانة علومهم ومعارفهم، وأشعارهم، وأنسابهم، فكثرت الرواية والتَّلقِّي، وصارت العلوم تؤخذ عن العلماء بالمشافهة دون الكتاب، فضاعت علوم، وذهبت معارِفُ، واندثرت آثارُ كثيرٍ ممَّن أدركَهُم الفناء، فماتت علومهم بموتهم، ومُحِيَتْ آثارُهم من بعدهم.

فلمّا جاء الإسلام، واتّسعت لديهم الحضارة، وكثُرت العلوم، وتعدّدت الفنون، وظهر الحكماء، والخطباء، والعلماء، والشعراء؛ اضطروا إلى شيءٍ يُدَوِّنون فيه أفكارَهم، وأخبارَهم، وعلومَهم، وأشعارَهم، فأدخلوا صناعةَ الكاغَدِ في ممالكهم، وكانت قبل ذلك شائعةً في بلاد الصِّين، ومن نظر إلى زمن المأمون، علم ما للكاغَدِ من الفوائدِ الجليلة التي عادت على الإسلام والمسلمين والعلم وأهله.

ولـمّا انتقلت صناعَتُه إلى أوروبا دخله التَّحسين، وكثرت أنواعه، وتعدَّدَتْ أصنافُه، وأصبح غيرَ قاصرٍ على أنْ تُقَيَّدَ فيه العلوم والأخبار، وتكتبَ فيه التواريخ والأشعار، بل دخل في كثير من المصنوعات، وأفاد في تحسينها، وجمالِها، واستعمله الإنسان في كثير من الأشياء كَلَفِّ البضائع، وتزيينِ المنازل والحوانيت، وعَمَلِ الصَّناديقِ المختلفةِ الأشكالِ والمقدارِ، لحفظِ المصنوعاتِ النفيسةِ، وصيانةِ البضائع الجليلة، وتجليدِ الكتب، والنَّقْشِ، والكتابةِ، والتَّصويرِ، إلى غير ذلك من فوائدِه التي لا تحصى، ومزاياهُ العديدةِ التي لا تستقصى.

٨٨ ـ المطابع

كانت العلوم في الأزمانِ الغابرةِ، والعصورِ الخالية، قبلَ ظهورِ المطابع، وطلوع نجمها، بعيدةَ المطلبِ، صعبةَ المنال، لا يمكن لغنيٍّ فضلاً عن فقيرٍ أن يحوزَها إلّا بعد تجشُّم الأسفار، وصرفِ الدِّرهم والدِّينار.

فلمّا منّ الله على عبادِه بظهور المطابع، واختراعِها، أصبح نيلُ العلم سهلاً هيِّناً، فاستوى الغنيُّ والفقير، والعظيم والحقير، في اقتناءِ الكتب، وانتشرت العلومُ والمعارف، وظهرت الأفكار والآراءُ، ونبغ النّابغون، وسبق السّابقون، وتقدّم الفاضلون، وبانت بلاغَةُ البلغاء، وفصاحةُ الفصحاءِ، فاتَّسعت دائرةُ العرفان وراجَتْ سوقُ العلم، وأعَزّ أهله، وعظمت أنصاره، ووضعت الكتب، وأُلِّفَتِ المؤَلَّفات، ونُقِلَتْ من لغةٍ إلى لغة، ومن لسان إلى لسان، وبزغت أنوار الصُّحف اليومية، والمجلّات العلميَّة، والصناعيّة، والسّياسيّة، والدّينية، فاستضاءَ العالَمُ بنورها، واستنارَ بضوئها، وسَهُلَ على النّاس تبادلُ الأفكار، وتناوبُ الآراء مع السُّرْعةِ الزّائدة والزَّمن اليسير.

وإنّا لا نرى أمّةً من الأمم غنيَّةً من المطابعِ غيرَ مفتقِرَةٍ إليها، بل كلُّ الأممِ الآنَ

تنتفعُ بها، وتستفيد بواسطتها. فعليها مدار الدّواوين، وبها إنجاز الأعمال وتمام الأمور. وإنّها لمختلفةُ الأشكال عديدةُ الأنواع، وهي على اختلاف أشكالها، وتبايُنِ أنواعها، تُخْرِجُ للنّاس المئاتِ منَ المؤلَّفاتِ النفيسةِ، والآلافَ من الكتب المفيدة في أيسر زمن وأقلِّ كلفة.

ولقد أصبح الكتابُ المطبوع، يباهي بحسنِ منظرِه اللُّؤلُؤَ النَّظيم والعِقْدَ النَّضيد. ومع ظهوره في مظاهِرَ عديدةٍ حازت كلّها من الرفعة أعلاها، ومن المكانة أسماها.

ترى الكتابَ المطبوعَ، فتميلُ إليه نفسُك، ويتمتَّع به نظرُك لحسنِ تنسيقِه، وترتيبِه، ورونقِه، وجمالِه. فإذا قرأت فيه، قرأت بنفس مرتاحة، وبالٍ مطمَئِنٍّ، وعَيْنٍ قريرة، وميل طبيعي، وشوق غريزي. وإذا نظرت إلى المؤلَّفِ المكتوب باليد، رأيت غالباً ما تشمئز منه النفس، ولا يقبله الطبع، ولو حوى بين دفّتيه حكمةَ الحكماء، وبلاغَةَ البلغاء، وفصاحةَ الفصحاء. وزيادة على ذلك ما يقع فيه من التَّصحيف، والتَّحريف، والتَّغيير، والتَّبديل، مما يضيق له صدر الحليم، ويأنفه الذَّوق السليم.

فما أجلَّ خدمةَ المطابع! وما أكملَ فائدَتَها! فهي من نعم الله العظمى، ومِنَنِه الكبرى. فله الحمدُ والشُّكْرُ على آلائه[١٥٢] التي لا تُعَدُّ ولا تحصى.

٨٩ ـ الكهرباء

إنّ مِنْ أجلِّ العواملِ، وأعظمِ الوسائلِ التي أكسبت الإنسان خيراً، وسعادةً، ورقيًا، وحضارة «الكهرباء» تلك القوّة التي كانت كامنة، فأظهرتها أفكارُ المخترعين، وعقولُ المفكرين. فأفادَتِ العالَمَ بأسره، زينةً وجمالاً، ورَوْنقاً وكمالاً. وقدّمت إليه غيرَ ذلك منافِعَ من أجلِّ الخدمات، وأحسَنِ العطايا، فهي تدير المعاملَ الكبرى والمصانعَ العظمى، في أيسرِ زمن، وأوجزِ وقتٍ، وقليلِ كلفة، مع السُّرعة الزائدة، والقوّة الشّديدة. فأخرجتْ للنَّاسِ المصنوعاتِ على اختلافِ أشكالِها، وتبايُنِ أنواعِها زاهرةً، بديعةَ الصنع، جميلةَ الاتقان.

وإنّنا لا ننسى خدمتها للأطباء الذين اتخذوا منها وسيلة للرأفة بالضعفاء، فانتفعوا بحرارتها في إزاحةِ أمراضٍ كثيرة، وبضوئها في كَشْفِ ما سترته كثافَةُ الأجسامِ، فأزالوا عن المرضى عناءَ الآلامِ وتَعَبِ الحياة.

كما لا يغيب عنّا استعمالُها في قطعِ الأشجارِ الضَّخمة، والأخشاب العظيمةِ،

[١٥٢] ـ الآلاء: جمع مفرده الإلْيُ، والأَلْيُ: النِّعْمَة.

وقضبانِ الحديد، ممّا أراحَ الإنسانَ والحيوانَ، وخفّف عنهما مؤونة الأشغال، ونَصَبَ[١٥٣] الأعمال، وصرفَ الأزمانِ والأموال.

ومن أعظم آثارِها نقلُ الأخبارِ من بلد إلى بلد، ومن قارة إلى قارّة في وقت وجيز، وزمن قصير، فأصبح الشرقيّ في شرقِه، يسمع كلامَ الغربيِّ في غربِه، وسهّلَ على سكّانِ الأرضِ كلِّها أن يخاطبَ بعضُهم بعضاً من غيرِ مفارقةِ أوطانهم، ومبارحةِ بلادهم، في ساعاتٍ معدوداتٍ، ودقائقَ معلوماتٍ، فكأَنَّ النّاسَ كُلَّهم أسرةٌ واحدةٌ في بيت واحد. ولقد محا ضوءُ الكهرباءِ آيَةَ الليل، ونسخَ معالمه في المدنِ العظيمة.

٩٠ ـ الصُّحف (الجرائد)

الصُّحف هي لسان الأمّة المعبِّرُ عن أغراضها وآرائها وأفكارها، فهي عنوانُ رقيّها، ودليلُ حضارتها، تنبئُ عن أحوالِ البلاد الداخليّة وحوادثِها المحليّة، وبين أنهارِها مِنْبَرٌ عام للخطباء، والعلماء، والحكماء، والأدباء، والشعراء، وأهل الخبرة، والسيّاسة، والدربة، والكياسة. فهي روضة النفس، ونزهة الطَّرْف، والناصح الأمين، والمرشد الحكيم، والمبشّر، والمنذر والسائح الذي يطوف البلادَ شرقاً وغرباً، فيعلم الناس بالأخبار، وما نقلوا لهم قدماً، ويوقفهم على أفكارِ غيرهم، وما أتعبوا لهم نفساً. وإنّها عَوْنُ الأمّة في الملمّات وعضدِها في النازلات، وبها يستغيث المستغيثون ويطلب النَّصَفَةَ[١٥٤] المغبونون، ويعرف العاملون والعاطلون، والمجدّون والخاملون، وفيها تنشر الحكومة أوامرَها وتعلنُ مطالبها، وتدعو إلى ما ترى وتريد. ويقف الإنسان بواسطتها على حوادِثِ الأرضِ كلِّها وهو في بلده، فيعرف ما يجري بين الدُّول من عهودٍ جديدة، وشروطٍ حديثة، ونزاعٍ وخصامٍ، وجدالٍ وقتالٍ، الخ.

٩١ ـ الطُّرُق الحديثة

كان النّاس فيما مضى من الأزمان، يلاقون أنواعَ الصعوبات، ويروْنَ صنوفَ الشّدائدِ، إذا أرادوا الانتقال من بلد إلى بلد، والسفر من جهة إلى أخرى. فكانوا يصرفون الأموال، وينفقون الأزمان، ويضعفون من قوّتهم وقوّة الحيوان. لا أمْنَ ولا راحةَ ولا اطمئنان، إن ساروا في البرِّ فيا وَيْلَهم من الأرض، وضلالِ المسلك، وفتك الفاتك، وغصبِ الغاصب، فيكونون هم وأولادهم عرضَةً للضَّياع والهلاك. وإن ساروا في البحر فيا ويحَهم من موج يغشاه موج، فيطوحُ[١٥٥] بالسفَينة كيف شاء، ويقلبها كيف يريد. فتارة يرون الموت وأخرى يرجون الحياة. وهم مع ذلك يخشون

[١٥٣] ـ النَّصَبُ: التَّعَبُ.

[١٥٤] ـ النَّصَفَة: الإنصاف.

[١٥٥] ـ طاح: هلك.

فتك الفاتكين، ويخافون صولَةَ الغاصبين. وإنّ صعوباتٍ كهذه تقف بالإنسان دون أن يخرج من بلده أو يرتحلَ عن وطنه. فكان الناس في انقطاع وافتراق، وتباعد واغتراب. لا تعارفَ ولا تآلفَ، ولا تبادلَ ولا تعامل.

فلمّا مُدَّت قضبانُ الحديد في البلاد، وتفرّعت فروعها في الجهات، سَهُلَ الوصولُ وعمّ الأمنُ وازدادَ الرَّخاء وكَمُل الهناء؛ فارتبطت البلاد، وقُرِّبت المسافات، وذُلِّلت الصعوبات، وانتشرت التجارة، وارتقت الصناعة، ووُجِدَ التعارف والتآلف والتحابُبُ والتّحالف والتّبادل والتعامل، وصارت المصنوعات والمزروعات تُنْقَلُ من البلاد الغربيّة إلى البلاد الشَّرقية، وما كنّا لنبلغَ ذلك إلّا بِشِقِّ الأنفس وصرفِ الأموال والأزمان وقوتنا وقوّة الحيوان فزال ذلك كلُّه، وبُدِّلَ الشقاءُ هناءً، والتَّعبُ راحة. وتنافس في الصِّناعة المتنافسون، وتسابَق في الزِّراعة المتسابقون، وتبارى في التجارة المتاجرون.

٩٢ ـ الثَّروة في يد العاملين

أقام جماعة بجزيرةٍ طاب هواؤها وعَذُب ماؤها، فشيَّدوا القصورَ الشامخة، واتخذوا البساتينَ النّاضرة، مترفّعين عن العمل، راكنين إلى الكسل. وكان معهم قومٌ من الفقراء يحرثون أرضهم ويسيمون دوابَّهم. ولقلَّةِ أجورهم وسوء معاملتهم ضاقت صدورُهم فاجتمعوا يوماً وقرّروا الرّحيل عن هذه الجزيرةِ إلى غيرها.

فخرجوا إلى أرضٍ خالية، فكدّوا بها وأحيَوْا أرضَها حتّى كثَّروا خيرها، فحملوا ما زاد على حاجتهم إلى الجزيرة ليتّجروا به، فإذا أهلُها في بؤس من العيش، قد أمحلت أرضُهم وتهدّمت قصورُهم. فعلِموا أنَّ السعادةَ للعاملين، وأنّ الشَّقاءَ حليفُ العاطلين. [البسيط]

ليس الحياةُ بأنفاسٍ تُرَدِّدُها إنّ الحياةَ حياةُ الفكرِ والعمل

٩٣ ـ الحديد

الحديد أكثرُ المعادِنِ نفعاً، وأشدُّها بأساً، وأعظمُها قوّة، له منافعُ كثيرةٌ، وقواعدُ عديدة. قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥] ولا ريبَ في ذلك، فإنّ عليه تُؤَسس الدُّورُ وتبنى القصور، وتُرْفَعُ القناطر فوقَ الأنهار، وتُقامُ الحواجزُ في عرضها. ومنه تكون الأسلحة والدروع والآلات الحربية، التي يَذودُ بها الإنسانُ عن نفسه، ويمنَعُ حوزَتَه[١٥٦]، وتحفظ الممالك وتقيها عاديات الهوالك؛ والعدد البخارية التي تدير المعامل الكبرى والمصانعَ العظمى، وتطحن

[١٥٦] ـ الحَوْزة: الناحية، وحوزة الرّجل: ما في مِلكه.

الحبوبَ وترفع المياه وتحرث الأرض. ومنه المُدْيَةُ[١٥٧] والمبراة والمِقَصُّ والمنشار والقُفْلُ والمسمار، وأغلب آلات الصنّاع والعمال التي لولاها ما تمَّ لهم عملٌ، ولا ارتقت صناعة، كما أنّ منه السُّفُنَ البخارية التي تشقّ البحار، وتجوب أطرافَها وتلاطم أمواجها. فتحمل الإنسانَ والبضائع من بلد إلى بلد ومن مملكة إلى أخرى. وكذا القطُرُ الحديدية التي أزالت عن المسافرِ كلَّ عناء، ورفعت عن الحيوان كلَّ شقاء، وارتبطت بها البلادُ واتّصلت الممالك، ومنه عجلاتُ النَّقل على اختلاف أشكالها، وتبايُنِ أنواعها، والأسلاك البرقيّة التي تنقل الأخبارَ وتنشرُ الحوادِثَ في زمن وجيز ووقت قصير إلى غير ذلك ممّا أخذ بيدِ الإنسان إلى ذُروَةِ الحضارة، وأكسبَه الخير والسعادة، ولا تقوم الحياةُ إلّا به، ولا تستقيمُ المعيشة إلّا بواسطته.

٩٤ ـ دور الكتب

إنّ ممّا يدُلُّ على تمدينِ الأمّةِ وحضارَتِها، وتقدُّمِها ورقيِّها، أن تنشئ دور الكتب في أكابر مدنها ليقصدَها طلّابُ العلم، وينتفع منها أهل الأدب، وذلك لأنّ أفرادَ الأمّة فيهم الفقيرُ العاقلُ والمعدَمُ الفطن والغنيّ الذي إنْ سَهُلَ عليه اقتناءُ بعض الكتب تعاصى عليه البعض الآخر، على أن من الكتب ما لا يَسْهُلُ نشرُه بين أفراد الأمّة لِكِبَرِ حجمه فكان من الحكمة أن تبنى «دورُ الكتب» لِتُجْمَعَ فيها مؤلّفاتُ الحكماءِ والعلماءِ والشعراءِ والأدباءِ الحاضرين منهم والقدماء، ويكون ذلك مباحاً لجميع الأفرادِ ينتفعون به لا فرقَ بينَ الغنيِّ والفقير، والعظيم والصَّغير، حتّى يسهُلَ عليهم اقتناءُ الفنونِ والآدابِ والعلوم والمعارف. ولقد كان بالإسكندرية زمنَ البطالسة دارُ كتب عظيمة، احتوت على أنفسِ الكتب، وأحسنِ الملّفات. وأوّل من قام بإنشاء دور الكتب من أهل الإسلام العباسيون، فقد أنشأوا ببغدادَ داراً جمعت كثيراً من كتب الحكماء والفلاسفة والعلماء وسَمَّوْها (بيت الحكمة) وأنشأ الفاطميون بالقاهرة (خزانةَ الكتب) ومكاتبُ[١٥٨] الأندلس كانت مشحونة بالكتب القيّمة مملوءةً بالمؤلَّفاتِ التي تُكْسِبُ الإنسانَ حكمةً، وتورثه عقلاً وفضلاً ودراية وعلماً. والآن بالقاهرة «دار الكتب» فيها من الكتب أنفَسُها، ومن المؤلفات أنفعُها، ويختلف إليها النّاسُ للإفادة والاستفادة والمذاكرة والاطّلاع ممّا أفاد فائدة تامة.

٩٥ ـ الشَّركات

إنّ للشَّركة على اختلافها وتبايُنِ أنواعِها تأثيراً حسناً، وفعلاً طيباً، وعملاً جليلاً في ارتقاء الأمّة وتقدّمها وسعادَتِها وثرائِها وخصوصاً الذين قاموا بإنشائها واعتَنَوْا

[١٥٧] ـ المُدْية: الشَّفرة الكبيرة.

[١٥٨] ـ الصَّواب مكتبات لأن مكاتب جمع مكتب لا جمع مكتبة.

بتأسيسها، فإنّها تبعث فيهم النَّشاطَ وحُبَّ العملِ والميلَ إلى التعاونِ والمساعَدَةِ، وتزيد من أموالِهم وثَرْوَتهم. وبديهيٌّ أنّ الفردَ الواحدَ لا يقوم بما تقوم به الجماعةُ من بذلِ الأموالِ وسرعةِ الحركة، والنَّشاطِ والاجتهادِ وحسنِ المراقبة، والملاحظةِ، والالتفاتِ، والانتباهِ، فَمِنَ الضروريِّ أن يستعينَ بغيره ويتقوّى به لتجتمعَ منهما قُوّةٌ تعود عليهما بالنَّفْعِ العميم والخيرِ الجزيلِ، لذلك وجدَتِ الشَّركاتُ التي لولاها ما ظهرت الأعمالُ العَظيمةُ والأفعالُ الجسيمةُ، والأمورُ الكبيرةُ التي تحتاج إلى المالِ، والقُوّةِ، والعقلِ والفكرِ كَمَدِّ السِّكَكِ الحديدية وتكوينِ الأراضي الزراعية واستخراج الموادِّ المعدنيةِ، وحفرِ التُّرَعِ والأنهار، والسَّيْرِ في البحار، وإدارةِ المعاملِ الكبرى، والمصانِعِ العظمى، إلى غيرِ ذَلك ممّا لا يكون لِفَرْدٍ أن يقومَ به أو يقدر على عَمِله.

٩٦ ـ المياه

إنّ المياهَ من العناصِرِ التي لا يحيا الإنسانُ إلّا بها، ولا يعيش إلّا بواسطتها، وهي على اختلافِ أنواعِها، وتبايُنِ أصنافها، مفيدةٌ للإنسان والحيوان، والشَّجرِ والنَّبات، يرتوي منها الإنسان، ويشربُ الحيوان، ويُسقى الشجر والنبات، وببخارها يعتدل الجو، وتلطف الحرارة، وينقّى الهواء، وتطهّر المياه، وتسير فوقَها السُّفُن البخاريَّةُ والشِّراعِيَّة، وتدارُ بها المعامل الصناعية إن كانت ذاتَ تيَّارٍ عظيم.

ولا يغيبُ عنّا تلك المخلوقاتُ العديدة، والخلائقُ المختلفة التي تعيشُ داخلَ البحار وفي بطن الأنهار، وما نَأكله من السَّمك، ونستخرجه من اللّؤلؤ والمرجان، والملح والأصداف.

نحن محتاجون إلى المياهِ في الأكلِ، والشُّرْبِ، والمسكَنِ، والملبَسِ، والتَّنظيف، والتَّطهير، وفي أغلبِ الأمور إذا أَردنا البناء احتجنا إلى الماءِ، وإن طلبنا الغذاء وجدناه في الماء، وإن قصدنا نقيّ الهواء رأيناه عند الماء، وبه نطفئ الحرائقَ، ونصدُّ به عاديات الزَّوابع، ونخفّف به عنّا حرارةَ الصَّيْفِ وجِماعُ[١٥٩] هذا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

٩٧ ـ المهدي والواشي

دخل رجل على المهديّ في أمْرٍ، فتبيّن له أنّه يريد أن يسعى عنده في ضررِ غيرِه. فقال له المهدي: اعلَمْ يا هذا بأنَّ السّاعي ليسَ بأعظمَ عورَةً، ولا أقبحَ حالاً ممّن قَبِلَ سعايتَه، ولا تخلو من أن تكونَ حاسدَ نعمةٍ فلا نشفي غليلك، أو عدوًّا فلا نعاقب لك عَدُوَّكَ ولا ينصح لنا ناصح إلّا بما فيه لله رضا، وللمسلمينَ صلاح فالظّاهر

[١٥٩] ـ جِماع كلّ شيء: مجتمَعُ أصله.

لنا والباطنُ ليسَ لنا، ومن استَتَرَ عنّا لم نكشفه، ومن بادَأَنا طلبنا توبَتَه، ومن أخطأ أَقَلْنا عثرَتَه، فإنّي أرى التأديبَ بالصَّفْح أبلغَ منه بالعقوبة، والسلامة مع العفو أكثر منها مع المعاجلة، والقلوب لا تبقى لوالٍ لَا يَنْعَطِف إذا استعطف، ولا يعفو إذا قَدَرَ، ولا يَغْفِر إذا ظَفِرَ، ولا يرحم إذا استرحم.

٩٨ ـ الحرارة

إنّ الحرارة عنصر من العناصر التي لا يحيا الإنسان إلّا بها، ولا يعيشُ الحيوانُ إلّا بوجودها، ولا ينمو النبات إلّا بواسطتها.

وإنّها لأنواع وأصناف، فمنها حرارةُ الشّمس وهي تلك الحرارة التي خدمتِ الإنسانَ أجلَّ الخدمات، وأفادته أحسنَ الفوائد، فإنّها تُبَخِّر مياه البحار، فيعلو ذلك البخار، وينعقد سحباً في السّماء فيحملُها الهواءُ حتى تصادِفَ برودةً تحوّلها إلى أمطارٍ تنهمل على الأراضي الجدباء فتصبح روضةً خضراءَ، فتبارك الفعال لما يشاء كما أنّها تلطّف برودةَ الجو، وتمنع رطوبةَ الأرض، وتجفّف الثيابَ وغيرَها وتنضج الثّمار، وتنمي الإنسان والحيوان والنبات، وغير ذلك من الفوائد والمنافع.

أمّا حرارة الكهرباء، فقد استعملها الأطبّاء في مَحْوِ كثير من الأدواء، وسخّرها الصُّنّاعُ في أمورٍ كثيرة كقطعِ الأشجار، وكسرِ القضبان والاستضاءة بجميلِ الأنوار، إلى غيرِ ذلك مما يحتاج إليه الإنسان، ويستفيد منه.

وأمّا حرارة الفحم والخشب، فقد عادت إلينا بالنّفع العظيم والخير العميم، فإنّها تسيِّر القُطُرَ الحديدية، والسفن البخارية، وتدير المعامل الصناعية، والآلات الزراعية التي تروي الأرض، وتطحن القمح، وتنقّي القطن، وغير الزراعية كالتي ترصف الطرقاتِ، وتجرّ الأثقال، وتجمّد المياه.

وبالجملة فينابيع الحرارة ثلاثة: الينابيع الطبيعية، وهي الأشعة الشمسية والحرارة الأرضية والكهربائية. والينابيع الكيماوية، وهي اتحاد الأجزاء ببعضها. والينابيع الميكانيكية، وهي الاحتكاك والضغط والقرع.

٩٩ ـ الضوء

الضوء حركة أثيرية، وهو على اختلاف أنواعه، وتباين أصنافه، مفيد للإنسان الذي يحتاج إليه كلَّ الاحتياج.

فبينما يكون الظَّلامُ منتشراً، والجوُّ معتماً، إذ ظهرت الشمس فمحت آيةَ الليل وأزالت ظلامَ الجوِّ بنورها الساطع، وضوئها اللامع فتنبعث النَّاسُ من مراقدها وتروح إلى أعمالها، فيكتب الكاتب، ويحسب الحاسب، ويشتغل الصانع، ويتّجر التاجر، وكلّهم مطمئنُّ البال مسرورُ النفس من ذلك النور الطبيعي، وهذا الكوكبُ المنيرُ،

الذي أنعمَ الله به على عبادِه، فأفادهم فائدةً كبرى، وعاد عليهم بالنّفع العميم.

ولمّا كان الإنسان لا يستغني عن الأعمال ليلاً، أنعمَ الله عليه بتلك النجوم الزاهرة، والقمر المتلألئ، ليهتدي الساري والرائح والغادي، فلولا الضوء ما كتب كاتب، ولا راح رائح، ولا عمل عامل، بل كنّا نعيش في ظلامٍ حالك، وليل مظلم. وبعد أن نعيش على تلك الحالِ، فما أجَلَّ نعمةَ الضَّوْء!

ظهر الضّوء الطبيعي وهو ضوء الشمس والقمر والنجوم، فانتفع به الإنسان في أموره وشؤونه. ولما هداه الله للضوء الصناعي استعمله حين تغيب الشمس ويخفى ضوء القمر والنجوم.

١٠٠ ـ الأشجار

إنّ الأشجارَ من أنعُم الله العظمى، ومِنَنِه الكبرى، التي عادت على الإنسان بالنفع العظيم، والخير الجزيل. يبذر الواحد منا بذرة ضئيلة ضعيفة، صغيرة حقيرة، ثم يتَعَهَّدُها حيناً من الدهر، فلا يلبث حتى يراها شجرةً ملتفّة الأغصان، مورقة الأفنان، ينتفع من ثمارها إن كانت من ذوات الثمار، ويستفيد من أزهارها إن كانت من ذوات الأزهار، فيستخرج الروائح ثم يجد فيها الأدوية المفيدة لكثير من الأمراض، النافعة في أغلب الأدواء كما أنها تنقّي الهواء، ويستظل بها الإنسان ويتغذى بورقها الحيوان، ويأوي إليها الطير، فيتخذ منها سكناً، ومن أثمارها غذاء. وإنا لنتّخذ منها زيادة على ذلك الأخشاب التي نصنع منها السفن البخارية، والمراكب الشراعية، والنوافذ، والأبواب، وسُقُفَ المنازل وما يقينا عادية اللصوص وطوارئ الجو. كما أنّا نصنع منها قماطِرَ الكتب، ومقاعدَ الجلوس وموائدَ الأكل، وسلاليم الصعود ووقايات من رطوبة الأرض، وأغلب الآلات والأدوات، وننتفع بما كمن فيها من النار.

١٠١ ـ تأدية الواجب

أغلب الناس يُحبّون العملَ حبًّا جمًّا، ويكرهون الكسل كرهاً شديداً، ويعملون ويجتهدون ويدأبون بالليل والنهار لا يفترون، يفضّلون الشغل، ولو أدّى إلى الموت، على الحياة التَّعِسَةِ الدنيئة التي لا يرضى بها عزيز، ولا يقيم عليها إلّا كلُّ ذليل حقير. أولئك الناسُ هم الذين أدّوا ما وجب عليهم وقاموا بِعَمَلِ ما طلب منهم فاكتسبوا سروراً لا يعدِلُه سرور لأنَّ أتعب الأعمال مفعم باللذة النفسية، وبه حياةُ الإنسان الأبدية.

كلُّ واحد في أيِّ عمل لا يقوم بما وَجَبَ عليه ولا يعمل ما طُلِبَ منه وهو مُلْزَمٌ به فقد عرّض نفسه للمذلّة، وسعى وراء ما يُكسبه الضَّرر والامتهان، لأنّه يصبح مُبْغَضاً

عند رؤسائه، مكروهاً بين رفقائه، بل ربّما أدى ذلك إلى عزلِه عنْ عمله، فتضيقُ عليه الأرضُ بما رَحُبَت، وتوصَدُ في وجهه أبوابُ الرِّزْق.

أمّا من أدّى واجبه، فإنّه يكون حرّاً خالصاً، لا سلطةَ لأحدٍ عليه من رئيسٍ ومرؤوس، وينالُ سروراً يعادلُ أضعافَ التَّعبِ الذي صادَفَهُ في طريق أداء الواجب، ذلك هو الذي أفادَ أمَّته وقومَه فكان عضواً عاملاً على نجاح بلاده، ساعياً في رفعة أمته.

إنّ الإنسانَ إذا تهاوَنَ بواجباتِه، وتثاقَلَ عَنْ عَمَلٍ ما يجب عليه تراكمت عليه الأعمال، وأصبحت عبئاً ثقيلاً على كاهله، وانفتح أمامَه بابُ اليأس فيعيش عيشَةً تَعِسَة، ويحيا حياةً الموتُ خيرٌ منها، فلا يُفيد ولا يستفيد ولا يَعمل عملاً يوجبُ له الشُّكر والاحترام، فأداءُ الواجب مرتَبِط بحياةِ الإنسان السعيدة التي يعيش بها مسروراً، قريرَ العين، مثلوجَ الفؤاد، مرتاحَ الخاطِر، مطمئِنَّ البال.

وإنّ الأمَّةَ إذا قامت بواجباتها، وأدَّت ما وَجَبَ عليها، يعزُّ شأنُها ويقوى سلطانُها، وتعيش في هناءٍ دائم، ونعيمٍ مقيم، واللَّهُ لا يضيع أجْرَ العاملين.

١٠٢ ـ إتقان العمل

إنّ النَّاسَ على اختلافِ مشارِبهم، وتبايُن آرائهم، يحبّون العملَ المتقنَ، والصُّنْعَ الحسن. لأنّ الإتقانَ يكسبُ العاملَ رِفْعَةً وعلوّاً وذكراً وقدراً، وإنّا لنرى بعضَ المصنوعات فاقَ غيرَه وتقدّم عليه في الأسواق، ونالَ رضا الناس وحبَّهم إياه. ولم يكسِبْه ذلك إلّا سلوكُ سبيلِ الإتقان في عمله، والجودة في صنعِه، حتى ظهرَ بمظهرِ القَبولِ فيُسَرُّ منه من ينظره، وينشرح له صدرُ من يُبْصِرُه، ويسعى في اقتنائِه من يراه.

إنَّ الإتقانَ في العمل يُقَدِّمُ صاحِبَه، ويجعَلُه محبوباً بين الناس ويُكْسِبُه الشَّرَفَ الرفيع والمجْدَ الأثيل. فالصّانع والتّاجر، والمتعلّم والعالم، والزّارع وغيرُه، إذا أتقنوا عملهم، وأحسنوا صُنْعَهم، كانوا مِنَ السَّاعينَ في خير أمّتهم، العاملين على تقدّم بلادهم، الحافظين وطنَهم من حادثاتِ الدَّهر، وكوارثِ الأيام.

الإتقانُ في العمل يأخذ بيد صاحبه، ويقدّمه على إخوانه، ويرفَعُه على أقرانه، ويظهَرُ أمامَ قومِه بمظهرِ الرَّجل العارف، والإنسان الكامل، فيحظى بالدَّرجة الرفيعة، والمنزِلَةِ الشريفة، وينالُ محبَّةَ الرؤساءِ والكبراء، والإخوانِ والأصدقاء وجميعِ الأمة. وما هو إلّا عمل أتقنَه، وصنع أحسَنَهُ.

النّاسُ لا ينظرونَ إلى مُدَّة العمل وإنّما ينظرون إلى جَوْدَتِه، فعمَلٌ مفيدٌ في وقت طويل، خيرٌ مِنْ عَمَلٍ لا يُفيدُ ولا يغني في زمن قصير.

فليس المهمِلُ في عمله، والمتَعَجِّلُ في شغله، كالذي أتقنه وحسَّنه وإنّما هو

ساعٍ في ضرره، عامل على تأخُرِه، وتأخّرِ بلاده وأمّته، وربّما نشأ عن العجلة الخطأ، فيذهب عليه عملُه سدى، ويضيع تَعَبُه بلا فائدة ولا ينالُ غيرَ الندم، وشقاءَ البدن، وذلك جزاءُ المهملين.

١٠٣ ـ الإنسان

لقد خلقَ الله الإنسانَ في أحْسنِ تقويم، باعتداله وتسويةِ[١] أعضائه، وخَلَقَ كُلَّ حيوان منكَباً[٢] على وجهه وخَلَقَهُ سويّاً[٣] وجعل له لساناً يَنْطِقُ به، ويداً وأصابعَ يَقْبِضُ بها الأشياء، ويصرِفُها كيف يشاءُ ويريد، وجعل له التَّمييزَ بينَ الأشياءِ الضَّارة والنافعة، ومنحه[٤] العقلَ الذي به الإدراك.

الإنسان أعدل الحيواناتِ مزاجاً، وأكملُها أفعالاً، وألطفُها حِسّاً، وأنفذُها رأياً، فهو كالملك القاهر لسائِرِ رعيَّتِه، وذلك بما وهب اللَّهُ تعالى له مِنَ العقلِ الذي به تَمَيَّزَ على كلِّ الحيوانات، فهو في الحقيقة ملك العالم.

والإنسانُ ـ وإنْ خُلِقَ ضعيفاً ـ ليس له من الصّوف أو الشَّعْرِ ما يقيه[٥] الحرَّ والبردَ، ولا من المخلب[٦] وحادِّ الأظفار ما يتصيّد به غيره من الحيوانات، أو يدافعُ به عن نفسه. فقد منحه اللَّهُ العقلَ الذي به سخّر[٧] له الأنعام، وهداه إلى استعمال المعادن في حاجاته، ونسجِ الأصواف والأوبار[٨] والشعور لملابسه وزينته وحَرْثِ الأرض لاستنباتِ قوته وقوتَ ما سُخِّرَ له من بهيمة الأنعام. يُنْزِل الطيرَ من السماء، وينقل الأثقال من مكان إلى مكان، ويشيد المباني والقصور الفاخرة لسكناه. وتراه يطير في الجوِّ بغيرِ أجنحة.

ولكنْ بما هداه إليه عقلُه من البالونِ الذي يُقِلُّه في الجوِّ فيقطع به البحارَ والجبالَ والوهاد.

١٠٤ ـ الاعتماد على النفس

هو أن يباشِرَ الإنسانُ أعماله بنفسه، وينظرَ في أحواله وحدَهُ فلا يحتاجُ إلى مُعينٍ يُعينه، أو مشاركٍ يشارِكُه، ما لم تكن تلك الأعمالُ وهذه الأحوالُ، مما تجب فيه المساعدة والإعانة. فإن الإنسان محتاج إلى التعاون في أشياءَ كثيرةٍ، لا تبعث فيه خُلُقَ التواكل ولا تجعَلُه من أهل الكسل إن اعتمد فيها على غيره. فالاعتماد على النَّفْسِ

---

(١) اعتدال.
(٢) مائلاً.
(٣) مستوياً.
(٤) أعطاه.
(٥) ما يحفظه.
(٦) هو للطائر والسبع كالظفر.
(٧) ذلل.
(٨) شعر الإبل.

أصلُ النجاح، وأساسُ الرُّقي، يدعو صاحبَه إلى الجد، ويسوقه إلى النّشاط، ويقتل من نفسِه خلقَ التَّواكل الذي أخّر كثيراً من الناس، ووضَع من قدرهم، وحطَّ من شأنهم. فواجب على المرء ألّا يُعَوِّلَ على غيره وأن يعتمد على نفسه: [البسيط]

فـإنّـمـا رَجُـلُ الـدُّنـيـا وواجِـدُهـا مَنْ لا يُعَوِّلُ في الدُّنيا على رجل

إذا وُجِدَ في الأمّة أفراد يعتمدون على أنفسهم، ولا يحتاجون إلى مشاركة غيرهم، تقدّموا وتقدّمت بلادهم، وارتقوا وارتقت أوطانُهم، وعزّوا وعزَّت أمتهم.

١٠٥ ـ العمل

إنّ العملَ من أسبابِ الكمال، وهو طريقٌ إلى بلوغ الآمال، وسبيل إلى كلِّ خير ونجاح. فقد قيل: [الكامل]

الـجِـدُّ يـدنـي كـلَّ أمـرٍ شـاسـع والـجـدُّ يَـفْـتَـحُ كـلَّ بـابٍ مُـغْـلَـقِ

وإنّ الأرضَ الطَّيِّبَة بغير العمل لا تُنْبِتُ شيئاً، والأرض الجدباء بالعمل تثمر وتنبت، فمن حاول أن ينال العلا من غير كدٍّ وعمل فهو كمَنْ حاوَلَ ارتقاءَ السَّماءِ، واصطيادَ العنقاء: [الطويل]

وما طالبُ الحاجاتِ في كلِّ وجهةٍ مِـنَ الـنَّـاسِ إلّا مـن أجَـدَّ وشـمَّـرا

فالعاقل من قابل العملَ بكلِّ صبرٍ، وثباتٍ، وعزمٍ، وحزمٍ، ونزاهة، واستقامة، وصدق، وأمانة. ذلك هو الذي ينال المحامِدَ ويكتسبُ الفضائلَ، ويحيا حياةً سعيدة، ويعيش عيشةً مرضية، أمّا من خاف من الأعمال، وتقهقر أمامها فإنّه يعيش ذليلاً، مَهيناً، حقيراً، وضيعاً، ويكون عبئاً ثقيلاً، وعضواً أشَلَّ، مِثْلُ هذا لا خيرَ له في الحياة. [الوافر]

ومـا لـلـمـرءِ خَـيْـرٌ فـي حـيـاةٍ إذا مـا عُـدَّ مـن سـقْـطِ الـمـتـاع

وإنّ الفقر، والنَّسَب الوضيع لا يصدَّانِ العاملَ المجتهد عن نيلِ المراتب العالية، والدَّرجات السامية. كما أنّ الغنى والنَّسَبَ الشريف لا يفيدان الخاملَ الكسول. فإن كثيراً من الأغنياء الأشرافِ انحطوا بعد الرِّفْعَة، وذلّوا بَعْدَ العِزَّة، لميلهم إلى الكسل، وإخلادهم إلى الراحة. وكثيرٌ من الفقراء ذوي النَّسب الوضيع، والأصْلِ الحقير، نالوا العِزَّةَ بعدَ الذُّلِّ، والغنى بعد الفقر بجدِّهم واجتهادهم وسعيِهم ونشاطِهم. فمن جدَّ وَجَد، ومن تكاسلَ نَدِم.

١٠٦ ـ الأمل

الأمل: هو ذلك القائد الذي قادَ الملوك إلى مناصبها، وأجلَسَ الأمراء في مجالسها، وأظهرَ العلماء والحكماء والعظماء والكبراء، وفَسَحَ في العيش لمن كاثَرَتْهُ الهمومُ، وتوالت عليه الأحزان: [البسيط]

أُعَـلِّـلُ الـنَّـفْـسَ بـالآمـالِ أرقُـبُـهـا ما أضيق العيشَ لولا فسحةُ الأملِ!

فهو مُؤَثِّر قوي يبعث في الإنسان حبَّ العمل، ويسوقه إلى الجدِّ والاجتهاد حتّى يَصِلَ إلى غرضه، ويحصلَ على مطلبه، فيكتسبُ رفعة وشرفاً ومجداً، وثناء وحمداً، ذلك إن لم يخرج عن حدِّ الاعتدال، أو يتعلق بشيء دنيء. فإن كان الأول، فإن صاحبه مهما جدّ وسعى غيرُ واصل إلى مطلوبه. وإن كان الثاني، فإنّ صاحبه لو وصل إلى غرضه، كانت عاقبتُه سيئةً ونتيجَتُه الوبالَ والخسرانَ والخزيَ الكبير.

وهذا النوع من الأمل هو الأمل الكاذب والأمل الدنيء.

كثير من الناس تعلّقت آمالهم بالأمور العظيمة الممكنة، فوجدوا من أنفسهم هِمّة ونشاطاً يساعدانهم على نيل مطالبهم، وإدراك رغائبهم، فنالوا الرفعة والمجد الأثيل[١٦٠]، ذلك هو الأمل الصادق النافع. ومن الناس من طلبوا المستحيل، أو الأمرَ الحقير فباءوا[١٦١] بالخسران الكبير، وما نالوا غيرَ التَّعب الشديد وغضب الله والناس، وذلك جزاء المعتدين، وتلك عاقبة الآمال الكاذبة.

فالأمل الصادق هو الذي يجب أن يعتمد عليه الشخص، ويجعله له إماماً ونوراً. فهو آية السعادة والهناء، وعلامة كلّ خير وسرور، وهو الذي جعل الإنسان رجلاً يكافح النوائب، ويقابل المصائب بجأش ثابت، وقلبٍ قوي ينزل به من وهدة إلى أخرى ومن صعب إلى صعب، فلا تسأم نفسه ولا تملّ. وكيف تسأم أو تمل، وأمامها الأمل الذي هزم الكوارث وخذل الصعاب، حتى عاد صاحبُه ظافراً غانماً؟

الأمل هو الذي قوّى عَضُدَ الزّارع والصانع، ورفعَ من نفس المتعلم والعالم، والجنديِّ الصغير والأمير الكبير، حتى أدركَ كُلٌّ غايته، ونال مطلبه. فما أعظمه نافعاً! وما أفضله صاحباً وقريناً بعث للناس العلماء والحكماء، والملوك، والأمراء، وكشف عن الأفئدة ظلمة الجهل، وأضاءها بنور العلم، وقاد الناس إلى ما فيه خير البلاد والعباد!

١٠٧ ـ مقابلة الإساءة بالإحسان

يحكى أنَّ زبيدة العباسية(١) كانت جالسة ذات يوم في قصرها فدخلت عليها حاجبتها تقول: إن امرأة جميلة عليها ثياب بالية(٢) تريد الدّخولَ عليك، وتقول إنّها

(١) زوجة الرشيد.

(٢) ممزقة.

[١٦٠] ـ الأثيل: الأصيل.

[١٦١] ـ باءوا: رجعوا.

تعرفك من قديم. فأنكرت زبيدة ذلك، فطلب من حضر من جواريها الإذنَ لها فأذنت، فدخلت امرأة معتدلة الخلقة(١) جميلة الصورة، عليها رداء مرقّع(٢)، فجعلت تمشي في استحياء حتى انتهت إلى باب المجلس فسلّمت، فردت زبيدة عليها السلام، وقالت لها، من أنت؟ قالت:

أنا طريدة الزمان، وطريحة الحِدثان(٣)، ماتت رجالنا، واختلّت أحوالنا، وجفانا الصديق، وكِدْنا نُلْقَى على الطريق. فقالت لها زبيدة: انتسبي، فقالت: أنا ربيبةُ ابنة مروان بن محمد(٤)، فقالت: لا حيَّاكِ الله، ولا سلَّم عليك! ثم ذكّرتها ببعض حوادِثَ حصلت منها في زمن عظمتها، فبكت، وقالت: يا ابنة العمّ وأيّ شيء أعجبك من الإساءة وقطع الرَّحِمِ حتى تقتدي بي في ذلك؟ ثم انصرفت. فندمت زبيدة على ما حصل منها، وبعثت جواريها إليها فلم ترجع. فقامت تعدو(٥) خلفها حتى أدركتها في الدهليز فاعتذرت إليها فرجعت. ثم أمرت زبيدة جواريها فأدخلنها الحمام وأحضرن لها أصنافاً من الثّياب فاختارت منها ما شاءت، وتطيّبت وأقبلت، فقامت إليها زبيدة، وعانقتها(٦) ورفعت مجلسها، فلما دخل الخليفة(٧)، قصّت عليه القِصَّة فشكرها وأمرها أن تُعِدَّ لها مقصورة(٨) وجواري يخدمنها.

١٠٨ ـ الاقتصاد

لكلِّ مطلوبٍ غاية يَشْرُفُ بشرفها، ويرتقي بها، كما أنه ينحطّ بانحطاطها، وإن الاقتصاد مطلوب، وغايَتُهُ حسنة شريفة راقية جليلة، وهو يكون في المال، والأكل والشرب، واللباس والبناء وكلّ الأمور. فأمّا الاقتصاد في المال فوراءه كلُّ كمال، إذ به يجد الإنسان عماداً يعتمد عليه عند الحاجة، ونزولِ الملِمَّة، فهو عُرْضَةٌ للمرض، عرضة للكبر، عرضة للفقر، عرضة للعزل، عرضة لكل نائبة. فواجب عليه أن يدَّخر من ماله ما يقيه شرَّ المصائب، ويحفظُه من عاديات الدهر. على أنّ وراءه من الواجبات والحقوق ما يجعله عاملاً على ادّخار المال لأدائها والقيام بها، فواجبٌ عليه تربية نفسه وأولاده وصلة ذويه وأقربائه، ومساعدة الفقراء، وتربية اليتامى، وإعانة الضعفاء، وأهل البؤس والشقاء. وكيف يؤدّي الواجباتِ منْ لَمْ يدَّخِرْ من ماله ما يكفل له القيام بها؟ أم كيف يقوم بهذه الحقوق من أسرف وبذَّر، أو بخل وقتّر؟ إنه لينهزم أمامها ويتقهقر منها دون أن يؤدِّيها، أو يقومَ بواحد منها، ولقد جاءنا من الأنباء أنّ

(١) مستويتها.
(٢) ثوب به رقع.
(٣) مطروحة الليل والنهار.
(٤) آخر خلفاء بني أمية.
(٥) تجري بسرعة.
(٦) ضمتها إلى صدرها.
(٧) هارون الرشيد.
(٨) مكاناً.

الأوروبيين وبعضَ الشرقيين رجالاً ونساء صغاراً وكباراً تنافسوا في أداء هذه الواجبات، والقيام بتلك الحقوق، فلم يعنوا بجمع المال للّهو واللّعب، والتّفاخر والتّكاثر، بل ادّخروه واقتصدوه لتعليم أنفسهم وأولادهم وإنشاء المدارس، ومكافأة العلماء، ومساعدة الفقراء، وإسعاف المصابين، وإقامة الملاجئ، وبناء المستشفيات. وكم رأينا من أناس منهم يوصون بأموالهم التي اقتصدوها، وأعدّوها لأعمال الخير، أن تُصْرَفَ في هذا الغرض الشريف، غرض رقي الأمة وسعادَتِها بعد موتهم، ولمثل هذا فليكن الاقتصاد في المال.

والاقتصادُ في الأكل، والشرب، والبناء، واللباس وغيره يكون بالاقتصارِ على ما يَسُدُّ الخَلَّةَ[١٦٢] ويقضي الحاجة.

١٠٩ ـ الشمس

الشمس: كوكب عظيم يَطْلُع نهاراً من الشرق فيضيء الدنيا ويساعد على رؤية جميع الأشياء على سطح الأرض، ومتى سقط شعاع الشمس على الزرع ينضجه، ويكسبه ألواناً جميلة ويتحوّل به ماء البحر إلى بخار، ويصير مطراً.

ثم يسقط ماء عذباً يجري به ماء الأنهار، ويسقي به الزرع والحيوان، وينتفع به الناس في حوائجهم.

ومن ذلك ماء النيل السعيد الذي يجري في بلادنا، وننتفع به في معيشتنا.

وحرارة الشمس تجفّف الرطوبة الناشئة من وجود المياه في جدران الأماكن، كما أنّها تجفّف الملابس بعد غسلها، ولكنها تَضُرّ من يتعرض لها كثيراً دون وقاية بمظلة ونحوها، فيحصل له ما يسمَّى بضربةِ الشمس، وقد تكون هذه الضربة أحياناً مُهْلِكةً فيجب الاحتراسُ منها.

١١٠ ـ الأرض

الأرض التي نعيش عليها: تتكوَّن من بحرٍ وبَرٍّ، فالبرُّ ما يعيش فيه الإنسان والحيوان، وينبت فيه النبات والأشجار.

وتبنى فيه المدن العظيمة، ويُنْتَفَعُ بصخوره وجباله في البناء والعمارات.

أمّا البحر فهو الماء الذي تعيش فيه النباتات البحرية، وكذا الحيوانات البحرية، وتجري فيه السفن لنقل الإنسان والبضائع من جهة إلى أخرى.

وينقسم البَرُّ إلى أقسام، كلُّ قسم له اسم خاص بحدودٍ خاصةٍ مثل مصر،

[١٦٢] ـ الخَلَّة: الحاجة والفَقْر.

والشام، والهند، والصين، والحجاز، وأوروبا، وأمريكا، وإفريقيا.

١١١ ـ القمر

القمر: كوكب أصغر حجماً من الشمس، ينير ليلاً فيرسل على الأرض ضوءاً يهتدي به الناس في الطريق، وينتفع الزارع بضوئه فيشتغل بالزراعة ليلاً.

وهو يبدو في أوّل الشهر مقوّساً، ويقال له: هلال، ويزداد حجمُه إلى أن يُرَى تامَّ الاستدارة في الليلة الرابعةَ عشرةَ، فيسمى بدراً، ثم يعود إلى حالته الأولى تدريجاً، حتى يصيرَ حجمُه في أواخر ليالي الشهر كما كان في أوائل لياليه.

ويُرَى في أوّل الشهر بعد الغروب جهةَ الغرب، وفي آخره قبلَ الفجر جهةَ الشَّرق.

١١٢ ـ النجوم

النجوم: هي الأجسام المنيرة التي تراها ليلاً منتشرةً في السَّماء وحجمُها يختلف صغراً وكبراً.

فمنها ما هو أكبرُ من الشمس، ولكنّها تُرى صغيرةً لبعدها الكثيرِ عنّا.

ومنها ما هو أصغرُ من الشمس.

والذي يهم معرفتُه منها هي النجمة القُطبيَّة التي تظهر جهة الشمال، فبها يهتدي المسافرُ براً وبحراً، وتعرَفُ بها الجهات الأربع الأصليّة، وهي الشرق، والغرب، والشمال، والجَنُوبَ، والنجوم لا يظهر ضوءُها نهاراً لِشدَّة ضوء الشمس.

١١٣ ـ الثبات والصبر

[البسيط]

وقلّ من جَدَّ في أمْرٍ يحاوِلُهُ واستصحب الصَّبْرَ إلّا فاز بالظَّفَرِ

إنّما تمامُ الأعمال، واجتناءُ ثمارِها، والحصولُ على الفائدة منها يكون بالثبات والصبر اللذين أنالا المرء مطالبه، وأدرك بهما رغائبَهُ وإنْ لم يكُنْ من كبار المفكّرين، وأهلِ البسالةِ والقوّة، فإنَّ أكثرَ الأعمال العظيمة تمَّتْ بأبسطِ الوسائلِ واستخدامِ القُوى العادية.

وكان المعينُ على تمامِها هو الثبات والصبر: فأكثرُ الناسِ ثباتاً وصبراً وأكثرُهم نجاحاً ورقياً، وإنّ الاجتهادَ والصبرَ أخضعا كلَّ صَعْبٍ ولا فضلَ لبعضِ النَّاسِ على بعضٍ إلّا بالعمل والصبر.

ألا ترى أنه ما وُلِدَ العالِمُ عالماً، ولا الأميرُ أميراً، ولا الملكُ ملكاً، ولا الحكيمُ حكيماً، ولكنَّ الصَّبْرَ أوصلَ هؤلاءِ إلى مراتبهم وسار بهم إلى مجالسهم، وأنالهم الرِّفعةَ وعزّ الدهر.

أمّا من استسلمَ إلى اليأسِ وملكه زمامه، فسيقوده إلى مهواة سحيقة، فيسوء حاله، وينكّد عيشَه، ويحيا حياةً لا خيرَ فيها، تراه لا يتمّ عملاً، ولا يدرِكُ مطلباً، ولا ينال غرضاً فتضيق عليه الأرض بما رَحُبَتْ.

١١٤ ـ ١ ـ العفو عند المقدرة

يروى أنّ رجلاً من الفُرْسِ كان يسوء آخر من العرب، فتمكن العربي يوماً من القِصاصِ منه، والفارسي وحده، والعربيّ وسط فئة من قومه، كل واحد منهم أشار عليه برأيٍ، فمنهم من قال: نضربه حتى يفارقَ الحياة. ومنهم من قال: نجلده. ومن قال: نشنقه، وهكذا! وبقي منهم رجل لم ينطق بكلمة واحدة.

فقال له العربي: ما رأيك فيه؟ قال: الرأي عندي العفو عنه لأنّ من جازى اللئيم بلؤمه، كان مثله. والعفو عند المقدرة، خير من التّشَفّي. قال العربي: «أصَبْتَ، وما قَصَدْتُ غيرَ ذلك».

ثم قال للفارسي: «لقد عفوت عنك، فلا تَعُدْ إلى مثل ما كنت تفعل معي، فإنّ تقلباتِ الدهر سريعةٌ، يومٌ لك، وآخرُ عليك». فشكر له الفارسي كرم أخلاقه، وحسنَ صنعه، وندم على ما فعل معه بادئ الأمر، واتّخذه من أعظمِ أصدقائِه، واستدلّ بذلك على مروءة العرب وكرم أخلاقهم.

١١٥ ـ ٢ ـ العفو عند المقدرة

قيل إنّ العربَ لمّا فتحوا بلاد الأندلس، اعتدى شابٌّ إسباني على فتى من العرب وقتلَه، ثم فرَّ هارباً، واتفق أنْ مرَّ في طريقه بحديقة على بابها رجلٌ هَرِمٌ يبلغ عمُره، نحوَ مائةِ سنةٍ، فاستغاث به الشّاب، فأخفاه الرجل في حجرة بالحديقة.

وبعد قليلٍ من الزمن، حضر النَّاس يحملون القتيل، ووقفوا به على باب الحديقة، فتأمّله الرجل فوجده ابنه، فحزن ووقع على الأرض مغشياً عليه، ولكنّه أخفى حزنه، وكتم غيظه وانتظر حتى دخل الليل، ثم ذهب إلى الشاب، وعرّفه أن القتيل ابنه. فخاف وأيقنَ أن الرجل سيقتُلُه، فهدَّأ الرجل روعه، وأزال خوفه، وقال له: قد استغثت بي فأغثتك، وليس من ديني أن أنقضَ عهدي معك، فكن آمناً مِنّي، ولكن لا آمنُ عليك من قومي أن يقتلوك، فَفِرَّ من هذا البلدِ، وانجُ بنفسك. وزوّده بألف درهم. فأثّر هذا الوفاءُ، وذلك الخلقُ الكريمُ في هذا الفتى تأثيراً شديداً، حتى أيقنَ أنَّ للإسلامِ فضائلَ لو عمل بها أهله، لكانوا من أرقى أممِ الأرض.

١١٦ ـ في قياس الإنسان بسائر الحيوان

قد مَنَحَتِ الحِكَمُ الإلهية الحيواناتِ الإنسيةَ والوحشيةَ سلاحاً تدفع به عن نفسها، وتسطو به على أبناء جنسها، وغيرِ جنسها.

وأمّا الإنسان فهو مجرَّدٌ عن ذلك، ومُعَرَّضٌ بجميع أعضائه للمهالك، فجِلْدُه عرضةٌ لحرِّ الشَّمس، وزمهرير البرد، ومضار الرياح العواصف والتلاقيح القواصف، وقد حمى المولى سبحانه وتعالى جميع المواليد في سائر الهضاب والبطاح، حتى جعل للأشجار قشراً عليها وغلافاً يقوم عندها مقام السِّلاح، وخصَّ الطيورَ الجوارحَ بأظفارِها، ووهب لذات الأربعِ مخالبَها وقرونَها لتدفعَ بها عن نفسها حتى السلحفاة التي هي أضعف الحيوان، قدَ جعل لها درعاً يدفعُ عنها الأذى ويمنع عنها الرَّدى بخلاف الإنسان، فقد خرج من بطن أمه لا يعلم شيئاً، ولا يقدر على شيء إلّا بالتربية والتعليم.

فوجب تربيتُه وتعليمُه وإرشادُه للمعيشةِ والتَّكَلُّم، وتعويده أنْ يَتَفَكَّرَ ويتأمَّل.

١١٧ ـ القاهرة

إنَّ سبب تسميتها بهذا الاسم، هو أن جوهراً القائدَ لما رغب في بنيانها جمع المنجّمين وأمَرهم أن يختاروا طالعاً سعيداً ليدوم ملك سيده وذرّيته من بعده. فوضعوا في الأرض التي أرادوا اختطاطها قوائمَ من الخشب ربطوا فيها حبالاً بها أجراس، وأمروا العمّالَ ألّا يلقوا شيئاً في الأساس إلّا إذا سمعوا صوت الأجراس.

ثم تهيَّأوا لرصد الطالع، فاتفق نزولُ بعضِ الغربان على هذه الحبال، فاضطربت الأجراس، وظنَّ العمّالُ أن المنجِّمين حرَّكوها فوضعوا الأساس.

وعندها صاح المنجّمون «القاهر» أي (المريخ) في برج الطالع، فاشتق منه اسمها.

١١٨ ـ الكعك في العيد

إنّ الكعك كثير السَّمْنِ والسكَّر الذي يصنع في زمن الأعياد إنما هو يَنْبوعٌ صناعِيٌّ لأمراضِ المعدة والأمعاء والكبد، خصوصاً عقب الصيام، وخطره شديد على الأطفال والصبيان. ومن الغريب أنّنا نرى البعض منَ النّاس يُطْعِمُه للطفلِ الرضيع، مع أنه بمثابة سُمٍّ قتّال لمثله، وأشد منه خطراً، وأعظم منه ضرراً النوع المسمى (غريّبة)، وهو يُصْنَع أيضاً أيّامَ الأعياد، ولا يُقَدَّم إلّا للأعزّاء والأصدقاء، فكأنهم على قدر نصيبهم من المعزة والكرامة يوفون حظاً أوفر، ونصيباً أكبر من الضرر. ألا قاتلَ اللّهُ الجهلَ، فإنّه يحيل السِّيئَةَ حسنَةً، والضَّارَّ نافعاً، والواجب إذا كان وجوده لازماً زمن الأعياد أن يكون خفيفاً قليل الدسم والسكر، وأن يُجَفَّفَ في التنّور جيداً.

١١٩ ـ مضار الدَّين

إذا شِئْتَ أن تعلمَ قيمة المال فاذهبْ واقترِضْهُ من أحدِ الناس تجدْ أنَّ من استدان هان، لأنّك إذا صرت مديناً لأحدٍ ما فإنّك صرت عبداً رقّاً له، لأنَّ الجنيهَ الواحد

الذي تقترضه من جارك، هو ثمن حرّيتك الذاتية التي رهنتها لديه. فإذا سلَّمْتَ بأنّ المقترِضَ عَبْدٌ لمن أقرَضَه، نصحتك أن تنفرَ من هذا القيدِ المؤلم، واحفظ حرّيتك واستقلالَك، وواظِبْ على عملِك تكنْ حُرّاً، واقتصد تكن سعيداً. فإذا قدرت أن تكون نفقاتُك أقلَّ من دخلِك، فقد ملكْتَ حكمة الفلاسفة.

١٢٠ ـ اللغة العامية

الكتابة لا تزال باللغة العربية الصحيحة في الكتب الأدبية، وأمّا الكلام فقد تغلّبت عليه اللغة العامِّية، وهي خليط من العربية مع لغات أخرى، نشأ من اختلاط الأعاجم بالعرب، وهذه اللغة العامية تختلف باختلاف البلاد والعصور كما ترى ذلك في لغة أهل مصر، والشام، وبلاد المغرب.

ولقد كادت اللغة العامية في بعض الممالك تقضي على اللغة العربية الأصلية حتى أصبح معظم الناس في مصر مثلاً لا يستطيعون التَّعبيرَ بها، فيدرسونها كما تُدْرَسُ اللغات الأجنبية، فعلينا إذا أردنا إحياء هذه اللغةِ الجليلةِ أن ننفر من اللغة العامية، ونعقد الخناصر على كل كلمة لغوية أو عبارة صحيحة تمرُّ بنا.

١٢١ ـ النظافة

الصحَّة مِنْ أجلِّ النِّعَم التي يتمتّع بها الإنسان في هذه الحياة، وبدونها لا يقدر على القيام بواجباته، ولا على الدَّأْبِ في أعماله، ولا يلتذّ بشيء من أطايبِ الحياة وملاهيها.

والنَّظافة من أقوى الأسباب في حِفْظِ الصِّحَّةِ وأكبرِ الوسائلِ في دفع العلل. والعناية بها أمرٌ يجب لصالح الصغار والكبار. وهي تزيد البَدَنَ نشاطاً وبهاءً. ذلك لأنَّ الجِلْدَ الذي يغشى بَدَنَ الإنسانِ له مَسَامُّ عديدة صغيرةٌ جداً تكون مئاتٌ منها قدرَ الظّفرِ مِساحةً.

ومن هذه المسامِّ يترشّح الجسد عرقاً كلَّ يوم صيفاً وشتاء وإنّما يشتدّ ترشّحه على المتعرِّض للحرِّ أيّام القيظ.

وعلى العامل أي الصانع إذا عملَ عملاً شاقاً، وإذا بدا العَرَقُ على ظهرِ الجلدِ يمتزج بما يعلق بالبدن من الغُبَار الدَّقيق فتعلو الأدرانُ[١٦٣] البدنَ وتلبد فيه حتى تصيرَ كالغشاء عليه فَيَسُدُّ العرق مسامَّ الجلد فيحصل الضرر.

١٢٢ ـ أَخلاق العرب

إنّ العرب قلّما كانوا يحتاجون إلى حاكمٍ يَفْصِلُ في الخصومة بينهم لما فطروا

---

[١٦٣] ـ الأدران: الأوساخ.

عليه من المناقب الجميلة التي تقوم فيهم مقام الحاكم الصّارم، وتنزّههم عن ارتكاب الدنايا مما يغنيهم عن القضاء، والحكومة إنما تقضي بين الذين لا يعرفون الوفاء.

وكان الوفاء متمكناً في خلق العربي، ويزيد تمكناً فيه كلما بعد عن المدن وأوغل في الصحراء، لأن الغدر والنّكث[١٦٤] لا يعيشان إلّا في القصور الشمّاء، في ظل الحدائق الغناء.

وترى الوفاء مطبوعاً في أقوال أهل البادية وأشعارهم وأمثالهم، ويتجلّى في عاداتهم وأخلاقهم، وفي سائر أعمالهم، وهو فيهم سجيّة[١٦٥]، وفي سواهم تصنّع وتكلّف.

١٢٣ ـ العالم السماوي

مضى على الإنسان حينٌ من الدهر، وهو يظنُّ أنَّ عالمَ الكون يتركّب كلُّه من شمسه وما يدور حولها من كواكبَ سيَّارة، وأنَّ بقيّةَ النجوم ليست إلّا مصابيحَ تتلألأ في الظلام فتزين السماء، أما اليوم فقد دلّت الأرصاد على أنّ بين تلك المصابيحِ السماوية ما هو أعظمُ من الشمس بأمثال الأمثال، وجميعُها أجرامٌ عظيمة تتحرّك في الفضاء بقدر معلوم.

وما فلك شمسنا بما يدور حولها من كواكبَ سيّارةٍ إلّا فلك صغير من عدة أفلاك واسعة ذات شموس عظيمة، لا تقاس شمسنا بالنسبة إليها بشيء ما. وما أرضنا هذه التي نقطنها إلّا ذرة أو غبارة في عالم الأفلاك فسبحان الخالق العظيم.

١٢٤ ـ مثل الأمة

الأمة كالجيش، ترى فيه القائد والطبيب والمهندس والمعماري والميكانيكي والموسيقي والإمام وغيرهم، وكلُّهم يشعر بواجب واحد هو خدمة بلادهم وتضحيةُ نفوسهم من أجل وطنهم.

ولكن كل فرد منهم عليه واجب خاص قد فرض عليه القيام به خير قيام.

فالقائد يقود الجند إلى النصر والظَّفَر.

والطبيب يداوي المرضى والجرحى.

والمهندس يرسم طريق عبور الأنهار وصعود الجبال.

والمعماري يبني القلاع والحصون.

والميكانيكي يصلح البنادق والمدافع.

---

[١٦٤] ـ النّكث: نقض العهد أو اليمين أو البَيْعَة.

[١٦٥] ـ السَّجِيَّة: الطبيعة والخلق.

والموسيقي يبث في الجسد بسحر نغماته روحَ الشجاعة والإِقدام، وينسيهم متاعب الحرب وعناءها.

والإمام يصلّي بهم شكراً لله على ما تَوَّجَهُم به من النّصر

فإذا خلا الجيش من أحد هؤلاء كان ناقصاً ميتاً فاقداً لركن من أركان قوته.

١٢٥ ـ وصف مصر

مصر: هي بلادنا المحبوبة، ووطننا العزيز، تقع في الشِّمال الشَّرقي من إفريقيا، بين البحر الأبيض المتوسّط شمالاً، والسّودانِ جنوباً، والبحر الأحمر وبلاد الشام شرقاً، والصحراء الليبية غرباً.

وهي من أخصب البلاد أرضاً، وأصفاها سماء، وأعذبها ماء، وأجودها هواء، وألطفها سكاناً، وأكثرها قطاناً، يقصدها الناس من كلّ ناحية، ويؤمّونها من البلاد النائية، قد اشتملت على أبهج المناظر، وأبدع المساكن، وأجمل القصور، وأحسن الدور، بها آثار من دخلوها متعاقبين، وعاديات من ملكوها متتابعين.

كالأهرام العظيمة، والتماثيل الهائلة من بقايا الفراعنة، والصُّوَرِ والنقوش والمباني والمساجد.

وللنيل الفضلُ الأكبرُ، والنَّصيبُ الأوفر، في حياة مصرَ وهنائها ورفاهيتها وسعادتها، فهي هِبَةٌ منه ونِعْمَةٌ صادرة عنه.

١٢٦ ـ الصناعة

هي أصل من أصول التقدم، وعامل من عوامل النجاح، وسبيل إلى الغنى والثروة، اللذين بهما تَحْسُنُ حالُ الأمَّة، ويرقى شأنها، ويعزّ سلطانها.

ولذا مالت إليها الأمم المتمدينة ميلاً عظيماً وتعلقت بها تعلّقاً كبيراً، فتوطّدت بها دعائم دولتها وازدادت عظمتها.

وظهر منها النَّجار، والبنّاء، والحدّاد، والفلّاح، والنَّسَّاج، وصانع الآلات والأدوات، وغيرُ أولئك ممن أعزّوا بلادهم، وقدّموا أمّتَهم، ونالوا عزَّ الدهر.

وإنَّ الصُّنَّاعَ والعمّال هم الذين أوصلوا أمّتهم إلى ذروة الحضارة وينابيعِ الغنى والثروةِ وأغلبُهم من العامَّة وأكثرهم من السوقة.

ولكنّهم جدّوا واجتهدوا حتّى أفادوا الناس وزادوا راحة البشر فإنّ طعامنا وكسوتنا، وأثاث منازلنا والمصابيح التي ننير بها بيوتنا وطرقاتِنا والآلاتِ البخارية التي نركبها براً وبحراً وغير ذلك مما لا يزال العالم ولن يزال يجتني من ثماره، ويقطف من أزهاره ما يسد به حاجته وينال مقصده، كل ذلك نتيجة أعمالهم، وثمرة أتعابهم، وغاية اجتهادهم.

فهؤلاء الذين أسّسوا أركان التمدين والحضارة، وعملهم هذا لا يعد ضئيلاً أمام عمل الجنود، بل هو أحسن مغبة وأفضل خاتمة وأعظم جهاداً في سبيل رقيّ الأمة والبلاد.

١٢٧ ـ التجارة

هي ركن من أركان الحضارة، وأصل من أصول التقدم، بها ترقى الصناعة، وتتقدم الزراعة، ويظهر أهل الجد والنشاط والسعي والاجتهاد.

ويصنع الصانع فيجد من ينتفع بمصنوعاته شرقاً وغرباً.

ويزرع الزارع فيرى من يستفيد من مزروعاته في بلاده، فيزداد الصانع نشاطاً وقوة.

والزّارع جداً وسعياً، فيعم الخير والهناء جميع الناس.

وليست كل أرض تقوم بحاجات أهلها، وقلّما تتوفر فيها موارد الحياة.

فمن الواجب أن يتبادل الناس فيأخذَ كلٌّ ما يفتقر إليه من الآخر حتى يعيشوا فرحين مسرورين.

لقد ازداد التعارف بالتجارة، وتمّ التآلف والتعاون، وانفتح للنّاس باب وصولهم إلى كل خير وسعادة؛ فلولاها ما أنشئت تلك السفن التي تمخر عبابَ البحار ولا هذه القطر التي تجوب أطراف البلاد فتنقل البضائع من الغرب إلى الشرق والمزروعات من الشرق إلى الغرب، ولا انتفع حمّال ولا نقّال، ولا رقّت صناعة ولا نمت زراعة، ولعاش كثير من الناس في بؤس وشقاء.

وإنّ الأمم العظيمة الآن تتنافس وتتسابق في التجارة، فإن عُقِدَتْ عهودٌ فمن أجلها، وإن أبْرِمَت شروط فلها، وإن حصل خصام أو نزاع فبسببها، ذلك لأنها أقرب طريق إلى سعادة الأمة ورقيها، وازدياد ثروتها وتقدمها على غيرها.

لذلك اعتنوا بها، وفتحوا لها المدارس، فأخرجت أناساً ارتقوا بأمّتهم إلى ذروة السّعادة والخير.

والأمانة والنزاهة والاستقامة والعدالة والصِّدق وترك الغشّ؛ كل هذه أوصاف يجب أن يتحلّى بها التاجر حتى يكسبَ ثقة الناس فيربحَ مالاً وصداقةً وثروةً ومودّةً، ويحسُنُ ذكره، وتُحْمَدُ سيرته، وإن ذلك لهو الربح العظيم، إنّ الله لا يضيعُ أجرَ من أحسَن عملاً.

١٢٨ ـ الزّراعة

هي الوسيلة العظمى، والسَّبب الأقوى في بقاء الإنسان والحيوان وعيشتهما في

الحياة، إذ منها يكون الغذاء والسكن واللباس والأثاث والمتاع، وكل خير وهناء.

نرى الأرض هامدةً[1] لا زرعَ فيها، ولا نباتَ، فإذا أرواها الزّارع بجدِّه ونشاطه بعد فلحها وإلقاء البذر بها، اهتزّت وربَتْ وأنبتت من كل زوج[2] بهيج[3] فيجني منها غذاءه وغذاء أهله وحيوانه، ثم يدّخر ما شاء، ويبيع ما شاء فيفيد نفسه ويفيد الناس منه ويغنيها ويغني أمّته متى كان عاقلاً مدبراً، لا مسرفاً مبذراً.

ولعلوِّ شأن الزراعة وعِظَمِ نفعِها اعتنتِ الأمم المتحضّرة بها.

فأنشأت لها المدارس، وأقامت لها المعارض، وكافأت النابغين فيها، وأصلحت من طرق الري وبَنَتِ القناطر والجسور، وحفرت الترع والمصارف وغير ذلك مما عاد عليها، وعلى الناس بالخير والسعادة والغنى والثروة، وهذا جزاء العاملين، وإنها لجديرة بكل ذلك.

فمنها الأقواتُ والأدوية والروائح الزكية، والعيدان العطرية والفواكه والملابس والوقود والخشب الذي تصنع منه السفن وتسقف به المساكن، وتعمل منه الأبواب والنوافذ وغيرها. كلّ ذلك من نتاج الزراعة ومن ثمرها، فهي من أعظم الوسائل لرقي البلاد وسعادتها وتقدمها وعلوِّ شأنها، متى ادرع القائمون بها بالاقتصاد، وابتعدوا عن الدَّيْنِ والإسراف، هدى الله الناس إلى سواء السبيل.

١٢٩ ـ تلاميذي

أنتم رجال الغد، وموضع الآمال، ومن ستكون بيدهم مقاليد الأمور والأعمال، فيكون منكم الوزير، والأمير، والرئيس، والكبير، والعالم، والحكيم، والمهندس، والطبيب، والمعلم، والمربي فتصبحون وبيدكم مفتاح الخير، والسعادة لكم، ولأمتكم، وبلادكم، فكونوا خير خلف لخير سلف، كونوا رجالاً عاملين أعزّة، كونوا خير أمناء، كونوا عادلين، تجمّلوا بالآداب، كمّلوا أنفسكم بمكارم الأخلاق: [البسيط]

فإنّما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

كونوا بين الناس ضياء ونوراً، ومصدر كلِّ خير وكمال، كي يقتدوا بكم ويهتدوا بنوركم، ويكونوا لكم عوناً وناصراً، يستمعون قولكم ويطيعون أمركم.

ابتعدوا عن الكبر فإنّه ممقوت، تجنّبوه فإنّه من أقبح الرذائل، فارقوه وانفروا منه، فإنه لن يفيد صاحبه غير الامتهان والاحتقار. حافظوا على وقتكم، لا تصرفوه

---

(١) هامدة: يابسة وساكنة.

(٢) زوج يقال للاثنين زوجان.

(٣) وزوج بهيج حسن.

في غير مفيد، لا تجعلوه يضيع سدى فهو محسوب عليكم، وما هو إلّا عمركم، فإن أنتم ملأتموه بالخيرات كان لكم ذكراً حسناً، وفخراً دائماً، وإن أنتم أضعتموه فيما لا يفيدكم وينفعكم، كان شاهداً عليكم بين يدي خَلَفِكم، وذلك ما لا يُنْتَظَرُ منكم.

إنّ وقتَ الشباب هو وقتُ العمل، وقتُ الشباب هو وقتُ بناء المستقبل الحسن، وقتُ الشباب هو وقت السّعادة الأبدية، فادّخروا من شبابكم لهرمكم ومن صحَّتِكم لمرضكم، ومن قوّتكم لضعفكم، واعملوا لسعادتكم وخيركم في هذا الزمن الذي سيندم عليه الكسول، ويتمنّى رجوعه الخامل، وذلك ما لا يكون أبداً.

نافسوا في المكارم، وأحبّوا الخير وتجنّبوا الشَّرَّ، وكونوا إخواناً عاملين على نجاحكم ونجاح أمّتكم وبلادكم.

وتعاونوا على البرِّ والتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان، واتقوا الله إنّ الله شديد العقاب.

١٣٠ ـ المستشفيات

هي من أهم ما تحتاج إليه الأمم لحفظِ صِحَّةِ أفرادها من غوائل الأمراض، وطوارئ العِلَل التي يتعرّض إليها الإنسان بطبيعة جسمه وحوادث الجو. ولذلك اعتنت الحكوماتُ الرَّاقية وكثيرٌ من ذوي البِرِّ والإحسان بتشييدها في أماكنَ مستجمعة لشرائط الصحة، واستحضروا بها أنْفَسَ العُدَدِ وأدقَّ الأدوات وعيّنوا بها مهرة الأطباء وخيرةَ السَّيدات الممرضات، ذوات الشفقة والحنان.

فأنقذت العامة من مخالب الأدواء والمهالك التي طالما فتكت بهم وهم لا يستطيعون ردّها بإحضار الأطباء وشراء ما يلزم من الدواء، فلحق بأولادهم ومن يعولون من نكد العيش ما تذوب له القلوب وتقشعِرُّ منه الأبدان؛ أزالت المستشفيات تلك النكبات، فيُجاء بالمريض إليها ويُفْحَصُ داؤه، ويعطى دواءه ويُرَتَّب له ما يلائمه من الغذاء ويطوف به الطبيب صباح مساء، والخدم والممرضات من حوله يلبّون نداءه، ويراقبون أخطار دائه.

ويظل كذلك حتى يَبِلَّ[١٦٦] من مرضه، ويخلص من علله، بلا أجرٍ إن ثَبُتَ قصورُ ذاتِ يده، وإلّا فبأجر زهيد لا يكاد يذكر بجانب ما أُنْفِقَ لأجلِه، وقد أُعِدَّتْ بها أماكنُ للأغنياء والأواسط في مقابلة أجر معلوم، يوفر عليهم ما كانوا يصرفونه في بيوتهم من طائل الأموال في استحضار الأطباء وأصناف الدواء مع عدم توفر طرق الإسعاف بالمنازل.

[١٦٦] ـ بَلَّ من مرضه: بَرَأَ وصَحَّ.

فما ظنّك بتلك الأماكن التي حفظت النفوس في أجسامها وردّت جيوش الأمراض على أعقابها؟

١٣١ ـ التقليد

التقليد: غريزة أودعها الله ـ جلّ شأنه ـ في نفس الإنسان لتكون داعية العمل، ورائد الرقي، ومبعث الحركة، ومطلع شموس المدنية والعمران.

يولد الطفل وهو لا يعلم شيئاً من شؤون الحياة، فتراه مولعاً بتقليد أمه وأبيه وسائر ما يقع تحت حواسه من حسن أو قبيح، فجدير بالإنسان أن يصرف تلك الغريزة إلى النافع من الأشياء، ويجعلها وصلة بينه وبين أعاظم الرجال، فيقلدهم في ما أتوه من جليل الأعمال.

فإن شاء فليكن مرشداً حكيماً، أو قائداً عظيماً، أو صانعاً متقناً، أو زارعاً محسناً، أو طبيباً ماهراً، أو أصولياً بارعاً، أو جندياً مدافعاً، أو تاجراً أميناً، أو مخترعاً مفيداً، أو سائحاً مستطلعاً، أو قاضياً عادلاً، أو وزيراً نصيحاً، أو خطيباً فصيحاً حمياً لوطنه في كل ذلك غيوراً عليه.

فإنه إن فعل ذلك علم مقدار نفسه في الوجود، وقلّد تقليداً نافعاً، واستفاد وأفاد.

وإن أضاع تلك الهبة النفيسة، وقلّد تقليد الغراب، وكان كمن اغترّ بالسراب، وبهره حسن المنظر فشغله عن سوء المخبر وصار يخبط في أموره خبط عشواء لا يميّز بين السَّراء والضَّراء، فذلك الذي رجع بصفقة المغبون، وضلّ ضلال المفتون.

١٣٢ ـ المكافآت

جبلت النفوس على حبِّ المحمدة والثَّناء، ونيل الجزاء العاجل أو الآجل، علم جل شأنه منها ذلك، ووعدها عشرة الأمثال والأضعاف المضاعفة مثوبة(١) منه تعالى على إسداء(٢) الخير وفعل البِرّ(٣) وكل صالح يعود بالفائدة على الفرد أو الجماعة أو عامة بني الإنسان، ونهج(٤) النهج(٥) ساسةُ الأمم الناهضون بها ورؤساء المصالح فمنحوا(٦) المجيدين المكافآت، وحلُّوا صدور النابغين في أعمالهم بالأوسمة وشارات(٧) الشرف وميّزوا الناجحين بأنواع الشهادات فكان لذلك الأثر الصالح في

---

(١) جزاء.
(٢) إعطاء.
(٣) الإحسان.
(٤) سلك.
(٥) الطريق.
(٦) أعطوا.
(٧) علامات.

إنهاض العزائم وترقية الأمم والإجادة في الصنائع والتسابق في ميدان الابتكار والاختراع.

ألم تر إلى الملأ من الأمم الراقية يجعلون الآلاف من النقود لمن ينبغ في عمل من الأعمال التي لم تكن قد دخلت تحت قدرة مخلوق من قبل؟ فينبري من بينهم المنافسون والسبّاقون إلى أبعد الغايات فيجوز أحدُهم قَصَبَ السَّبْقِ، فيرجع برفيع الذكر وسابغ اليسر.

١٣٣ ـ المعارض

هي مظاهر أعمال الأمم، وبراهين تفاوت الهِمَم، ومشارق أنوار الاختراع، ومجامع أحاسن المصنوعات، ونظام نفائس المبتكرات تختلف باختلاف الأمم وتباين محصولاتهم ومبلغ علومهم وتفاوت مداركهم وميلهم إلى جليل الأعمال وعظيم الآمال.

فالأمة التي قد رزقها الله بَسْطَةً[١٦٧] في المواد الصناعية واشتملت طبقات أرضها على أصناف المعادن، وأعملت فكرها، وبذلت جهدها في سبيل الانتفاع بتلك المكنونات تريك في معارضها من المصنوعات ما يأخذ بألباب الناظرين ويستهوي عقول الناقدين، ويستدرّ عبارات الشاكرين، وتجلي لك العقل الإنساني في علوّ درجاته ومديد سبحاته، والأمة التي قد منحها الله ثرى طيباً، وسقياً نافعاً وشكرت أنعم الله عليها وقامت بعمارة أرضها واستثمرتها بأنواع الزرع تعرض عليك من مزروعاتها ما ينشرح له صدرك، وينتعش به لُبُّك، وترى في معارضها من وسائل الزراعة وأدواتها ما تستعين به على الحرث والغرس وما ترفع به ماء الآبار، وما تستدر به مياه الأنهار.

١٣٤ ـ جمعية الإسعاف

لا ترى أثراً حسناً أدلَّ على رحمة الإنسان من تلك الجمعية التي عرف رجالها موضع الحاجة فسدُّوه، ومكان الداء فعالجوه. رأوا المدن المائجة بالنّاس كالقاهرة مثلاً تغدو فيها السيارات، وتروح مراكب الكهرباء، وبين ذلك تقع الأقدار ويصاب كثيرٌ من السّابلة[١٦٨] بصدمات هذه السيارات فكانت الحاجة ماسة إلى إسعاف هؤلاء بتضميد جراحهم ونقلهم إلى المستشفيات، ولقد نهض رجال الإسعاف بعبء ذلك العمل وقاموا به خير قيام.

تحدث الحادثة، فما نلبث أن نرى رجلاً من رجال الإسعاف قد أقبل ينهب

---

[١٦٧] ـ البَسْطَة: الزّيادة.

[١٦٨] ـ السّابلة: المارّة.

الأرض بسيارته، وسرعان ما يقوم بتضميد المصاب، ثم يمهده ذلك المهاد الوطيء الذي لا يحس فيه بألم، ولا تزعجه حركة، ويسير به إلى المستشفى.

وإن تعجبْ فعجب ما تأتيه رجال هذه الجماعة من النّشاط الذي يصورهم في عين الرائي كأنّهم ملائكة الرحمة، يراقبون الحوادث حتى إذا وقعت حادثة كانوا بجانبها يخفّفون ويلاتها ويهوّنون ألمها، جزاهم الله خيراً، وأثابهم مغفرة وأجراً.

* * * *

وفي هذا القدر من الأمثلة والتمرينات كفاية، وهداية لطلبة «علم رسم الحروف العربية» فقد بذلنا مجهودات عظيمة في تذليل قواعد هذا الفن وتقريبها إلى طريقة مثلى ملائمة لروح التعليم الحديثة والأنظمة العصرية بعنايةِ وتوفيقِ ربِّ العالمين.

وببركة رسوله سيدنا محمد خاتم النبيين والمرسلين

صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه

أجمعين ـ آمين

١

فهرس المصادر والمراجع

١ ـ القرآن الكريم
٢ ـ أصول الإملاء، د. عبد اللطيف محمد الخطيب ـ مكتبة الفلاح ـ الكويت ١٩٨٣.
٣ ـ إعراب القرآن الكريم، أبو جعفر النحّاس، تحقيق د. زهير غازي زاهد ـ مطبعة العاني بغداد ١٩٧٧.
٤ ـ أمالي السهيلي في النحو واللغة والحديث والفقه، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله الأندلسي، تحقيق محمد إبراهيم البنا ـ مكتبة السهيلي (١) ـ مطبعة السعادة بمصر.
٥ ـ الإملاء العربي، أحمد قبّش، دار الرشيد، دمشق ـ بيروت ١٩٨٤.
٦ ـ الإملاء والترقيم في الكتابة العربية، عبد العليم إبراهيم ـ نشر مكتبة غريب ـ القاهرة ١٩٧٥.
٧ ـ الإملاء العربي الميسّر الشامل المجدول، فيصل العلي، مؤسسة علوم القرآن، عجمان ١٩٩٠.
٨ ـ باب الهجاء، الإمام ابن الدّهّان النحوي، تحقيق فائز فارس ـ مؤسسة الرسالة ١٩٨٦.
٩ ـ البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٨هـ.
١٠ ـ البيان في غريب إعراب القرآن، أبو البركات بن الأنباري، تحقيق: طه ـ السّقا، الهيئة المصرية العامة ١٩٨٠.
١١ ـ تسهيل الإملاء، فهد أحمد الجباوي، دار القلم دمشق ١٩٩٢.
١٢ ـ تعلّم الإملاء وتعليمه، د. نايف معروف، دار النفائس ـ بيروت ١٩٨٤.
١٣ ـ تفسير القرطبي، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ لا.ت.
١٤ ـ درة الغوّاص في أوهام الخواص، أبو محمد الحريري، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر ١٩٧٥.

١٥ ـ شرح الشافية، رضي الدين الأستراباذي، تحقيق محمد نور الحسن وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٧٥.
١٦ ـ شرح قطر الندى وبلّ الصّدى، ابن هشام النحوي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٧م.
١٧ ـ شرح المفصّل للزمخشري، الشيخ موفّق الدين بن يعيش النحوي، إدارة الطباعة المنيرية بمصر. لا.ت.
١٨ ـ القواعد الأساسيّة للغة العربية، أحمد الهاشمي، تحقيق محمد قاسم، المكتبة العصرية ١٩٩٨.
١٩ ـ قواعد الإملاء، عبد السلام هارون، نشر مكتبة الأمل في الكويت ١٩٦٧.
٢٠ ـ القواعد الموحّدة في الكتابة والإملاء، محمد علي سلطاني، المكتب الإسلامي ـ دار النفائس الرياض ١٩٨٩.
٢١ ـ كتاب الإملاء، الشيخ حسين والي، دار القلم بيروت ١٩٨٥.
٢٢ ـ كتاب الكتّاب، ابن درستويه، تحقيق إبراهيم السامرائي ـ عبد الحسين الفتلي، دار الكتب الثقافية ـ الكويت ١٩٧٧.
٢٣ ـ الكليّات، أبو البقاء الكفوي، تحقيق عدنان درويش ـ محمد المصري، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ١٩٨١.
٢٤ ـ الكشّاف، أبو القاسم جار الله محمود، دار المعرفة. لا.ت.
٢٥ ـ لسان العرب، ابن منظور، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرين، دار المعارف بمصر لا.ت.
٢٦ ـ مجمع الأمثال، أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل بيروت ١٩٨٧.
٢٧ ـ المحكم في نقط المصاحف، أبو عمر عمرو بن عثمان بن سعيد، تحقيق عزّة حسن، مديرية إحياء التراث القديمة، دمشق ١٩٦٠.
٢٨ ـ مراتب النحويين، أبو الطيّب اللغوي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر ١٩٧٤.
٢٩ ـ المرجع في الإملاء، راجي الأسمر ـ جروس برس، لا.ت.
٣٠ ـ المزهر في علوم اللغة، السيوطي، تحقيق محمد أحمد جاد المولى وآخرين عيسى البابي الحلبي، مصر ١٩٧٤.
٣١ ـ مشكل إعراب القرآن، مكيّ بن طالب القيسي تحقيق ياسين السوّاس ـ مجمع اللغة بدمشق.

٣٢ ـ معاني القرآن، الفرّاء، عالم الكتب، بيروت ١٩٨٠.
٣٣ ـ معجم المذكّر والمؤنث في اللغة العربية، محمد قاسم، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٩.
٣٤ ـ المعجم الوسيط، مجمع اللغة بالقاهرة، د. إبراهيم أنيس وآخرون، دار الفكر، لا.ت.
٣٥ ـ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام، تحقيق مازن المبارك وآخرين، دار الفكر بيروت ١٩٧٩.
٣٦ ـ المقرّب، ابن عصفور، تحقيق أحمد عبد الستار الجواري ـ عبد الله الجبوري، مطبعة العاني بغداد ١٩٧١ ـ ١٩٧٢.
٣٧ ـ الممتع في التصريف، ابن عصفور الإشبيلي، تحقيق فخر الدين قباوة، المكتبة العربية حلب ١٩٧٠.
٣٨ ـ همع الهوامع، جلال الدين السيوطي، تحقيق عبد العال سالم مكرم، دار البحوث العلمية، الكويت ١٩٧٧.
٣٩ ـ وفيات الأعيان، ابن خلكان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت ١٩٧٨.

٢

فهرس الموضوعات

الباب الثاني

الباب الثالث

الباب الرابع

الباب الخامس

الباب السادس

الباب السابع

الباب الثامن